

الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل والتدخل الأنجلو / فرنسى (١٨٦٣ - ١٨٧٩)

1445



تأليف: محمد صبرى السوربونى
ترجمة: ناجى رمضان عطية
مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الشلق



لقد كان السربونى مؤمناً بعظمة مصر وبقدرتها على وضع إمبراطورية تمتد فى قلب القارة الإفريقية لتنتشر فى ربوعها الحضارة والسلام. وقد نجحت فى ذلك بالفعل، ولكن التدخل الأنجلو / فرنسى حاصر هذه الإمبراطورية، وأضعف مصر ذاتها، وقد انعكست آثاره على ممتلكاتها وإمبراطوريتها الإفريقية.

وفى هذا العمل راح المؤلف يدرس بعمق أوضاع مصر والضغوط الأجنبية عليها والأزمات المالية التى أرهقتها، قبل دراسته لتوسعها فى أفريقيا فى عهد إسماعيل؛ لاعتقاده بأنه لن يتسنى لنا أن نتفهم أوضاع الإمبراطورية، ما لم نتفهم ما الذى يدور فى رأسها وهو القاهرة.

الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل
والتدخل الأنجلو / فرنسى
(١٨٦٣ – ١٨٧٩)
الجزء الثانى

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1445
- الإمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الأنجلو فرنسى (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ج ٢
- محمد صبرى السوربونى
- ناجى رمضان عطية
- أحمد زكريا الشلق
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

L'Empire Égyptien
Sous Ismail
et
L'Ingérence Anglo - Française
(1863 - 1879)
De: Mohamed Sabry
"جميع الحقوق محفوظة لأسرة المؤلف"

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

**الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل
والتدخل الأجلو فرنسى (١٨٦٣ - ١٨٧٩)
الجزء الثانى**

تأليف: محمد صبرى السوربونى
ترجمة: ناجى رمضان عطية
مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الشلق



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

السوربونى، محمد صبرى.
الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل والتدخل الأنجلو فرنسى
(١٨٦٣ - ١٨٧٩) ج٢، تأليف: محمد صبرى السوربونى؛
ترجمة: ناجى رمضان عطية؛ مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الشلق.
ط١ - القاهرة. المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠.
٣١٦ ص ، ٢٤ سم
١- مصر - تاريخ - العصر الحديث - عصر إسماعيل
(١٨٦٣ - ١٨٧٩م)
(أ) عطية، ناجى رمضان (مترجم)
(ب) الشلق، أحمد زكريا (مراجع ومقدم)
(ج) العنوان
٩٦٢,٠٣٤

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٦٨١
الترقيم الدولى: 5 - 210 - 479 - 477 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم،
ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتوى

7	الفصل التاسع: المقدمة.....
23	الفصل العاشر: مصر وإنجلترا فى البحر الأحمر.....
61	الفصل الحادى عشر: الإدارة المصرية فى أفريقيا الشرقية.....
99	الفصل الثانى عشر: الإدارة المصرية فى السودان (١٨٢١ - ١٨٧٧).....
119	الفصل الثالث عشر: صمويل بيكر فى وسط أفريقيا (١٨٦٩ - ١٨٧٣).....
143	الفصل الرابع عشر: حرب الحبشة (١٨٧٥ - ١٨٧٦).....
167	الفصل الخامس عشر: جوردون فى وسط أفريقيا (١٨٧٤ - ١٨٧٦).....
213	الفصل السادس عشر: جوردون فى السودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩).....
289	الببليوجرافيا:.....
301	هوامش المؤلف:.....
303	آراء النقاد والعلماء:.....

الفصل التاسع

المقدمة

- ١- أوروبا والتوسع المصري.
- ٢- الأسباب العامة لسياسة مصر في أفريقيا.

المقدمة

أولاً: أوروبا والتوسع المصري:

حظيت مصر - فى القرن التاسع عشر - بحاكمين عظيمين، أو بالأحرى: اثنين من بناء الإمبراطورية هما: محمد على وإسماعيل.

لقد ضمت إمبراطورية محمد على: مصر والسودان، وشبه الجزيرة العربية، وفلسطين وبلاد الشام، وكريت، وجزءاً من آسيا الصغرى، أى أنها امتدت فى قارتى آسيا وأفريقيا. ولكن عندما أراد محمد على أن يسبق أوروبا - خصوصاً إنجلترا - فى تقسيم الإمبراطورية العثمانية، فإنه أثار - بذلك - مخاوف الدول الرئيسية فى أوروبا فتحالفت كلها ضده وانتصرت عليه.

ولم تكن أوروبا لتقبل بأن يسبقها والى مصر فى تصفية ميراث الدولة العثمانية ولا أن يشاركها فيه، ولا بانضمام مصر الفتية إلى مجموعة الدول المتحضرة. وحتى الحماية التى أسبغها محمد على - فى جميع أرجاء إمبراطوريته - على المسيحيين ومصالح المسيحية لم تجده نفعاً ولم تجتث جذور الكراهية العميقة التى كانت تكنها أوروبا - فى ذلك الوقت - ضد إنشاء دولة مسلمة أو مجرد إنشاء دولة أفريقية أو آسيوية جديدة.

وكانت مصر هى البلد المهيئاً تماماً لكى يكون مركز تجديد شباب الشرق وبعث قوته مُجدّداً. إذن، فقد كان يجب على أوروبا أن تتدّ انطلاقة مصر الوليدة لكى لا تجد [أوروبا] أبواب آسيا والقارة الأفريقية مغلقة فى وجه نشاطها الاستعماري^(١).

وبعد تقطيع أوصال الإمبراطورية المصرية - فى سنة ١٨٤١ - اقتنع البعض بأن مصر قد انحرفت عن توجّوها الطبيعي عندما توسّعت فى آسيا: فإبراهيم باشا نفسه كان يقول إن العظمة الحقيقية لمصر وتطورها الحقيقى

موجودان فى السودان. وتَبَنَّى نوبار باشا هذه الفكرة ونَصَح إسماعيل بالأُ يَتَوَسَّع أبداً فى اتجاه بلاد الشام، وبأن تُركِّز مصر جهودها لأداء دورها الحضارى العظيم فى أفريقيا.

وكان ذكاء إسماعيل قادراً على استيعاب الأفكار العظيمة: فَتَبَنَّى - بدوره - فكرة والده - رجل الدولة العظيم - وجعلها محور سياسته. وفى عهده، مَدَّت مصر سيطرتها على:

١- كل الساحل الأفريقى الذى يقع على البحر الأحمر.

٢- وكل ساحل بلاد الصومال الذى يقع على المحيط الهندى (حتى "رأس حافون" و"كيسمايو"، فى مواجهة جزيرة زنجبار).

٣- واحتلت بلاد "هَرَّر"، وهى "المنطقة الخلفية" (Hinterland) لمينائى "زِيلَغ" و"بربرة" (الواقعان على خليج عدن).

٤- وقامت مصر بضم منطقة "دارفور" الشاسعة إلى السودان نفسه.

وبذلك أصبحت حدود الممتلكات المصرية جنوباً تصل حتى "منطقة البحيرات العظمى" فى "أوغندا" و"أونيورو" و"خط الاستواء"، أى "وادي النيل" بأكمله.

ولكن أوروبا كانت تُهَيِّم على أقدار الشرق، ولم تتخل - أبداً - عن الخطة التى وَضَعَتْها منذ عهد محمد على وهى: يجب ألاَّ تسبق مصر أوروبا، ويجب ألاَّ تُشاركها لا فى أفريقيا ولا فى الشرق. ولذلك، شَنَّت أوروبا صراعاً مأساوياً ضد مصر. ومَرَّ هذا الصراع بثلاث مراحل رئيسية:

• المرحلة الأولى (١٨٤١ - ١٨٧٠): مَنَعَتْ دول أوروبا - ما عدا إنجلترا - مصر فعلياً (de facto) من تدعيم استقلالها. وفى تلك الفترة، كانت فرنسا هى أكثر دول أوروبا نفوذاً فى مصر بفضل "نظام الامتيازات الأجنبية"، و"شركة برزخ السويس".

• المرحلة الثانية (١٨٧٠ - ١٨٨١): تم افتتاح قناة السويس، وأثار تكوين إمبراطورية إسماعيل ذروة أطماع إنجلترا: فتخلت عن لا مباليتها الظاهرية، واعتمدت على رجال المال لكي يَرْهِنُوا مصرَ رَهْنًا شاملاً لحساب سياسة "الحكم المشترك" التي تستفيد منها إنجلترا وفرنسا.

• المرحلة الثالثة (١٨٨٢ - ١٨٨٨): استفادت إنجلترا من الثورتين اللتين أثارتهما - أو اللتين شجَّعت عليهما - في مصر والسودان لكي تحتل مصر أولاً، ثم تُجبرها - والسكين على رقبتها - على الانسحاب من الولايات التي تتكوَّن منها إمبراطوريتها؛ وفي نهاية الأمر، قامت إنجلترا باحتلال هذه الولايات التي كانت في ملكية مصر لأنها أراض بلا مالك، حسب قانون الغزو.

وهناك بعض الدبلوماسيين الإنجليز الذين وَجَّهُوا اللوم للسياسة الإنجليزية لأنها ظَلَّتْ غير فعَّالة - في أفريقيا - حتى سنة ١٨٧٥، ومنهم "سكوت كيلتي" (Scott Keltie) مؤلف كتاب "Partage de l' Afrique". ولم يتردد هؤلاء الناقدون في وَصْف كل الساسة الإنجليز (ما عدا بعض الاستثناءات) بأنهم كانوا في تلك الفترة متوسطي القدرات، وبلا نظرة شمولية، وقصيرى النظر (short sighted). ولكن هذا الحكم يبدو لنا ظالم وبلا سند: فسياسة إنجلترا كانت تُفضِّل العمل بنظرية "المراحل" فيما يتعلَّق بتقسيم أفريقيا والإمبراطورية العثمانية.

إن نشاط السياسة الإنجليزية يبدو سلبياً في الظاهر فقط، ولكنه كان مثمرًا للغاية: ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان هذا النشاط يتركز في صَرْف أنظار فرنسا وروسيا ومصر - على التوالي - عن أية فكرة للهيمنة سواء في الشرق أو في الغرب. وفي الوقت نفسه، كان النشاط السياسي الإنجليزي يُدبِّر - بدراية وعن عِلْم - للاستيلاء على أكبر نصيب من تركية "الرجل المريض".

ولكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تستطع إنجلترا منع فرنسا من زيادة نفوذها في شمال أفريقيا؛ فقد استطاعت فرنسا احتلال الجزائر

(منذ سنة ١٨٣١)، كما سَعَتْ للسيطرة على مصر والبحر الأحمر (بواسطة قناة السويس والتدخل المستمر في شئون مصر الداخلية). ولم تستطع إنجلترا - كذلك - منع مصر من بسط سيادتها على البحر الأحمر ووسط أفريقيا؛ فتدخلت إنجلترا - بحسم - واستولت على وادى النيل بأكمله مستخدمة المستكشفين والمبشرين الإنجليز ومجموعة من الإجراءات الجريئة. وهكذا، فعندما بدأ اندفاع الهجمة الاستعمارية الأوروبية على أفريقيا (منذ سنة ١٨٨٥)، كانت إنجلترا موجودة بالفعل هناك - قبل أية قوة أوروبية أخرى - وكانت آخذة في تنفيذ خطتها التي فُكرت فيها مسبقاً منذ زمن طويل.

ثانياً: الأسباب العامة لسياسة مصر في أفريقيا:

إن فكرة تكوين دولة عظمى لم تَمُتْ بموت محمد على بل ظلت حيّة بعد وفاته. وكانت أوروبا قد فرضت على مصر وضع التبعية للسيادة العثمانية بعدما كانت مصر قد تحرّرت منها روحياً. ولذلك أُجبرت مصر على التقاهم المباشر مع تركيا لتوطيد استقلالها الفعلي، ولكي تتوسّع - ليس في آسيا - ولكن في أفريقيا حيث لن تصطدم بمصالح السلطان ولا بمصالح أوروبا.

ومثلما أراد محمد على، فإن إسماعيل كان يريد التحرر التام من نير تركيا. ولكنه كان يعرف مدى شراسة معارضة أوروبا لهذه الفكرة؛ فحاول أن يحصل بقوة المال على ما لم يستطع جده الحصول عليه بقوة السلاح، أى أنه أراد تنفيذ غرضه باتباع السياسة التي اتبعها محمد على بعد سنة ١٨٤١. وخلال زيارات إسماعيل للأستانة، دفع ملايين الجنيهات "لشراء" - أو بالأحرى "رشوة" - السلطان نفسه ووزرائه، وكبار أعيان وجرائد الدولة العثمانية.

وبفضل المهارة الدبلوماسية لوزيره نوبار باشا، حصل إسماعيل من "الباب العالي" على ثلاثة فرمانات متتالية (في ١٨٦٦ و ١٨٦٧ و ١٨٧٣). وكان فرمان الأخير بمثابة "ميثاق" سياسى جديد لمصر: فرمان سنة ١٨٧٣ جعل وراثة العرش من الأب إلى الابن مباشرة، ومنح الوالى لقب "خديوى"، ووسّع من سلطاته فى

مجال الجيش (الذي كان عدده محدودًا بناءً على معاهدة سنة ١٨٤١)، وسمح له بالحصول على قروض، وعقد معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية.

واشترى إسماعيل نقدًا - وبشمن غال - جميع الامتيازات التي تكاد ترفعه إلى مصاف الملك، ولكنه لم يكن من ذلك النوع الذي يستطيع إعلان نفسه ملكًا مستقلًا تمامًا ويقطع آخر علاقة تربطه بتركيا.

ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من الفرمانات الجديدة التي تعدل من الوضع الذي فرضته معاهدة لندن على مصر، فإن مصر لم تكن قادرة على تحرير نفسها من قيود هذه المعاهدة: فكان التوسع في أفريقيا هو الذي يُتيح لها اكتشاف العظمة والحرية من خلال هذا المنظور الذي يسمح لها بأن تستعيد حُسبها القومي، وأن تطور بعض قدراتها النائمة.

وبالاتجاه نحو أعالي النيل، فإن مصر قد أرادت التحرر - أيضًا - من الضغط الأجنبي (الأوروبي) الواقع عليها، وأن تحمي استقلالها الذي تهدده الأخطار التي تُهب من أوروبا بلا انقطاع ومن كل نوع. ولسوء الحظ، فإن الخديوي - في الداخل - قد ترك أوروبا تُضعف استقلال بلاده وتتقص منه مع أنه هو "مفتاح عقد" إمبراطوريته؛ أما في الخارج، فقد استمر الخديوي في توسيع حدود مصر.

لقد دخلت أوروبا إلى القارة السوداء من بوابة مصر، على وجه التحديد، ومن المناسب هنا أن نُذكر بأن فرنسا وإنجلترا وإيطاليا - حتى سنة ١٨١٥ - لم يكن قد فكرن بعد في السيطرة المباشرة على البحر الأحمر أو على أفريقيا من الداخل: ففي بداية القرن التاسع عشر، كانت ممتلكات أوروبا في أفريقيا عبارة عن "وكالات تجارية" ومدن ومحطات تقع كلها على سواحلها. وبين سنتي ١٨١٥ و١٨٧٥، كان غزو فرنسا للجزائر هو أهم غزو أوروبي لأفريقيا.

لكن ظهرت عوامل جديدة دَعَت أوروبا لاقتسام أفريقيا:

- ١- زيادة سيطرة مصر على أفريقيا (احتلت مصر السودان سنة ١٨٢١، وضمت إليها: دارفور وهرر وسواحل الصومال ومناطق أعالي النيل).
- ٢- افتتاح قناة السويس.

٣- وفرة المعلومات والمعارف الجديدة (التي أنت بها مجموعة ممتازة من المستكشفين الأوروبيين) عن قلب أفريقيا، خصوصاً بعثة ستانلي الاستكشافية - سنة ١٨٧٦ - في مناطق أعالي النيل وأعالي الكونغو.

إن بناء إمبراطورية مصرية مُتصلة تمتد من البحر المتوسط - شمالاً - حتى منطقة البحيرات العظمى - جنوباً - كان يُلبّي الضرورات الحيوية لسياسة مصر: فمحمد علي أراد الاستفادة من تقسيم الإمبراطورية العثمانية لصالحه، كما أراد تجنب مصر مصير هذه الإمبراطورية المحتوم؛ ولكن إسماعيل مدَّ حدود مصر حتى "خط الاستواء" معتقداً - بشكل ما - أن هذا التوسُّع سيُعطي لاستقلاله ملاذاً أخيراً، ولن يستطيع أحد الوصول إليه في قلب أفريقيا. ويعتقد البعض - عن حق - بأن إسماعيل كان سيبدو على صواب أكثر لو كان قد جعل مدينة الخرطوم هي عاصمة إمبراطوريته.

إن فكرة خروج مصر عن حدودها الضيقة التي حدَّدها لها استقلالها الفعلي (de Facto) كانت فكرة ممتازة في حد ذاتها. ولكن إسماعيل أخطأ لأنه - في الوقت نفسه - أدخل النفوذ الأوروبي إلى أفريقيا عندما عيَّن بيكرو جوردون حكاماً على أواسط أفريقيا (١٨٧٠ - ١٨٧٩).

ومن الأسباب المتعددة التي دَفَعَت مصر لتكوين إمبراطوريتها الأفريقية

سنجد:

١- أسباب تاريخية: فرضت مصر القديمة سيطرتها على وادى النيل بأكمله، وحتى أثيوبيا كانت من ضمن ممتلكاتها. ولدنا آثار في طيبة^[١] تُثبت أن الفرعون تحوتمس الثالث^[٢] من الأسرة الرابعة^[٣] تَوَغَّل في أفريقيا - حتى وصل إلى منطقة البحيرات العظمى، واحتل مواقع استراتيجية على طول مجرى النيل.

٢- أسباب اقتصادية وسياسية: قال هيرودوت إن "مصر هبة النيل". وفي الواقع، فإن النيل يُعتَبَر وحدة جغرافية واقتصادية وسياسية بالنسبة لمصر ولإمبراطوريتها.

وللنيل رافدان أساسيان: "النيل الأبيض" و"النيل الأزرق". وينبُع "النيل الأبيض" من بحيرة "فيكتوريا نيانزا" ويُطلق عليه هناك "نيل فيكتوريا". وهذه البحيرة هي أكبر بحيرة في أفريقيا؛ فمساحتها تبلغ ٨٣٣٠٠ كيلو متر مربع وتعادل

[١] "طيبة": هي مدينة "الأقصر" الحالية في محافظة قنا. واسمها مُشتق من اللغة المصرية: "تا-إيت" (أي: "أرض الخرم" أو "الأرض الطاهرة"). أطلقت عليها أيضا عدة أسماء منها: "واست" و"نوبت" (أي "المدينة"). كانت عاصمة الإمبراطورية المصرية في عصرها الذهبي (الدولة الحديثة) بدءًا من الأسرة ١٨ (حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م) [المترجم].

[٢] هذه المعلومة خطأ لأن "تحوتمس الثالث" هو أحد ملوك الأسرة ١٨ (في الدولة الحديثة). واسمه باللغة المصرية يعنى "(الإله) تحوت يلد". وهو ابن الفرعون "تحوتمس الثاني" ووالد الفرعون "إمنحتب الثاني". عاش من سنة ١٥٠٤ حتى سنة ١٤٥٠ ق.م تقريبًا. حكم بعد وفاة الملكة حتشبسوت (٤٨٣ ق.م. تقريباً) وهو أحد كبار بناء الإمبراطورية المصرية التي بلغت في عهده أقصى اتساعها وذرورة مجدها، قاد ١٨ حملة حربية في آسيا ووصل حتى نهر الفرات. يطلق البعض عليه لقب "نابليون الشرق" ولدنا تحفظ على هذا اللقب [المترجم].

[٣] "الأسرة الرابعة": كانت هذه الأسرة في الدولة القديمة (من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة) أى من حوالى سنة ٢٧٢٠ ق.م. حتى سنة ٢٣٠٠ ق.م. كانت عاصمتها من نفر (مفيس) أو "منف") وهى "ميت رهينة" حاليًا، وكانت جبانتهى فى "سقارة (محافظة الجيزة). واشتهر ملوك هذه الأسرة ببناء الأهرامات (منيم: سنفرو وخوفو وخفرع ومنكاو رع) [المترجم].

مساحتها مساحة سكوتلاندا. أما "النيل الأزرق" فينبع من مرتفعات الحبشة حيث توجد بحيرة تتجمع فيها المياه وتقع على ارتفاع ١٧٩٦ متراً فوق سطح البحر وتُغطى مساحة قدرها ١٦٠ ميلاً مربعاً^(١). ويلتقى النيلان عند الخرطوم ويكونان نهراً واحداً.

ومياه "النيل الأزرق" تكون صافية - إلى حد ما - ولكنها - أثناء فصل الفيضان (من بداية يونيو حتى نهاية أكتوبر) تتحول إلى اللون النُي المائل للاحمرار نتيجةً للطمى الذى تحمله. وهكذا نجد أن "النيل الأبيض" يُغذى مصر ويضمن حياتها بفضل كمية المياه والمواد النباتية والمعدنية التى يحملها إليها؛ أما "النيل الأزرق" - وحتى نهر "السوياط" - فهما يخصبان مصر بفضل الطمى الناتج عن نحت الأراضى البركانية المكونة لهضبة أثيوبيا.

وبما أن مصر بلد زراعى فى المقام الأول، ويعتمد الرى فيها على النهر وليس على الأمطار، فقد كان لزاماً عليها أن تهتم بأمنها وتُسهر عليه وذلك: بأن تُؤكّد سيطرتها على منطقة أعالي النيل، وتُسيطر مباشرة - أو بشكل غير مباشر - على كل البلاد التى تقع فى حوض نهر النيل. ولو استطاعت أية دولة أوروبية إنشاء سدود على بحيرة "تانا" أو على بحيرتى "فيكتوريا - نيانزا" و"ألبرت - نيانزا"، أو مارست أية سيطرة ما على "النيل الأبيض" أو "النيل الأزرق"، فسيكون بمقدورها إخضاع مصر لإرادتها.

ويعتبر السير سيلفيا وايت أن "الوحدة الكاملة لحوض نهر النيل يجب أن تكون أساس سياسة مصر القومية؛ لأن الطبيعة وعبرة التاريخ تفرضان تلك الوحدة عليها"^(٢).

[٤] المؤلف يقصد بحيرة "تانا" (أو "تسانا") التى تقع على ارتفاع ١٨٢٩ متراً فوق سطح البحر، واسمها - فى اللغة الأمهرية - يعنى: "المصب" أو "الفوهة" [المترجم].

لكن هذا المؤلف يقول: "بما أن مصر كانت خاضعة دائماً - أو تحت إدارة - القوة التي تُسيطر على البحار، لذلك يجب على هذه القوة - أى إنجلترا تحديداً - أن تجعل سياستها هي نفس سياسة مصر، وتسيطر على وادى النيل بأكمله، وتمنع أية دولة أوروبية أخرى من الوصول إلى منطقة أعالي النيل".

ومن الواضح أن هذا الكاتب يتعمد نسيان حقبة التاريخ الفرعوني الطويلة والمجيدة، ولكن مصر لا تنسى تقاليدها التي عاشت آلاف السنين. ويرجع الفضل لإسماعيل في توحيد حوض نهر النيل، أساس وركيزة السياسة القومية. ومن الطبيعي أن السيطرة على حوض نهر النيل تتطلب - بالضرورة - السيطرة على البحر الأحمر وعلى ساحل المحيط الهندي اللذين يكوّنان حدود مصر الطبيعية في شمال/ شرق أفريقيا.

٣- أسباب سياسية/ دينية: وبالإضافة إلى العوامل الاقتصادية التي تدفع مصر في اتجاه أفريقيا - أى فى اتجاه "المجال الحيوي" الذى فرضته عليها الطبيعة ذاتها - هناك أيضاً عوامل سياسية/ دينية جعلت من هذه السياسة ضرورة لمد نفوذ مصر الروحي/ الحضارى: ففى مصر تعيش أقلية قبطية أرثوذكسية خلقت علاقة دينية مع الحبشة بخلاف العلاقة التجارية لأن مصر هى التى تقوم بتعيين بطريرك الحبشة. وأيضاً، فإن الأغلبية المصرية - وهى مسلمة ومُستعربة - تربطها بأفريقيا.

وفى الواقع، فإن الديانات الوثنية والبربرية هى التى تسود القارة السوداء، وقد كان النفوذ العربى/ الإسلامى موجوداً بها قبل أن تسيطر أوروبا عليها، وقد نقل العرب المسلمون إلى أفريقيا حضارة راقية نشروها بين الزنوج هناك.

ومنذ أن غزا الرومان أفريقيا، بدأت القارة السوداء تجذب العرب. وفى بداية القرن الثامن الميلادى، اجتاحت الغزاة المسلمون مصر والمغرب وكل بلاد ساحل شمال أفريقيا. وبث الغزاة المسلمون - فى كل مكان دخلوه - حياة جديدة فى الزراعة والتجارة والأداب؛ وأنشأوا دولاً قوية، ومراكز حقيقية لنشر الثقافة فى القاهرة والقَيْرَوان وفاس.

وتَغْلَغَل المهاجرون العرب - ببطء - داخل أفريقيا في كل المناطق التي كان الجَمَل - "سفينة الصحراء" - يستطيع العيش والتكاثر فيها؛ فاستقر البدو الرُحَل العرب - القادمين من صعيد مصر أو من سواحل البحر الأحمر - في السودان، وفي منطقة نهر النيجر الأعلى. وأقاموا منشآت على الساحل الشرقي لأفريقيا في: ماجادوكسو (مقديشيو) وكلوة، وبرافا، وميلندي، ومومباسا.

وانتشر الدين الإسلامي في زنبار، وفي جزء من الحبشة، وهرّر، وبلاد الصومال، وكردفان، ودارفور، ووادي، وكانم، وسكوتو، وباجيرمي، وفي دول أفريقية أخرى.

وبدخول الجمل إلى أفريقيا، انتظمت طُرُق القوافل بين السودان وإقليم الصحراء، ومن فزان والجزائر والمغرب إلى تمبوكتو، وحتى إلى الدول الواقعة على ضفاف "بحيرة تشاد" حيث غرست الثقافة العربية جذورها في قلب "نيجريتيا" ذاتها^[٥]. وهكذا راجت تجارة العاج والعبيد في القارة الأفريقية، التي طالما فضحتها أوروبا في القرن التاسع عشر.

وقبل تقسيم مناطق النفوذ في أفريقيا بين الدول الأوروبية بوقت قليل (سنة ١٨٨٠) كان النفوذ العربي/ الإسلامي قد انتشر - ببطء - في أوغندا ومناطق أواسط أفريقيا بفضل الدعوة الدينية التي نشرها التجار العرب وتوسّع القوة المصرية الجديدة في تلك المناطق. ولا يستطيع أحد إنكار مزايَا دين يتصف بالسمو مثل دين محمد، ولا سهولة ملائمته للاحتياجات الروحية والمادية لشعوب أفريقيا، لدرجة أن البعض لاحظ أن الإسلام قد نشر قُدْرًا من السماحة والبشاشة على القبائل الزنجية التي اعتنقته. وذكر المسيو بونفون ما يلي: "في المناطق التي لم يدخلها

[٥] "نيجريتيا" ("Nigritia") هو الاسم الذي أطلقه الرومان علي المنطقة الواقعة بين: الصحراء الكبرى ونهر النيل وغينيا الحالية. وهذا الاسم مُشتق من الكلمة اللاتينية "niger" (أى "أسود"). إذن، فنيجريتيا تعني: "بلاد (أو أرض) السود" أو "السودان" [المترجم].

الدين الإسلامى، لاحظنا أن الأديان الوثنية تخضع دائما لممارسات بشعة: فمعتقبيها غالبا ما يقتلون عدوهم المغلوب ويفترسون لحمه. أما المسلمون، فيكتفون باستعباد عدوهم المغلوب ويجعلونه يخدم احتياجاتهم وملذاتهم. ولكن المسيحيين يرفعون الإنسان ويُعيدون حريته المسلوقة إليه^(٢).

ولكى تحكم أوروبا سيطرتها على أفريقيا، فإنها قد بذلت كل جهودها:

١- لتتصير كل الشعوب التى كانت ما تزال وثنية^[٦].

٢- وتدمير النفوذ العربى الراسخ فى مناطق شمال ووسط أفريقيا، بأية وسيلة حتى ولو اضطرت لاستخدام السلاح^[٧].

وكان على مصر المسلمة/ المستعربة ألا تترك هذه المهمة الضرورية والشاقة: فاجتهدت للتقدم على غيرها، ولتطوّر نفسها لى تمد يد العون للعرب،

[٦] فى عقد الستينات من القرن العشرين، أطلق الزعيم الكينى - جومو كينياتا - مقولته اللاذعة: "فى الماضى، كانت الأرض بحوزتنا والإنجيل فى يد الأوروبيين. أما الآن، فقد أصبح الإنجيل فى يدنا والأرض بحوزتهم" [المترجم].

[٧] ذكر الدكتور محمد صبرى (السوربونى) ضمن مؤلفاته ما يلى: "فصول من المسألة الأفريقية: تقسيم إمبراطورية إسماعيل ١٨٧٩ - ١٩٠٤" (تحت الإعداد)، ويبدو أنه كان يريد استكمال الموضوع الذى بدأه فى هذا الكتاب الذى نشره فى سنة ١٩٣٤. كما ذكر الأستاذ أحمد حسين الطماوى - صديق المؤلف وكاتب سيرة حياته - أن السوربونى قد ترك مخطوطة - باللغة الفرنسية - عن "حضارة العرب فى الكونغو ووسط أفريقيا" فى حوالى ١٥٠٠ صفحة ولم تنشر.

(راجع: التقديم الذى كتبه أ.د. أحمد زكريا الشلق لكتاب: "نشأة الروح القومية المصرية"، المشروع القومى للترجمة (عدد ١٠٣٥)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٢١-٢٩؛ أيضا: أحمد حسين الطماوى، بليوجرافيا أعمال صبرى السوربونى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٦٦).

وفى شهر فبراير ٢٠٠٧ استعلم كل من أ.د. أحمد زكريا الشلق وناجى رمضان عطية من السيدة منى محمد صبرى (كريمة المؤلف) عن هذه المخطوطة، ففتت علمها بأن يكون والدها قد ترك هذا العمل فى مكتبته بعد رحيله [المترجم].

وتحافظ على حدودها الطبيعية (الممتدة من البحر المتوسط والبحر الأحمر حتى خط الاستواء) ضد أطماع أوروبا المتحفزة للغزو.

هوامش الفصل التاسع

- (1) M. Sabry: "L' Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la Question d' Orient (1811 - 1849)", Paris, 1930.

هذا الكتاب قمنا بترجمته وهو حاليًا تحت الطبع [المترجم].

- (2) Silva White: "The expansion of Egypt." London, 1899.

- (3) Bonne Fond: "L' Afrique Politique en 1900."

الفصل العاشر

مصر وإنجلترا فى البحر الأحمر

- ١- خطة الخديوي.
- ٢- امتداد السيطرة المصرية على سواحل أفريقيا الشرقية منذ سنة ١٨٦٦ وموقف إنجلترا.
- ٣- اتفاقية ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ الخاصة بتجارة العبيد. تعيين الكابتن مالكوم لضمان تنفيذ الاتفاقية على ضفتى البحر الأحمر.
- ٤- اتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ الخاصة بموافقة إنجلترا على تطبيق التشريعات المصرية على ساحل الصومال حتى "رأس حافون"^(١)

[١] فى الفهرس، جاء هذا العنوان الجانبى مع إضافة جملة "ومغزى هذه الاتفاقية" [المترجم].

مصر وإنجلترا فى البحر الأحمر

أولاً: خطة الخديوي:

فى يوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٦٨، كتب المسيو بوجاد - القنصل العمومى لفرنسا - تقريراً عن مصر جاء فيه: "منذ سنة ١٨٤١، أصبح الاستقلال الذاتى لمصر وسيادتها جزءاً من القانون العام الأوروبى"^(١). ولكن استقلال مصر وسيادتها كإنا يتعرضان - باستمرار - للهجوم العنيف من هذه القوى نفسها التى أعطتها ضمانات الاستقلال والسيادة.

وعندما احتل محمد على السودان، فإنه قد أعاد لمصر الأراضى التى تمتلكها منذ أقدم العصور. ولم يحتل محمد على دارفور ولا "منطقة البحيرات العظمى" فعلياً، لكن حفيده إسماعيل باشا استكمل هذه المهمة: فاحتل كل مناطق وادى النيل التى كانت تابعة لمصر منذ زمن طويل.

ومع أن محمد على أرسل ثلاث حملات - بين سنتى ١٨٣٩ و ١٨٤١ - لاكتشاف منابع نهر النيل، إلا أنها لم تتجاوز جزيرة "جونكر" - فى مواجهة "جوندوروكو" - ولكن الشعوب السودانية هناك كانت تنتظر لوالى مصر على أنه الزعيم الأكبر لهذه المناطق الشاسعة.

وحتى قبل أن تفتح القوات المصرية دارفور بزمن طويل، فإن فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ قد عهد بإدارتها إلى محمد على، وكتب السلطان العثماني له قائلاً: "لقد قررت أن أعهد إليكم بحكم بلاد النوبة، ودار فور، وكردفان، وسنار، وكل ملحقات هذه البلاد الواقعة خارج حدود مصر، على أن يكون هذا الحكم طوال حياتك فقط ولا يكون وراثياً".

وأراد إسماعيل استكمال تدعيم وتطوير إمبراطوريته منذ لحظة توليه عرش مصر، وكان يدرك ضرورة اتخاذ الإجراءات التالية لتحقيق هذا الهدف المزدوج:

أولاً: الإسراع باحتلال كل مناطق البحر الأحمر، وإرسال حملات استكشافية تتوغل داخل أفريقيا.

ثانياً: إنشاء جيش وأسطولين: أحدهما تجارى والآخر حربي.

ثالثاً: تنظيم الاتصالات بين مختلف المناطق البعيدة، وربطها بواسطة طُرُق سريعة نظراً لضرورتها في نشر السلام والرخاء في السودان.

رابعاً: محاربة النخاسة (تجارة العبيد) التي كانت تُبِيد السكان وتُسبب الفقر للبلاد.

وهذه الخطة تُبَيِّن حُسْنَ إدراك الوالى ورؤيته الثاقبة للأمور، لكن وسائل تنفيذها لديه كانت أقل من طموحاته؛ ويرجع السبب في ذلك: إمّا لتردده وإمّا للضغوط الأجنبية عليه. وسندرس - فى الفقرات التالية - هذه الخطة من منظور علاقتها بالبحر الأحمر. فأولاً، وقبل كل شيء، سنجد أن إسماعيل كان يبذل كل ما فى وسعه لكي:

١- يجعل "شركة برزخ السويس" تخضع للقانون العام المصري، ويُوَطِّد سيادته على المنطقة الواقعة بين السويس والبحر المتوسط.

٢- وفى الوقت نفسه، كان يبذل قصارى جهده ليضمن لنفسه ملكية الساحل الأفريقى على البحر الأحمر.

ولتحقيق ذلك، كرس عنايته لإصلاح شأن الجيش والبحرية: وبناء على طلبه، أُرْسِلَت الحكومة الفرنسية (سنة ١٨٦٤) مجموعة من الضباط - برئاسة الكولونيل ميرشير (Mircher) لتنظيم المدارس العسكرية التى يَتَخَرَّج منها أفضل الضباط المصريين، وحَصَلَ ١٥ ضابطاً منهم على بعثة دراسية فى فرنسا. وعند عودتهم، أنشأوا "هيئة أركان حرب" الجيش المصرى فى سنة ١٨٦٧.

وأثبت الجيش المصرى جدارته فى ميادين القتال فى مختلف الحروب التى خاضها إلى جانب الباب العالى. وعندما نشبت الأزمة بين مصر وتركيا (سنة ١٨٦٩)، وعندما هَدَّدَت تركيا خديوى مصر، كان الخديوى مستعداً لمحاربتها، لكن الدول الأوروبية تدخلت وأجبرته على الامتنال للسلطان.

وفى العدد الصادر يوم ٢٩ يناير سنة ١٨٧٠، تناولت صحيفة " LeProgrès Egyptien " موقف دول أوروبا فى هذه الأزمة، فذكرت:

"لقد أجبرت دول أوروبا مصر على الخضوع لتركيا. ولكن هذا الخلاف كانت له نتيجة طيبة بالنسبة لمصر: فهو قد برهن على مدى السرعة التى تستطيع بها الحكومة تنظيم وتجهيز وتدريب جيش على نفس مستوى الجيوش الأوروبية. وبرهن هذا الخلاف أيضا على السهولة التى تستطيع بها الحكومة تحصين وتسليح حدود البلاد والدفاع عنها بشكل جاد".

وتم تكليف مهندس مصرى على أعلى مستوى من الكفاءة - هو محمود باشا فهمى - بتجهيز خط دفاع عن ساحل البحر المتوسط: فبنى ١٧ طابية جديدة بين أبو قير والبرلس، ورمم الطوابى القديمة. وهذا المهندس هو نفسه الذى أقام - فيما بعد (فى سنة ١٨٨٢) - المواقع الدفاعية الحصينة فى كفر الدوار.

وعمل إسماعيل كل ما فى وسعه لزيادة القوة العسكرية التى كان يعتمد عليها - فى المقام الأول - لبسط سيادته، فاستفاد من انتهاء "الحرب الأهلية الأمريكية"، ومن استدعاء البعثة العسكرية الفرنسية إلى فرنسا (بعد حرب سنة ١٨٧٠)، فعهد لضباط أميركيين مُتمرسين بقيادة "هيئة أركان الحرب" الجيش المصرى.

وكان القسم الثالث من "هيئة أركان الحرب" هذه هو قسم الجغرافيا، وكان أحد الأسباب الرئيسية لإنشائه هو تدريب الضباط المصريين الشبان على عمليات التعرف والاستطلاع، والقيام بالحملات الاستكشافية المطلوب تنفيذها فى أفريقيا لغزو تلك المناطق المجهولة علميا.

ومن هذا المنظور، فإن إنشاء "هيئة أركان حرب" الجيش المصرى - بقيادة ستون (Stone) باشا - كان عملاً رائعا وضع مصر فى مصاف الدول المتحضرة، بالإضافة إلى العون والأمن اللذين قدمتهما مصر بسخاء للمستكشفين الأوروبيين الكثيرين الذين لم يجروا فى الماضى على المخاطرة بدخول تلك البلاد.

وكان أول أهداف "هيئة أركان الحرب" هو إعطاء الوالى العناصر اللازمة لتحقيق فكرة الاستقلال التى اختلطت لديه بفكرة تكوين إمبراطورية، بالضبط كما حدث مع جده.

وكشف الخديوى عن فكرته هذه فى خطبة ألقاها فى اجتماع عقده - يوم ١٥ أبريل سنة ١٨٧٠ - مع بعض الضباط الأمريكيين الذين كانوا قد وصلوا توتاً إلى مصر: "إن خبرتكم فى الحرب الأخيرة التى دارت بين الولايات الأمريكية والمكسيك، وانتفاء أية نوايا أنانية لدى أمتكم تجاه مصر، قد دفعتنى لاختيار الأمريكيين. إننى أعتمد على فطنتكم وإخلاصكم وجهدكم لمساعدتى فى العمل على استقلال مصر. وعندما يتحقق هذا الهدف، فسأمنحكم أعلى الأوسمة^(٢)".

ومن المؤكد أن الإنجليز حاولوا الاستفادة من هيمنتهم على مصر - بعد معركة "سيدان" - لإحباط مهمة البعثة الأمريكية، ولكن تَنخَّل قيصر روسيا قد أنقذها. وللحقيقة، فإن الخديوى حرصَ على إيجاد توازن تام بين البعثة الأمريكية والإنجليز: فقام بتعيين بيكر وجوردون على رأس حملاته الحربية والإدارية الأساسية التى أرسلها إلى السودان.

وأعاد إسماعيل تنظيم البحرية المصرية: فكان الأسطول الحربى المصرى يتكوّن من ١٦ سفينة. وكانت إنجلترا و أوروبا قد ضغطت على مصر وأجبرتها (سنة ١٨٧٠) على أن تسلم لتركيا خمس سفن حربية مدرّعة كانت مصر قد بنتها لحسابها فى طولون وترييستا. ولولا ذلك، لكان لديها أسطول حربى قوى.

وفى المقابل، فإن الأسطول التجارى المصرى كان يتحدى أية منافسة أجنبية؛ فكانت سفن شركة "العزيرية" تخدم موانئ: سوريا واليونان وآسيا الصغرى والدردينيل وغاليوبولى والآستانة وموانئ البحر الأحمر. وبفضل تنظيم هذا الأسطول التجارى، استغنت مصر عن أية دولة أجنبية: لأن تجارة مصر قد استفادت من تدفق المنتجات الأجنبية على موانئها.

وأيضاً، فإن خدمة البريد كانت منتظمة وامتدّت لتُغطّي مناطق بعيدة في آسيا وأفريقيا وأوروبا. وفي سنة ١٨٧٣، أعاد إسماعيل شراء أسهم شركة البريد وعيّنَ للحكومة المصرية بإدارة "شركة البريد الخديوية" الجديدة.

وبفضل امتلاك إسماعيل لهذا الجيش وهذه البحرية، استطاع أن يمد سياسته التوسّعية في أفريقيا، فكانت السفن الحربية المصرية تدرع مياه البحر الأحمر باستمرار وتراقب الشواطئ. وبالطبع، فإن ذلك قد أثار غيرة إنجلترا: لأن ظهور بحرية قومية سيثير حماس الشعوب المسلمة المنتشرة في أفريقيا ويجعلها تلتف حول راية مصر المرصّعة بالثلاث نجوم.

وللتدليل على صحة ما نقول، يكفينا ذكر الاستقبال الحار الذي أحاط به السكان الأفارقة السفن المصرية الأولى التي عبّرت "رأس الرجاء الصالح" في شهرَي فبراير ومايو سنة ١٨٦٥: ففي أوائل شهر فبراير سنة ١٨٦٥، أبحرت الفرقاطة البحرية الرائعة "الإبراهيمية" من السويس وأول توقّف لها كان في "سانت هيلانة". وعند وصولها إلى "رأس الرجاء الصالح"، استقبلتها الجالية الإسلامية هناك بحفاوة: فخرج عدد يتراوح ما بين ١٠ إلى ١٢ ألف شخص لتحية الفرقاطة "الإبراهيمية" التي ترفع راية مصر.

وهذه الجالية الإسلامية جاءت من الهند واستقرت في "رأس الرجاء الصالح" وبُنيت مسجدًا في مدينة "الكاب"، ودُعيت إليه قيادة الفرقاطة وأحاطتها بكل مظاهر التكريم.

ومن مدينة "الكاب"، توجهت "الإبراهيمية" إلى جزر "سيشل" وزنبار. وهناك، صعد ابن إمام سلطنة مسقط إلى ظهر الفرقاطة وقضى فيها يومًا كاملاً، وسلّم للقبطان مصطفى بك رسالة موجهة إلى الخديوى إسماعيل. وابن سلطان مسقط كان يحكم زنبار حكماً مستقلاً تماماً عن والده. وبعد ذلك، زارت الفرقاطة عدن ثم عادت إلى السويس في شهر مايو^(٣).

وهكذا نجد أن مصر قد تواجدت - منذ سنة ١٨٦٥ - في البحر الأحمر، وتمثل هذا التواجد بفرقاطة بخارية رائعة قوتها ٤٠٠ حصان.

وفيما يتعلّق بالاتصالات، فقد شهدت تحسّناً ملحوظاً عندما تمّ تنظيم الخدمة البريدية في جميع أنحاء الإمبراطورية المصرية.

وبفضل استخدام الوسائل الحديثة: خطوط البرق والسكك الحديدية والقنوات والسفن البخارية (وكالها أنشئت - أو طوّرت - في عهد إسماعيل)، تمّ إنشاء إدارة للبريد في سنة ١٨٦٥، برئاسة مونسى بك (Muzzi). وتمّ افتتاح مكاتب بريد عديدة في المناطق التي تخدمها السفن المصرية.

وفي سنة ١٨٧٤، قبلَ "مؤتمر برن" عضوية مصر في "اتحاد البريد"، وترك للحكومة المصرية حُرّية إلغاء مكاتب البريد الأجنبية الموجودة في مصر. وعلّق المسيو هانز ريزنر قائلاً: "تمّ تنظيم إدارة البريد المصرية بنجاح جعل الدول الأوروبية توافق على إلغاء مكاتب البريد الخاصة بها في مصر. وهذا الوضع لم يحدث حتى في تركيا نفسها حتى الآن.

"وكانت فرنسا هي الدولة الوحيدة التي احتفظت بمكتبها في الإسكندرية وبور سعيد لأسباب سياسية. وأنشئت مكاتب بريد مصرية في المدن الرئيسية في السودان: فكان المسافر يستطيع السفر بكلّ أمان إلى ما بعد الخرطوم ويتلقّى البريد الخاص به هناك. وكانت السفن البخارية المصرية تحمل هذا البريد حتى المنطقة الاستوائية. كما كانت توجد أيضاً مكاتب بريد مصرية في جزرّ تركيا (الآسيوى والأوروبي)، وفي جدة، وسميرنا^(*)، وبيروت، وقوله، وسالونيك.

وتمّ ربط مختلف المناطق على طول امتداد الأراضي المصرية بواسطة خطوط البرق، وكان خط السودان وحده يبلغ طوله ٣٩٤٣ كم^(٤).

(*) مدينة أزمير التركية الآن (المراجع).

ولتسهيل العلاقات التجارية والسياسية بين مصر وولاياتها في السودان وخط الاستواء والبحر الأحمر، كان لابد من إيجاد وسائل مواصلات أكثر سرعة من تلك الموجودة وقتذاك: إمّا بجعل الملاحة في جميع أجزاء مجرى نهر النيل أكثر سهولة (وهذا الحل كان صعباً نظراً لوجود الجنادل ومنطقة "السود")، وإما بربط القاهرة بالخرطوم عن طريق السكك الحديدية.

واهتم إسماعيل بحل هذه المشكلة منذ بداية ولايته على مصر: ففكر في ربط السودان بمصر بواسطة خط للسكة الحديد يمر عبر صحراء النوبة (من كوروسكو حتى أبو حَمَد). وكانت الطرق الداخلية في السودان شبة مُعَدمة، وجعلتها المنحدرات الوعرة للنيل وصحراء النوبة وصحراء "بايوضة" غير صالحة للاستخدام. ولذلك، كانت البضائع القادمة للخرطوم من دارفور وكردفان والمديريات الاستوائية والمناطق المجاورة للحبشة تتجه مباشرة ناحية البحر.

ولكن خط السكة الحديد من القاهرة إلى الخرطوم كان سيَتكلف حوالي ٤٠٠ مليون فرنك؛ ففكر إسماعيل في مد خط يربط بربر بسواكن، التي كانت المنفذ الطبيعي لمنتجات المناطق الداخلية^(٥).

وبالتأكيد، فإن طريق سواكن ومُصَوَّع كان سيُتيح وجود اتصال مباشر أكثر فاعلية مع السودان. ولكن هذا الطريق كانت له مساوئ خطيرة للغاية شَرَحَها إسماعيل على النحو التالي: "في وقت الحرب، تَسْتَطيع السفن الحربية المعادية إغلاق البحر الأحمر. ولكن إذا اتَّبَعنا الطريق الداخلي، فلا يُوجد ما يَقْطَع طريق مواصلاتي مع منطقة أعالي النيل. وسأستطيع أن أضْمَن لمصر مكاسب الحركة التجارية التي ستَحْدُث نتيجة لوجود طريق مباشر وتوافر وسائل نقل أسرع. إن تنفيذ خُططي سيكون بمثابة بداية عصر جديد للسودان"^(٦).

واختار إسماعيل تنفيذ مشروع المواصلات الداخلية. وفي سنة ١٨٦٥، رَفَعَ السيدان ووكر وبراي للخدوي إسماعيل نتائج الدراسة الأولى للمنطقة الواقعة بين أسوان والخرطوم. ولكن لم يتم تنفيذ أي شيء حتى سنة ١٨٧١. ففي تلك السنة،

كَلَّف الخديوى مهندسًا إنجليزيًا كان فى خدمته - هو جون فولر - بدراسة الموضوع من جديد وأن يَرْفَع له تقريرًا عنه. وفى سنة ١٨٧٣، بدأ العمل فى تنفيذ هذا المشروع، ولكن المشاكل المالية تَسَبَّبَتْ فى جعل الإيقاع يسير ببطء ثم تَوَقَّف تمامًا.

ثانيًا: امتداد السيطرة المصرية على سواحل أفريقيا الشرقية منذ سنة ١٨٦٦ وموقف إنجلترا:

بدأ إسماعيل - منذ سنة ١٨٦٥ - فى اتِّباع سياسة نشطة فى البحر الأحمر لى يضمن لمصر سيادتها على كل ساحله الأفريقى بينما كانت تركيا تمتلك ساحله الآسيوى.

وتنازل السلطان العثمانى لوالى مصر عن حكم مينائى: "سواكن" و"مُصَوَّع" طيلة حياته فقط، فكان هذا التنازل هو أول خطوة فى تحقيق أهداف إسماعيل. وبتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦، صَدَرَ فرمان السلطان بمنح والى مصر حُكْم كل البلاد التابعة لمصر حكمًا وراثيًا: "لقد قَرَّرْنَا ما يلي: من الآن فصاعدًا، فإن حكم مصر - والأراضى المُلْحَقَّة بها والتابعة لها - وقائمقامية "سواكن" و"مُصَوَّع" - سيكون حكمًا وراثيًا ينتقل منك إلى أكبر أبنائك، ومن أكبر أبنائك إلى أكبر ذريتك من الذكور".

ولم يكن فرمان سنة ١٨٤١ قد ذكر أى شيء عن مدينتى "سواكن" و"مُصَوَّع" - وهما مدينتان هامتان تقعان على ساحل البحر الأحمر - وكانت الدولة العثمانية قد ضَمَّتْهُما إليها فى سنة ١٥١٧، ورفَعَتْهُما إلى مرتبة "باشاليك"^[٢] فى القرن الثامن عشر. وحَصُل "محمد علي" على التزام جباية الضرائب هناك مقابل

[٢] "باشاليك" (أو "باشوية"): ولاية من ولايات الدولة العثمانية يحكمها وال برتبة "باشا" [المترجم].

تسديد مبلغ ٦٢٥ ألف فرنك للدولة العثمانية سنوياً. وكان هذا الالتزام يسرى طوال حياته فقط، أى أنه لم يكن وراثياً، ولم يسع سعيد باشا لتجديد هذا الالتزام.

وكان محمد على مُدركاً تماماً لأهمية هذه المنطقة اقتصادياً: فقد كان هذان الميناءان منفذين لأفريقيا الشرقية على البحر الأحمر، وكانت طُرُق القوافل تنتهي إليهما^(٧).

وفى تلك الفترة، حاربت إنجلترا سيطرة مصر على الساحل الآسيوى للبحر الأحمر حتى سنة ١٨٤٠؛ وبالتالي، فإنها قد شَعُرَت بالقلق لرؤية مصر تحتل - فى سنة ١٨٤٧ - مينائى "سواكن" و"مُصَوَّع" على الساحل الأفريقي، خصوصاً وأن إنجلترا كانت تَطْمَعُ فيهما. وهذا ما يُفسَّرُ معارضة الحكومة الإنجليزية لهذا الامتياز - رغماً عن أنه صَدَرَ عن الباب العالى - فهي قد اعتبرتَه تَدْخُلًا من والى مصر فى شئون الحبشة واغتصاباً لأراضيها^(٨).

وكانت مصر قد أُرْسِلَت (سنة ١٨٤١) قوات لاحتلال كل الأراضي المجاورة لمُصَوَّع، وبذلك قَدَّ "النائب" (أى الحاكم القديم لهذه المنطقة) كل سلطاته وأصبح خاضعاً تماماً للحكومة المصرية، لدرجة أن القنصل الإنجليزي - مسٹر بلُودن (Plowden) - لم يَعدُ يعتبره "حاكماً مستقلاً" قادراً على عقد معاهدات حماية معه، لصالح إنجلترا بالتأكيد.

وفضلاً عن ذلك، فقد بَدَّلَ السفراء الإنجليز فى الآستانة أقصى جهودهم - منذ سنة ١٨٥٢ - لإثارة غيرة الباب العالى من أطماع فرنسا فى منطقة البحر الأحمر، ولدفعه لكى يمنعها من توطيد أقدامها على سواحلها، وكان الإنجليز يُريدون احتكار النفوذ فى كل هذه المنطقة احتكاراً تاماً على النحو التالي:

١- ففى سنة ١٨٣٨، احتلوا عَدَنَ وشرق "جبل طارق".

٢- واستفادوا - بعد ذلك - من المخترعات الجديدة: السكك الحديدية والسفن البخارية.

٣- وجاءوا بالهنود إلى كل موانئ خليج عدن وأفريقيا: فتكوّنت مستعمرات هندية في جَدَّة والحُدَيْدَة ولادويا ومُصَوَّع.

٤- وجعلوا الهند شونة للغلال التي تُموَّن شبه الجزيرة العربية بالحبوب بعدما كانت مصر هي التي تقوم بهذا الدور.

٥- وأصبح جزء من منتجات اليمن يمر عبر عدن، وأصبحت منتجات الساحل الأفريقي تصل إليه بالكامل.

وتدفقت سفن الهند على جدة؛ وفورا، أصبحت ممارسة تجارة كل منطقة جنوب البحر الأحمر - أي تجارة البن - تتم تحت حماية الراية الإنجليزية.

وكانت الحبشة من أغنى مناطق البحر الأحمر ومنها دخل النفوذ التجارى والسياسى الإنجليزي إلى وسط أفريقيا، وفتحت إنجلترا هناك قنصلية، وتولى منصب القنصل ضابط من ضباط جيش الهند (مثلما حدث فى زنبار ومسقط). ويحق لنا القول بأن الحبشة وقَّعت فى أحابيل الشبكة الواسعة لسياسة "شركة الهند" التى كانت تمارس أنشطتها بالاتفاق مع الحكومة البريطانية فى كل البلاد المجاورة للهند، والتى كانت الشركة تسعى للسيطرة عليها.

وفى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٧، احتلت إنجلترا جزيرة "بريم"، وطلبت من مصر السماح لها ببناء فنارات فى البحر الأحمر وألحّت بأن تقوم هى بإدارتها مباشرة، وكان أحد هذه الفنارات يقع فى مدخل خليج السويس. وعند اللزوم، كان يمكن لبريطانيا تحويله إلى نقطة دفاع فى غاية الأهمية.

وبعد ذلك، تقدّمت شركة لمد خط سكة حديد يبدأ من برنيس وينتهى عند نهر النيل. وبما أن البحر الأحمر يقع تحت سيطرة إنجلترا، فإن خط السكة الحديد هذا كان سيُشكل تهديدا مستمرا للحكومة المصرية^(٩).

وفى سنة ١٨٦٧، شنت إنجلترا حربا على الحبشة. وعلى الرغم من انتصارها فى "مجدالا"، إلا أنها آثرت الانسحاب منها بحذر. وخلال هذه الحرب، اختار الإنجليز "مُصَوَّع" قاعدة لعملياتهم. وتذرّع إسماعيل بأنه يريد مساعدة

الإنجليز في هذه الحرب، ولكنه كان - بدوره - يُراقب كل تحركاتهم، واتخذ ضدهم عددًا من الإجراءات الهامة التي أملت عليها ضرورة الحفاظ على هذه المنطقة:

١ - فقام بتعيين عبد القادر باشا - قائد القوات المصرية في كريت - في منصب حاكم سواكن.

٢ - وبالإضافة إلى ذلك، بعثَ بجعفر باشا - الحاكم العام للسودان - للقيام بجولة تفنيسية في البحر الأحمر وتقوية واحتلال النقاط الاستراتيجية الأساسية فيه. وفي أثناء هذه الجولة رَفَعَ جعفر باشا الراية المصرية على "بربرة" (على ساحل الصومال) وعلى "رأس حافون" (على المحيط الهندي).

وفي بداية شهر نوفمبر سنة ١٨٦٧، أُبحِرَ سرب بحرى مُكوّن من ست سفن بخارية - تحت قيادة جمالى بك - إلى مُصَوِّع وكانت سفينة القيادة هي الفرقاطة "الإبراهيمية" وعلى متنها عبد القادر باشا الذى عيّن في منصب "حاكم سواحل أفريقيا الشرقية". وهذا المنصب كان قد أنشئ حديثًا نتيجة للضرورات التي فَرَضَتْها الأحداث وقتذاك.

لقد أثارت سياسة إسماعيل قَلَقَ إنجلترا أكثر من القلق الذى سببه لها افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، خصوصًا وأن مصر قد احتلت الموانئ الصومالية الواقعة قُبالة عَدَن: فَكشفت سياسة إسماعيل للعالم عن أهمية البحر الأحمر وَلَفَّتَت الأنظار إليه.

وعلى الفور، حدثت نزاعات صغيرة كان لها مغزى كبير بين مصر وإنجلترا: فقد وَقَعَت اشتباكات بين قبائل "بولهار" و"بربرة" التى تَقَطَّن على الساحل الأفرىقى لخليج عدن، فذهب جمالى بك إلى هناك لإصلاح ذات البين بين الأطراف المتصارعة ونشر السلام فى تلك المنطقة. وعلم إدوارد راسل - حاكم عدن - بوصول جمالى بك فكتب إليه ليعرف منه سبب وصوله إلى هناك وعمّا إذا كانت لديه نوايا للغزو (أبريل سنة ١٨٧٠).

وعندما وَصَلَتْ تلك الأخبار إلى شريف باشا- وزير الخارجية المصرية - وَجَّهَ مذكّرة- بتاريخ ١ يونيو سنة ١٨٧٠ - للفتل المصطفى يُوَكِّد له فيها على حقوق مصر في تلك الأنحاء: "إن تلك الأراضي لم تكن مُستقلة أبداً؛ فقد كانت - وما تزال - أرضاً عثمانية. وبناءً على فرمان سلطانى فقد أَصْبَحَتْ جزءاً من أراضى ولايتى "مُصَوَّع" و"سواكن" ومُلْحَقَاتهما التى تنازل الباب العالى عنهما للحكومة المصرية؛ وهاتان الولايتان كانتا - وما زالتا - تدفعان الجزية. إن الحكومة المصرية لن تترك حقوقها الثابتة على ذلك البلد^(١٠).

ولكن حسب تقارير "هيرتسليت (Hertslet)" وديبلوماسيين آخرين، فإن وَجْهَ النظر الإنجليزية تُعْتَقَد أن التشريعات التركية/ المصرية لا تمتد إلى ما بعد "زِيلَع" فى الجنوب. وبالتالي، فإن كل الأراضي الواقعة حول "رأس جواردافوى" وحتى "رأس الخيل" - على الساحل الشرقى لأفريقيا - كانت أرضاً مستقلة.

وهكذا نجد أن إنجلترا قد أعطت لنفسها حرية توقيع معاهدات تجارة وصدّاقة مع قبائل الصومال - مثلما فعلت مع قبائل عدن من قبل - وكانت هذه المعاهدات تسمح لإنجلترا بجذب تلك القبائل لى تدور فى فلك نفوذها. ولكن الخديوى إسماعيل كان منتهبها لما يحدث، فكان السرب البحرى المصرى- فى البحر الأحمر- تحت قيادة جمالى بك ويتكوّن من ثمانى سَفُن تُلْقَى مراسيها فى بور سعيد والإسماعيلية والسويس، وعلى طول ساحل أفريقيا حتى الحد الشرقى لميناء عَدَن.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقام الوالى بتعيين ممتاز باشا فى منصب "حاكم الساحل الأفريقى" كله من السويس حتى "رأس جواردافوى".

ووضع الوجود المصرى حدًا لكل الحروب القبلية فى تلك المنطقة حيث كان المتحاربون يتبادلون سرقة الأطفال ويبيعهم مقابل الحصول على الأبقار، وذلك حسب عاداتهم الممقوتة. وبدءاً من سنة ١٨٧٣، بدأت مدينة "بربرة" - فى بلاد الصومال- تجنى ثمار انتشار السلام المصرى على هذه السواحل القاحلة.

وفي انتظار تنازل تركيا عن "زيلع" لإسماعيل، بذل الخديوى قسارى جهده لكى يظل منفردا بالسيادة على ساحل أفريقيا بأكمله، ويُبعد أى نفوذ أجنبى عنه. ولذلك، أبلغ إسماعيل اللورد فيفيان (القنصل العمومى بالنيابة لبريطانيا العظمى فى مصر) بأن الفرنسيين يفكرون فى إرسال قوة عسكرية إلى "أوبوك" (بالقرب من زيلع) وكانوا قد اشتروها من شيخ "روحيتا" فى سنة ١٨٦٢. كما ذكره بأن الإنجليز كانوا قد فعلوا الشيء نفسه بعد انتقال عدن إلى ملكية التاج البريطانى فى يناير سنة ١٨٣٨؛ فهم قد رأوا ضرورة تأكيد سيطرتهم على مينائى "زيلع" و"تادجورا" المواجهان لعدن.

وأيضاً، فبتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠، عقدَ الكابتن "موريسبى (Moresby) - وكيل "شركة الهند الشرقية" - معاهدة سلام وتجارة وصداقة مع سلطان "تادجورا" (السلطان محمد).

وبناءً على هذه المعاهدة، تنازل السلطان محمد عن "جزيرة موسى" للحكومة الإنجليزية. وبتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٠، عقد الكابتن موريسبى معاهدة أخرى مع حاكم زيلع بمقتضاها أصبحت "جزيرة أوباد" (أو "آيات") - بالقرب من زيلع - ملكاً لإنجلترا^(١١).

ولكن زيلع وتادجورا - وحتى روحيتا نفسها - كانت من ممتلكات الدولة العثمانية أو مصر، ولم يكن لحاكمها أى حق أو أية سلطة لعقد أية معاهدات مع إنجلترا أو التنازل عن أية أراض لها أو لغيرها. وتمسك إسماعيل بعدم قانونية هذا البيع وطلب من الإنجليز الجلاء عن جزيرتى "موسى" و"أوباد". وكان ذلك تمهيداً لأن يطالب الفرنسيين - بنورهم - بالجلاء عن "أوبوك".

وذكر إسماعيل للورد فيفيان بأنه قد استخدم هذه الذريعة مع الإيطاليين ونجح فى منعهم من التمرکز فى "عصَب" (بالقرب من "روحيتا") التى كانت شركة "روباتينو (Rubattino)" الإيطالية قد اشترتها من القبائل المحلية فى سنة ١٨٧٠^(١٢).

وعندما استُشير السير هنرى إليوت - سفير بريطانيا العظمى فى الأستانة - حول هذا الموضوع، وافق على اعتراف الحكومة الإنجليزية بحقوق مصر والباب العالى فى الساحل الغربى للبحر الأحمر بأكمله وخليج عدن. واعتُبر أن هذا الحل هو أفضل وسيلة للقضاء على تجارة العبيد؛ وفى الوقت نفسه، لمنع أية قوة أوروبية أخرى من إنشاء أية محطة لها على هذا الساحل^(٣).

ووافق السير هنرى إليوت أيضا على ضرورة تخطى الحكومة الإنجليزية عن "جُزر موسى" التى لم تحتلها أبدا. ولكن وجهة النظر الراقصة - التى أبدتها حكومة الهند - هى التى رَجَحَتْ.

ومع ذلك، فإن فكرة السير إليوت الأساسية لاقت نجاحا لأن إنجلترا قد فشلت فى استبعاد النفوذ المصرى عن البحر الأحمر، فكان من مصلحتها القبول بالأمر الواقع ثم تعمل على الاستفادة منه بقدر ما تستطيع: فجعلت مصر تقوم بحراسة الممتلكات التى تَطْمَع فيها إنجلترا، وتدعم الحقوق المصرية ضد أية قوة أوروبية أخرى حتى تحين اللحظة التى تستولى فيها إنجلترا لنفسها على هذه الحقوق.

وهذا السلوك يُعْتَبَر بمثابة تغيير مفاجئ فى توجهات السياسة الإنجليزية التى كانت - فى السابق - تعتبر أن كل قبائل ساحل الصومال مستقلة مع إن الـراية المصرية كانت ترفرف على المواقع الرئيسية هناك منذ سنة ١٨٦٦.

وكان قد سبق لإنجلترا وأن منَعَتْ إيطاليا من احتلال جزيرة "سقطري" - سنة ١٨٧١ - لكى تحتلها هى فى يناير سنة ١٨٧٦، فقررت إيطاليا وكذلك فرنسا (التي كان لها نشاط كبير فى أفريقيا) أن تستفيدا من هذا المفهوم الجديد للسياسة الإنجليزية لكى تعقدا معاهدات مع الحكام - غير المسؤولين - المنتشرين على طول الساحل الأفريقى، وذلك بهدف نشر نفوذهما على ساحل البحر الأحمر خصما من حساب مصر والدولة التى ستكون وصية عليها فى المستقبل؛ أى بريطانيا العظمى.

ولذلك، أوقف الإنجليز عداوتهم المعلنة ضد مصر - منذ سنة ١٨٧٣ -
لدرجة أنهم بدأوا بالاعتراف بحسنات ومزايا الحكم المصرى فى تلك الأصقاع
البعيدة.

وفى الواقع، فإن الكولونيل ستانتون كتب تقريرًا من الإسكندرية - بتاريخ
١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٤ - وجهه إلى وزير الخارجية الإنجليزية ذكر فيه: "ربما
أسمح لنفسى بأن ألفت نظر سعادتكم إلى أن إنشاء إدارة منتظمة قادرة على إنهاء
الخلافت الداخلية بين قبائل ساحل الصومال (تلك الخلافت التى منعت - حتى
الآن - أى توسع تجارى فى تلك الأنحاء) لهو أفضل ضمان للصدقة - مع
الممتلكات الإنجليزية فى عدن - أكثر من الضمانات التى تقدمها لنا حاليًا معاهداتنا
التجارية المعقودة مع مشايخ بربره وزيلع وتادجوره"^(١٤).

ثم ذكر القنصل الأهمية المتزايدة لتجارة عدن ووارداتها منذ احتلال
المصريين للساحل [الأفريقي]، وضرورة الاعتراف بسيادة مصر على هذا الساحل
بأكمله لى تمنع أية محاولة لاحتلاله من قبل أية قوة [أوروبية] أخرى.

وفى شهر يوليو سنة ١٨٧٥، غادر ياور السلطان العثمانى الأستانة متوجهاً
إلى مصر حاملاً للخديوى إذن السلطان له بالاضطلاع بمهام ممارسة إدارة "زيلع"
فى خليج عدن. وحتى ذلك التاريخ، كان الباب العالى يعتبر "زيلع" من ملحقات
ولاية "الحديدة". والتزم إسماعيل بتسديد مبلغ ١٥ ألف جنيه سنوياً للخزانة
السلطانية كنوع من الجزية. وأتاحت هذه الملكية الجديدة للخديوى إنشاء حكومة فى
"تادجورا"، وإقامة علاقات مع الشعوب والسكان بداخل أفريقيا لفتح طرق التجارة
معيهم.

زيلع هى المنفذ الطبيعى لولاية "شوا" ("Choa") الحبشية؛ ومن هنا، كان
لاحتلالها أهمية عظمى: فهذا الاحتلال جعل جنوب/ شرق الحبشة قريباً من مصر
التى كانت لها - بالفعل - علاقات مع شمال/ شرق الحبشة عبر "مُصَوَّع". وفى
تلك الأثناء، كانت الحبشة تُعتبر مركزاً كبيراً ترتفع فيه الفوضى، ويقع فى قلب
الممتلكات المصرية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر. وبالتالي، فإن تواجد مصر

فى زيلع كان مرحلة فى تدعيم السلطة المصرية على الساحل وعلى البلاد المتاخمة لإمبراطورية النجاشي.

وكتب الملازم وود للسير إليوت حول موضوع هذا التنازل فذكر ما يلي: "إن نقل إدارة "زيلع" - ذلك الميناء الصغير - إلى مصر، مع استحوادها على بربرة، قد جعل الساحل الغربى للبحر الأحمر تابعاً لمصر. والمناطق التى كانت تشتهر - فيما مضى - بأنها مناطق متوحشة ولا ترحب بالغرباء ستتصل قريباً بالمناطق المتحضرة.

"كما إن إدخال خط البرق إلى سواكن قد اختصر حوالى نصف المسافة الجنوبية للبحر الأحمر، وأصبح الاتصال بهذه المدينة سهلاً للغاية من أى جزء من الساحل: ففي كل قرية يوجد موظف مصرى ومعه بضعة جنود لحفظ النظام. وهكذا أصبح من السهل العثور على رجل موضع ثقة لحمل الرسائل.

"وتوجد الآن خدمة توصيل البريد - شهرياً - بين السويس ومصوع، وتقوم السفن التجارية بهذه المهمة: فتبحر غالباً بمحاذاة الساحل الغربى وسط الصخور وتستطيع ملاحظة أية إشارة استغاثة. ويُدرس حالياً مشروع لمد هذه الخدمة حتى "بربرة" وترك سفينة فى هذا الميناء للاتصال بعدن". وينهى الكاتب تقريره بذكر الخدمات العديدة التى تقدمها السلطات المصرية فى البحر الأحمر للسفن الإنجليزية ولقضية الحضارة^(١٥).

وبعد احتلال "هرر" (سنة ١٨٧٥)، قرر الخديوى استكمال غزو ساحل الصومال على المحيط الهندي، فيتحقق - بذلك - مشروعه الأثير إلى قلبه:

١- الحصول على منفذ من جهة الشرق.

٢- إنشاء وسائل مواصلات مع المديرىات الاستوائية - التى غزاها - تكون أسهل وأقصر من وسائل المواصلات الموجودة عبر نهر النيل.

٣- تحصين حدود إمبراطوريته فى الجنوب/ الشرقى بمد خط يربط بحيرة فيكتوريا بساحل أفريقيا الشرقية.

وفى الواقع، فإن إنجلترا كانت أول من عارض هذا المشروع الذى كان الخديوى يوشك على تنفيذه فى سنة ١٨٧١، وقامت هى بتنفيذه لصالحها فيما بعد بواسطة إنشاء خط سكة حديد يربط "مومباسا" ببحيرة فيكتوريا.

وفى تلك الفترة (سنة ١٨٧١)، ومما يُحسب لإسماعيل من أمجاد أنه أدرك الأهمية القصوى لموضوع المواصلات؛ فربط بينها وبين "التوسُّع" و"التنظيم" الجديدين فى إمبراطوريته السودانية مع الاهتمام بإلغاء تجارة العبيد (الخاصة).

وفى سنة ١٨٧٠، كلَّف الخديوى السير صمويل بيكر بالقيام بحملة استكشافية فى أواسط أفريقيا من القاهرة. ووضع الخديوى تصميم وإعداد المشروع المرتبط بهذه الفكرة العظيمة: فكان على الكولونيل الأمريكى بوردى (Purdy) أن يخرج من "مومباسا"، ثم يتجه إلى بحيرة فيكتوريا بالعبور بين جبلى "كينيا" و"كليمانجارو"^[٣]. وإخفاء الهدف الحقيقى لهذه الحملة الاستكشافية، تم نشر إشاعات قوية فى أفريقيا (سنة ١٨٧١) تردد إنه قد وقعت كارثة للسير صمويل بيكر، وأنه يتم إعداد حملة إنقاذ ستدخل أفريقيا من نقطة قريبة من زنبار.

وحسبما ذكر بونولا بك (Bonola) فى كتابه "L' Egypte et la Géographie" فإن "الضباط والجنود والسفن والمؤن قد تم تجهيزهم بالكامل، ولكن هذه الحملة أُلغيت نظراً لوقوع أحداث سياسية". وبالتأكيد، فلا بُد أن أخبار هذا المشروع قد تسرَّبت لأذان إنجلترا فتدخلت لإيقافه.

وكان الكولونيل بوردى يحمل رسالة بها تعليمات الخديوى وكان عليه أن يفتحها عند وصوله إلى بلاد "كليما". وكانت هذه التعليمات نقضى:

[٣] ألف الكاتب الأمريكى إرنست هيمنجواى (١٨٩٩-١٩٦١) رائعته "تزوج كليما نجارو" (سنة ١٩٢٧) التى تدور أحداثها فى هذه المنطقة [المترجم].

١- بأن يُنشئ نقطة عسكرية فى هذه المناطق الجبلية فى 'كيليمبا'.

٢- وبأن يتصرف - فى جميع الأمور - على أساس أن القوات المصرية "قد جاءت لتبقى" فى هذه المناطق.

٣- وبأن يطبق سياسة حذرة للغاية فى تعامله مع مهربي العاج والعبيد، ويجب أن يفهم السكان المحليون أن بعثتنا ليست لها أية علاقة بالمهربين؛ ويجب أن يفهم المهربون أننا لم نحضر إلى هناك للإضرار بمصالحهم.

ولا يوجد أفضل من هذه السياسة. وفى نهاية الأمر، لخص الخديوى الفكرة العظيمة لعهد قائلاً: "بدءاً من اليوم، يجب أن يكون سكان مناطق منابع النيل أصدقاء وحلفاء لصاحب السمو الخديوى".

ولم يكن الخديوى مستعداً للتراجع طوعاً عن مشروعه - الحيوى للغاية - الخاص لتدعيم الأجزاء البعيدة لإمبراطوريته، خصوصاً وأن الموقف قد تطوّر كثيراً منذ سنة ١٨٧١. وفى الحقيقة، فإن مشروع مد خط سكة حديد من القاهرة إلى الخرطوم كان قد توقف العمل فيه بسبب المصروفات المبالغ فيها - وغير المتوقعة - التى تسبب فيها بعثة بيكر.

ومن ناحية أخرى، فإن جوردون - الذى خلف بيكر (بين سنتي ١٨٧٤ و١٨٧٦) - قد أوصل الحدود المصرية حتى شواطئ "البحيرات العظمى" فى قلب أواسط أفريقيا. وبالتالي، فإن المواصلات - بواسطة النيل - أصبحت أطول وأصعب. وحتى لو تم تنفيذ خط السكة الحديد - بين القاهرة والخرطوم - فإنه سيخترق وسط السودان ولكنه سيرك الحبشة جانباً ولن يدخل فيها (ومعها كل مناطق الساحل الشرقى لأفريقيا حيث بسطت مصر سيادتها).

وكان أسهل الحلول يتمثل فى إنشاء خط ملاحى من السفن البخارية على ساحل مُصَوَّعٍ ومومباسا؛ وفى الوقت نفسه، إنشاء طُرُق للقوافل فى الداخل تربط

ما بين الموانئ المصرية وبلاد: "الجالا" و"شوا" و"كافا" و"هرز"، وكل المناطق الواقعة بين الساحل الأفريقي ومنابع نهر النيل.

ولكن كانت هناك حلقة رئيسية ناقصة في هذه السلسلة - التي تهدف لإنشاء خط مواصلات منتظم في هذا الجزء من أفريقيا - ألا وهي: وجود خط يربط ما بين "مومباسا" وبحيرة فيكتوريا التي تُعتبر أقصى حدود إمبراطورية إسماعيل. ولتحقيق هذا الهدف، تصوّر إسماعيل أنه يجب أن يعهد - هذه المرة - بقيادة الحملة الجديدة لأحد الإنجليز - هو ماك كيللوب باشا (Mac Killop)، وكان تحت إمرته الكولونيل الأميركي شايليه - لونج بك (Chaillé Long) والكولونيل المصري عبد الرازق بك وزميله حسن واصف.

وفي البداية، توجّهت الحملة إلى "رأس حافون" فوصلتها يوم ٥ أكتوبر سنة ١٨٧٥. وفي اليوم التالي، تم رفع الراية المصرية على المدينة بعد إجراء الاحتفالات والماراسم المعتادة. وأظهر السكان المحليون مشاعر اللفّة لى يحكمهم الخديوى الذى أطلقوا عليه اسم "سلطان إسماعين".

وفى يوم ٢٧ أكتوبر، وصلت الحملة إلى "جوبا"، وأجرى ضابط أركان حرب الحملة المصري- حسن واصف - دراسات استكشافية عدة ورسم خريطة للنهر نتج عنها:

١- تصحيح خريطة بلاد الصومال.

٢- قياس أعماق مينائى "كيسمايو" و"برافا".

ونتج عنها - أيضا - العديد من الملاحظات ذات النفع للجغرافيا الحقيقية. وبالإضافة لكل ما سبق، أقام المصريون مراكز عسكرية فى تلك المناطق، ورفعوا الراية المصرية على "كيسمايو" (فى شمال "جوبا"). ولكن إنجلترا قدّمت احتجاجات مُفادها أن المنطقة الساحلية تتبع سلطان زنبار؛ فاضطر إسماعيل لإجلاء قواته عن هذه المنطقة فى شهر ديسمبر.

وهذا التَنَدُّلُ يُوَضِّحُ أساس السياسة الإنجليزية: فإنجلترا لم تكن مستعدة أبداً لقبول تَوْسُّعِ سيادة مصر، ولكنها كانت تتحملها - بناءً على حسابات خاصة - إذا لم تستطع منعها، ثم تعمل على تحويلها لصالحها بالتدخل بمبادرة في مجريات الأمور. وفي جميع الأحوال، فقد كانت إنجلترا تعتبر أن مسألة زنجبار والمسألة المصرية ومشكلة النخاسة مرتبطة كلها ببعضها ارتباطاً وثيقاً.

وكانت إنجلترا تدافع عن سواحل مصر في البحر الأحمر وخليج عدن ضد أى تَنَدُّلٍ من أية قوة أوروبية أخرى. وفي الوقت نفسه، كانت تُدافع عن ساحل زنجبار (من نهر "جوبا" حتى "رأس دلجرادو") ضد النفوذ المصري: ففي الشمال، كانت إنجلترا تحقد على مصر؛ ولكنها كانت تقبل التنافس معها على بسط النفوذ في تلك المنطقة بدلاً من أن تجد إنجلترا نفسها تتنافس هناك مع إيطاليا وفرنسا. أمّا في الجنوب، فقد فضّلت إنجلترا الوقوف مع زنجبار لأن النفوذ الإنجليزي فيها كان يتصاعد.

ومن المعروف أن سلطان زنجبار كان قد تَخَلَّص من تبعيته لإمام مُسَقَّط بفضل مساعدة إنجلترا له: فقد كان الإنجليز يسيطرون - هناك - على الجيش والبريد؛ وكان ممثلهم - جون كيرك (John Kirk) - قد أصبح مستشاراً للسلطان برغش (بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧٨)، وكان هو الذي يدير سياسة السلطان. وكانت إنجلترا تأمل في مد نفوذها على شرق أفريقيا من خلال زنجبار.

وأعلن نائب في البرلمان الفرنسي أنه إذا كانت زنجبار بمثابة مفتاح الطريق إلى منطقة البحيرات العظمى، ومركز التجارة العربية في شرق أفريقيا، ومتصلة بالبحر الأحمر وعدن وأفريقيا وبومباي^(١٦)، فإن مصر لها اليمين الروحية والمادية على كل مناطق السودان. وفي هذه الحالة، يمكننا القول بأن مصر تُثير أطماع بريطانيا العظمى فيها أكثر فأكثر.

* * *

ثالثاً: اتفاقية ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧:

وتوصّلت "سيده البحار" إلى وسيلة عبقرية لتنفيذ سياسة نشطة- خاصة بها - في بحار أفريقيا الشرقية، فتحت ستار "المصالح الإنسانية" بثّرت إنجلترا ببدء حملة ضد تجارة العبيد [النخاسة]، وأجبرت مصر وزنبار على التوقيع على شروط تتناقض مع استقلالهما بحجة المساهمة في إنجاح هذه الحملة الإنسانية.

وكان قد سبق للسير هنري إليوت وأن فاتح نوبار باشا- في الآستانة - لإبرام معاهدة مع إنجلترا لإلغاء النخاسة. ولكن وزير الخارجية المصري رفض. ومع ذلك، نجحت إنجلترا - يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ - في أن تجعل إسماعيل يوقع على المعاهدة الشهيرة الخاصة بإلغاء هذه التجارة.

وتنص المادة الرابعة من هذه المعاهدة على أنه: "لكي تصبح محاربة تجارة العبيد السود أو الأحباش - في البحر الأحمر - أكثر فاعلية، فإن الحكومة المصرية توافق على أن تقوم الطرادات البريطانية بزيارة وتفتيش- وعند اللزوم احتجاز - أية سفينة مصرية يتّبت أو يشتبه في أنها تمارس تجارة العبيد السود أو الأحباش (أو أنها ستمارس هذه التجارة خلال هذه الرحلة بعد لقائها بالطرادات البريطانية). وتقوم الطرادات البريطانية بتسليم هذه السفن لأقرب سلطة مصرية لتحاكمها.

"وهذا الحق في الزيارة أو التفتيش أو الاحتجاز يمكن للطرادات البريطانية ممارسته في البحر الأحمر وخليج عدن، وعلى طول ساحل شبه الجزيرة العربية، والشاطئ الشرقي لأفريقيا، وفي المياه الإقليمية لمصر وملحقاتها...

وتسرى هذه المعاهدة بدءاً من تاريخ توقيعها^(١٧) على أرض مصر نفسها حتى أسوان، وعلى الممتلكات المصرية في أفريقيا وساحل البحر الأحمر بعد مرور ثلاثة أشهر من تاريخ التوقيع عليها إلخ الخ...".

وعَلَّقَ أحدُ الكُتَّابِ قائلًا: "لقد حَصَلَتْ بريطانيا العظمى - من إسماعيل باشا - على هذه الاتفاقية التى تُعْطِيها حُرِيَّةَ تَصَرُّفٍ مُطلَقةٍ للقضاء على تجارة العبيد فى المياه الإقليمِيةِ المصريَّةِ داخلِيا وخارجِيا، أى حق مراقبة مجرى نهر النيل بطوله، وساحل البحر الأحمر، والساحل الشرقى لأفريقيا.

"وبعدما حَصَلَتْ بريطانيا العظمى على هذه الاتفاقية، لم تُعَدَّ تَهْتَمُ كثيرًا بمحاربة النخاسة "لصالح الإنسانية" بل اهتمت أساسا بإلغاء الملاحة العربية، وبقطع الاتصالات بين مسلمى الهند ومسلمى أفريقيا: فهما عناصر المقاومة المحلية الوحيدة القادرة على تعريض مصالح بريطانيا فى الهند للخطر^(١٨).

وهذه الاتفاقية قد وَقَّعتْ قَبْلَ توقيع معاهدة كاملة حسب الأصول الواجبة، وشَجَّعتْ الأسطول الإنجليزى على ممارسة مُراقبة مستمرة ولصيقة على كل تصرُّفات وأفعال السلطات المصرية فى البحر الأحمر.

وللإقلال من التأثير المُهين - الذى تسببه هذه المراقبة - عمل إسماعيل باستمرار على تقوية وجود البحرية المصرية فى تلك الأرجاء، لدرجة أن المُقيم السياسى البريطانى فى عدن كتب لحكومة بومباى - بتاريخ ١٧ أبريل سنة ١٨٧٦ - يُخبرها: "تلاحظ أن المصريين ما يزال لديهم أسطول كبير على مقربة من ميناء عدن^(١٩)".

ولم يتوقف إسماعيل عند حد زيادة الأسطول المصرى فى البحر الأحمر، بل إنه فكَّرَ فى تحصين "زيلع" و"تادجورا" و"بربره"، وهذه الموانئ كلها تقع على خليج عدن.

وأفضى إسماعيل لوزيره نوبار باشا بفكرة هذا المشروع، وسأل عن رأيه قائلا: "حسنٌ !! بماذا تتصح حكمتك؟؟

فرد نوبار بقوله: "إن حكمتى ترى أن التحصينات تشبه خلايا النحل، وخلايا النحل تجذب الزنابير إليها. وفى حالتنا هذه، أعتقد بأن الزنابير ترتدى سترات

عسكرية حمراء اللون. وبالإضافة إلى ذلك، فقد وقّعنا اتفاقية مع هذه السترات الحمراء لإلغاء النخاسة".

"وأضاف نوبار قائلاً: "تظر الخديوى إلى نظرة متسائلة لأنه لم يجد أية علاقة ما بين فكرة تحصين هذه المواقع وبين هذه المعاهدة. فقلتُ له: مولاي، يبدو لى أن التجارة مُنعمة فى تادجورا، وشبهه منعمة فى زيلع، وأن هذين الميناءين يعيشان تقريباً على مرور قوافل العبيد بهما. فرد الوالى بالإيجاب.

"فأكملتُ رأيى قائلاً: هل ستتركون هؤلاء العبيد يُسحبون على متن السفن؟؟ بالطبع لا؛ فمعاهدة إلغاء النخاسة موجودة والإنجليز موجودون. أمّا إذا منعتم شحن العبيد، فستتشب حرب مستمرة بينكم وبين القبائل الهمجية التى ستحرمونها من مصدر رزقها." (لم يسبق نشره).

وكان نوبار باشا مُصيناً: فلكى يكسب إسماعيل مساندة الحكومة والرأى العام فى إنجلترا، كان مُرغماً على شن حملة ضارية ضد النخاسة فى جميع أرجاء إمبراطوريته، فألقى - بذلك - بذور التمرد المُقبل فى السودان.

وقامت إنجلترا بدور الشرطة البحرية فى المياه الإقليمية المصرية فى أفريقيا الشرقية، وحصلت من مصر على حق تعيين وكلاء إنجلترا فى جميع الموانئ والمواقع الموجودة على ساحل بلاد الصومال: فاستطاعت بذلك تأمين وسائل مراقبة - وعند اللزوم إعاقه - نمو السيادة المصرية فى كل تلك البلاد، لأن ملكية مصر لتلك البلاد قد تودى إلى تحييد المزايى الاستراتيجية لميناء عدن.

ونعود فنكرر بأن الهدف الذى سَعَت إنجلترا إليه - فى هذه الاتفاقية - لم يكن "هدفاً إنسانياً" - كما ادّعتُ - بل كان هدفاً سياسياً خالصاً. ولما كان وكلاء إنجلترا فى البحر الأحمر يفهمون تماماً "سياسة إخفاء النوايا الحقيقية" التى تُمارسها حكومتهم، فقد أرسلوا إليها تقارير مُغرِضة ومُبالغ فيها عن النخاسة فى تلك المنطقة. وكان هدفهم الواضح هو إعطاء حكومتهم مبرراً للتدخل فى شئون حكومة الخديوى ومطابقتها بتنفيذ الاتفاقيات. وكانت إنجلترا تعرف تماماً أن إلغاء النخاسة

لهو عمل بطيء ومنهجي يتكفل به الزمن. ولذلك، فإن أسلوب القمع العنيف - الذى دُعيت إليه إنجلترا بحماسة - لم يؤدِ إلا إلى:

١- إرسال المزيد من الحملات.

٢- وشن حروب مُدمرة بلا جدوى.

٣- وإثارة حالة من السُخط بين سكان تلك المناطق ضد مصر.

وفى يناير سنة ١٨٧٧، وَقَعَ الخديوى تحت تأثير النفوذ الإنجليزي، فكلف ماك كيللوب برئاسة حملة خاصة للتفتيش الدقيق على سواحل البحر الأحمر من السويس حتى بربرة.

وَذَكَرَ الخديوى فى تعليماته لماك كيللوب باشا: "لقد تأثرت الحكومة الإنجليزية بالتقارير الخاصة بالنخاسة التى أُرسلها لها العديد من وكلائها المقيمين فى المدن الواقعة على ساجل البحر الأحمر. وحسبما جاء فى تلك التقارير، فإن هذه التجارة الممقونة تُمارَس على نطاق واسع لدرجة أنهم قَدَرُوا عدد العبيد بثلاثين ألف عبد سنوياً يُنْتَزَعُونَ من أفريقيا ويُنْقَلُونَ إلى سواحل شبه الجزيرة العربية. وبالتأكيد، فإن هذا الرقم مبالغ فيه.

"ولذلك، فإن حكومة الخديوى تَشْعُرُ بضرورة قصوى للتحقق من صحة الوقائع المذكورة، وإيجاد علاج عاجل وفَعَّال لهذا الوضع الذى تستهجنه البشرية.."

وقبل قيام الحملة، سَقَطَ ماك كيللوب مريضاً، فعَيَّن الخديوى إنجليزياً آخر - هو الكابتن موريس (Morice) - لرئاسة الحملة. ولكن بريطانيا العظمى لم تَرْضَ عن هذه الإجراءات: فقد كانت تريد تعيين موظف كبير تابع لها، ترسله لندن مباشرة، ويختص بشئون البحر الأحمر تحديداً، ويكون فَعَّالاً لكى يُنْفِذَ اتفاقية منع النخاسة. ولكى تَحَقِّقَ الحكومة الإنجليزية هدفها، استمرت فى ممارسة الضغط على الخديوى كما لو كان تعيين جوردون فى السودان (سنة ١٨٧٧)، والكابتن موريس لم يَحْدُثْ أبداً.

وفى نهاية شهر مايو سنة ١٨٧٧، وتنفيذاً لتعليمات حكومته - التى تلقاها يومى ٧ و ١٩ مايو - قَدَّم اللورد فيفيان مذكرة لشريف باشا يذكر له فيها طبيعة التقارير - التى يرسلها قادة الطرَّادات الإنجليزية باستمرار - والمتعلقة بالانتشار الواسع للنخاسة على ضفتى البحر الأحمر.

وكان الخديوى يدرك تماماً أن احتجاجاته وبراهينه لن تلقى آذاناً صاغية لدى الحكومة الإنجليزية، فأُسْرِعَ وطلب منها إرسال موظف تُكَلِّفه بمهمة تنظيم وإدارة الشرطة البحرية المنوط بها إلغاء النخاسة، هذه الشرطة التى أنشأتها الحكومة المصرية - على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر - لتنفيذ اتفاقية ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ التى تم التوقيع عليها مؤخراً.

فى شهر ديسمبر، رَشَّحت وزارة البحرية الإنجليزية الكابتن مالكولم (Malcolm) وأصدر الخديوى فرماناً - فى الأول من يناير سنة ١٨٧٨ - بتعيينه "مديرًا عمومياً" لإدارة إلغاء النخاسة فى البحر الأحمر، ومنحه صلاحيات مدنية وقضائية، وأن يُقيم فى ميناء مُصنَّوع.

وفور توظيف مالكولم فى منصبه، طلبت الحكومة الإنجليزية إقالة أبو بكر باشا - حاكم زيلع - بحجة تنفيذ المعاهدة. وكان أبو بكر باشا من أهالى المنطقة وله نفوذ هائل هناك. وادَّعت بريطانيا بأنه يُشجِّع النخاسة. ولكن جوردون عارض هذا الطلب باسم مصالح مصر التى لم تكن بقادرة على قمع تَمَرُّد قاده أبو بكر فى تلك المنطقة البعيدة.

وبتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٨٧٨، كتب القنصل الإنجليزي: "إننى أسف لصدور هذا القرار. ونظرًا للأخطار السياسية التى أوضحتها الكولونيل جوردون - وأكدها الكابتن مالكولم - لا أستطيع التمسُّك بتنفيذ بنود المعاهدة فى هذه الحالة. ولكن يصعب على نفسى ذكر أن الكولونيل جوردون يعتقد - فيما يبدو - بأن بنود المعاهدة أكبر من إمكانيات الخديوى، وأنه غير قادر على تنفيذها بصرامة وحسم فى المديرية المصرية البعيدة"^(٢٠).

لقد اعترف الكولونيل جوردون بمدى خطورة هذه الاتفاقية وبمدى فذاحة نتائجها السياسية التي ستضر بمصر. وفي بداية شغلّه لوظيفة "الحاكم العام" في السودان، سجنه يُعارض سياسة استخدام العنف التي دعت إليها الحكومة الإنجليزية لدرجة أن الكابتن مالكولم أبدى استعداداً للاستقالة من منصبه منذ شهر مارس سنة ١٨٧٨.

وعندما علم وزير خارجية بريطانيا العظمى بهذا الموضوع، كتب رسالة - بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٨٧٨ - للمستّر فيفيان ذكر فيها: "من المؤسف حقاً أن يستقيل الكابتن مالكولم من وظيفته في الوقت الذي نحتاج فيه لوجود موظف نشط ومُصمّم على إلغاء النخاسة - التي نأمل في القضاء عليها فعلياً - خصوصاً في بلد تُغْمض فيه كل سلطاته عيونها عن هذه التجارة" (٢١).

وبالطبع، فقد كانت الحكومة الإنجليزية تميل دائماً إلى المبالغة في مدى انتشار هذه التجارة في البحر الأحمر، مع إن الكابتن مالكولم نفسه قدّر أن العدد الإجمالي للعبيد - الذين تمّ تصديرهم لساحل شبه الجزيرة العربية - يتراوح ما بين ١٥٠٠ و ١٧٠٠ عبداً فقط. وهذا الرقم أقل بكثير من رقم الثلاثين ألفاً الذي قدمه نائب القنصل وايلد (Wylde) والذي اعتمدته الحكومة الإنجليزية (٢٢).

وفيما يتعلّق بنشاط وحيوية الكابتن مالكولم ، فإن جوردون باشا لم يكن بحاجة إليهما. وبتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٨٧٨، كتّب المستّر فيفيان: "بالطبع، فإن الكولونيل جوردون يخشى من حدوث محاولة عنيفة ومُسرّعة لتنفيذ معاهدة ستقضى على كل ما أنجزه في مديرية السودان. لقد حقق جوردون هذا الإنجاز بإمكانيات غير كافية، لكنه تعامل بفتنة وحساسية مع السكان المحليين محترماً معتقداتهم الدينية. لقد تصوّر جوردون أن إنجلترا قد فرضت هذه المعاهدة على الوالي؛ وبعد ذلك، فرضنا عليه هو (أي جوردون) الكابتن مالكولم لكي يتجنّس عليه بطريقة ما؛ وأنا قد ألقينا بعبء هذا الموظف على كاهل ميزانية السودان في حين أن جوردون لا يحتاج أبداً إلى خدماته" (٢٣).

وفى الوقت نفسه، أخذَ الكابتن مالكولم يشكو من الكولونيل جوردون واتيهم بأنه يُعرقل جهوده فى محاربة النخاسة، فاستاءت الحكومة الإنجليزية - بدورها - وأُبلغت قنصلها فى القاهرة، بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٨٧٨ بما يلي:

١- أن "الكولونيل جوردون يتساهل فى التعامل مع النخاسين كما لو كان يُشعر بضعفه أمامهم فلا يستطيع المجاهرة بعداوتهم".

٢- وأن عودة ابن أبو بكر باشا (حاكم زيلع) بدون أن ينال عقابا ما "يُعتبر خرقاً للمعاهدة التى تم التوقيع عليها مؤخراً لإلغاء النخاسة".

٣- وأخيراً، كُلفت المستر فيفيان بإبلاغ الخديوى "بأنها تأمل - فى المستقبل - بالاً تمر مثل هذه الحالات بغير عقاب"^(٢٤).

وفيما بعد، حصلَ قنصل إنجلترا على ما يُثبت بأن الاتياع الموجهة ضد ابن أبى بكر باشا - بأنه متورط فى النخاسة - كان اتهاماً باطلاً.

ولم تكف الحكومة الإنجليزية أبداً - وفى جميع الأحوال - عن مطالبة جوردون بتغيير أسلوبه ولا عن مطالبة إسماعيل بعزل أبى بكر باشا أو بمُعاقبة ابنه عقاباً رادعاً. وكان هدف إنجلترا واضحاً: فقد كانت تريد خلق أعداء لدودين ضد مصر يعملون على الإضرار بمصالحها فى منطقة ساحل البحر الأحمر وبداخل القارة على حد سواء.

وفيما بعد، خضع جوردون لهذه السياسة التى أَلحت الحكومة الإنجليزية على تنفيذها: فطبَّقها على "الزبير باشا" وابنه فى السودان. ولكن عندما كان مالكولم موجوداً، كان جوردون يؤمن بأن مهمته تكمن فى تهدئة الاضطرابات وليس العمل على تشجيعها. ولذلك، اضطرَّ مالكولم لتقديم استقالته (يونيو سنة ١٨٧٨) أمام هذه المعارضة الشرسة التى لاقاها من جوردون.

وسارع اللورد فيفيان فأعلن: "من الآن فصاعداً، أصبح الخديوى والكولونيل جوردون مسئولين عن اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية لإلغاء النخاسة التى تعيثُ فساداً فى موائى سُواكن وزيلع وتادجورا"^(٢٤). وبعبارة أخرى، فقد أكد القنصل باسم

حكومته - وبحس سياسى ملحوظ - أنه مستعد للتضحية بالكابتن مالكولم بشرط أن يُنفذ جوردون سياسة مالكولم العنيفة فى البحر الأحمر والسودان؛ تلك السياسة التى حاربها جوردون - حتى ذلك التاريخ - باسم المصالح السياسية لمصر .

ومنذ ذلك التاريخ تحديداً (يونيو سنة ١٨٧٨)، نفذ جوردون سياسة الحكومة الإنجليزية رغماً عنه - كما سنرى لاحقاً^(٢٦) - وشنَّ حرباً واسعة فى السودان ونشر الرعب فى أرجائه .

وفى الواقع، فإن القنصل فيفيان - بنفسه - قد أصدر حكمه على سياسة الكابتن مالكولم وأدانها عندما ذكر - يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٧٨ - ما يلي: "ويُتضح من المعلومات - التى جمعتها من شخصيات مهمة - أن اتهامات الكولونيل جوردون ضد الكابتن مالكولم كانت صحيحة: خصوصاً وأن الكابتن مالكولم كان يتصرف دائماً بدون كياسة ولا فطنة، وبطريقة متعالية تماماً واستبدادية تجاه الموظفين - من أهل البلاد - الذين أخبرونى بأنهم كرهوه تماماً لدرجة أنه لم يكن يستطيع الحصول منهم على أدنى قدر من المعاونة"^(٢٧).

ولكن، منذ ذلك التاريخ ، كان جوردون مجبراً على ممارسة نفس هذه السياسة المكروهة والخطيرة لتحقيق هدف إنجلترا الأساسى المغلف بغلاف إنسانى براق ألا وهو: تفكيك القوى المادية والمعنوية للإمبراطورية المصرية فى أفريقيا^(٢٨).

* * *

رابعاً: اتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧:

ضمنت معاهدة إلغاء النخاسة لإنجلترا وسيلة التخلُّل فى الشؤون الداخلية للولايات المصرية التى كانت إنجلترا تطمع فى الاستيلاء عليها. لكنها أرادت - فيما بعد - القيام بإجراء احتفالى مهيب تمنع به القوى الأوروبية الأخرى من الوصول لتلك الولايات؛ ومن ثم، فقد تفاوض القنصل الإنجليزى مع الحكومة

المصرية لعقد معاهدة تعترف إنجلترا - بمقتضاها - بسيادة مصر على بلاد الصومال بأكملها.

وفى البداية، أرادت الحكومة الإنجليزية ما يلي:

- ١- الاعتراف بهذه السيادة المصرية حتى "رأس جواردافوي" فقط.
 - ٢- وطلبت من مصر أن تجعل "زِيلَع" و"بُولِيَار" و"بِرْبِرَة" منطقة موانئ حرة.
 - ٣- كما طُلِبَتْ من مصر أن تبذل قصارى جهدها لإلغاء النخاسة فى الصومال.
- وفى شهر أبريل سنة ١٨٦٧، رد إسماعيل على مقترحات بريطانيا وُلِّفَتْ نظرها إلى:

١- أن "رأس جواردافوي" لا يُمثّل حدود ممتلكات مصر على ساحل بلاد الصومال، بل إن هذه الحدود تقع عند "رأس حاقون" على بُعد ٢٠٠ ميل جنوب "رأس جواردافوي"؛ وأن لا زنجبار ولا أية قوة أخرى قد سبق لها وأن أعلنت ملكيتها "لرأس حاقون"؛ وذكر بريطانيا بأنه يحتل هذه المنطقة فى الوقت الحالى وأن القبائل والزعماء المحليين هناك يعترفون بالسلطة المصرية بلا تحفظ.

٢- وفيما يتعلق بزِيلَع، أعلن إسماعيل أنه لا يستطيع إعلانها "منطقة مينائية حرة" لأنه يدفع للباب العالى مبلغ ١٥٠ ألف جنيه عوضًا عن رسوم الجمارك التى كانت تتَحَصَّل عليها الحكومة العثمانية من هذا الميناء.

٣- أمّا موضوع إلغاء النخاسة، فقد رفض إسماعيل التوقيع عليه طالما أنه لا توجد لديه الوسائل الفعّالة لتنفيذه، وبشرط أن تضم إمبراطوريته كل الأراضى الممتدة حتى جوبا؛ وأشار إسماعيل أيضًا إلى ضرورة امتلاكه لميناء مناسب على الساحل الشرقى لأفريقيا^(٢١).

وقدّمت حكومة جلالة الملكة بعض التنازلات البسيطة لكى تصل إلى اتفاق مع الخديوي، وهذا ما تم فعلاً فى شهر أغسطس. وفى يوم ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧،

تم التوقيع على اتفاقية بين حكومتى البلدين بخصوص مد السلطة القضائية لصاحب السمو الخديوى على أراضى ساحل بلاد الصومال، وجاء فى مقدمتها ما يلى:

"إن حكومة صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا، وحكومة صاحب السمو خديوى مصر ترغبان فى عقد اتفاقية خاصة باعتراف حكومة صاحبة الجلالة ببسط تشريعات صاحب السمو الخديوى - الخاضع لسلطة الباب العالى - على ساحل بلاد الصومال حتى "رأس حافون". ولهذا الغرض، قامت الحكومتان بتكليف المستر فيفيان وشريف باشا إلخ إلخ...

"وحسب نص المادة الأولى، ومع مراعاة الشروط المذكورة فى المادة الخامسة، فإن حكومة صاحب السمو الخديوى تلتزم بأن يكون ميناء "بولهار" و"بربرة" ميناءين حرّين، بدءًا من تاريخه سرّيان هذه الاتفاقية، ونتيجة الاعتراف الرسمى من قبل حكومة صاحبة الجلالة بمد السلطة القضائية لصاحب السمو الخديوى على أراضى ساحل بلاد الصومال".

وتوجد فى هذه الاتفاقية مادة مشنومة تمنع مصر من جباية الضرائب على عشرة آلاف رأس من الأبقار و ٦٠ ألف رأس من الضأن يتم تصديرها سنويًا من ميناء بربرة إلى ميناء عدن. وتعنى هذه المادة حرمان الحكومة المصرية من الحصول على مواردها المشروعة، خصوصًا وأنها أنفقت فى "بربرة" المبالغ التالية:

١- ٧٠ ألف جنيه لبناء فنار، وحوض، ومنشآت أخرى مفيدة.

٢- ٤٠ ألف جنيه أخرى لإقامة الجنود ورسو السفن فى الميناء^(٢٠).

علمًا بأن إجمالى الإيراد لا يتعدى مبلغ ١٧٠ ألف جنيه سنويًا!! وحتى جوردون نفسه اعتبر أن هذا الشرط مكلف جدًا وغير عادل (Not fair) بالنسبة لمصر.

وجاء فى المادة الثانية: "يلتزم صاحب السمو الخديوى - بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن خلفائه فى نظام حكمه الوراثى - بالأى يتم أى تنازل مطلقاً لصالح أية قوة أجنبية عن أى جزء من الأراضى التى ضمت رسمياً إلى مصر".

ومنحت المادة الثالثة لحكومة صاحبة الجلالة الملكة "الحق فى تعيين وكلاء قنصلين فى كل الموانئ وكل النقاط الواقعة على ساحل البلاد المذكورة".

أما المادة الرابعة - الخاصة بمحاربة النخاسة وإنشاء شرطة بحرية - فقد نصت على أن: "تُعفى مصر من مئمة متابعة إلغاء النخاسة حتى يتم لها تدعيم سلطتها فى هذه المنطقة. "وهذا الإجراء - ظاهرياً - يبدو حكيمًا وممكن التطبيق فى كل أنحاء الإمبراطورية المصرية، لكنه - فى الحقيقة - يثبت أن إنجلترا قد اكتفت بأن تضمن لها اتفاقية ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ الحق فى إنشاء شرطة بحرية فى البحر الأحمر، والحق فى مكافحة النخاسة.

وفى النهاية، جاءت المادة السادسة - والأخيرة - لتعلن أن: "الاتفاقية الحالية تصبح نهائية وقابلة للتنفيذ فور صدور تأكيد رسمى من صاحب الجلالة السلطان مؤجّه إلى حكومة صاحبة الجلالة - ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا بأنه لن يحدث أى تنازل - لأى سبب كان - عن أى جزء من أرض ساحل بلاد الصومال لصالح أية دولة أجنبية. وهذا التأكيد يشمل أيضاً جميع المناطق الأخرى الملحقة بمصر، والتى تكون جزءاً لا يتجزأ من الدولة العثمانية، والتى يعلن صاحب الجلالة السلطان أنها تابعة لمصر، والتى لا يمكن التنازل عنها، بالضبط مثل أى جزء من مصر أو أى بلد آخر تحت الإدارة الوراثية لصاحب السمو الخديوى".

وحسب نص هذه المادة، فإن إنجلترا أكّدت على ضمان وحدة أراضى الإمبراطورية المصرية "التي تعترف بها واقعياً"، وعلى ضمان سيادة مصر على ساحل بلاد الصومال. لكن، عندما أعلنت إنجلترا أنها تضمنت وحدة أراضى

الإمبراطورية المصرية ووحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية، فإنها - في الحالين - كانت تريد إخفاء مطامعها فيهما وتقتصر التّدخل فيهما على نفسها فقط.

لقد خلّقت إنجلترا لنفسها منطقة نفوذ واسعة - على الشاطئ الشرقي لأفريقيا - بفضل بسط حمايتها الفعلية على زنبار وساحل زنجبار، وبفضل عقد اتفاقيتين مع مصر في ٤ أغسطس و٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧. وستستخدم إنجلترا هاتين الوسيطتين الدبلوماسيتين لإجبار مصر على ممارسة سياسة توسعية (في السودان ووسط أفريقيا) تتفق مع حدود وأهداف إنجلترا، وتمهد بشكل مباشر - أو غير مباشر - لقيام الإمبراطورية البريطانية في أفريقيا.

* * *

هوامش الفصل العاشر

(1) Archives françaises. A.E. Correspondance politique. Egypte. Vol.43. Alexandrie, le 27 juillet 1868.

(2) Colonel Chaillé – Long: "My life in Four Continents", London, 1912. 2 Vols.

(راجع الجزء الأول، ص ٣٢).

(3) Journal d' Egypte, 1er juin 1865.

(4) Hans Resener: "L' Egypte sous l' occupation anglaise".

(٥) من وجهة النظر هذه، فإن التنازل عن "سواكن" و"مُصَوَّع" لمصر (سنة ١٨٦٥) كانت له أهمية كبرى لأن الفرمان ذَكَرَ: "لقد تم التنازل لكم عن مينائى "مُصَوَّع" و"سواكن" وولاية "تاكّا" بالشروط الآتية:

١- أن تُنشئوا فيها إدارة جيدة تعمل على رفاهيتها.

٢- وأن تجتهدوا فى تنفيذ اللوائح الخاصة بمنع النخاسة بدقة.

٣- وأن تدفعوا - باننظام - لحكومة جَدَّة الرسوم السنوية المفروضة على هذه الولايات، مثلما كان الوضع فى السنوات الأخيرة لحكم المرحوم محمد على باشا.

"وبما أن ساحلى البحر الأحمر هَذَيْن يتبعان الدولة العثمانية، فلا يوجد ما يمنع الدولة من أن تُعْهَد للحكومة المصرية بإدارة هذا الساحل.

"وفيما يَتَعَلَّق بالضرائب، فإنكم ستدفعون رسوم الجمارك والملاحات (مقدارها خمسة آلاف كيس) حسبما جاء فى سَجَلات سنة ١٨٨٠ هجرية، وكما كان

يحدث في عيد المرحوم محمد علي باشا، زائد ٢٥٠٠ كيس، فيكون المجموع ٧٥٠٠ كيس [أى ٣٧ ألف و ٥٠٠ جنيه] تدفع سنوياً لخزانة جدّة ...

6- Archives françaises. Corres pondance politique. Egypte. Vol. 34.

من المسيو جارنييه - الترجمان الأول - للمسيو تاستو القنصل العمومى فى الإسكندرية، ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٤، بخصوص لقاء تم مع والى يوم ٣ أكتوبر.

7- Jules Cocheris: "Situation internationale de l' Egypte et du Soudan".

8- Archives anglaises. F.O. Vol. 3185. le 5 décembre 1847.

9- Archives françaises. Ibid. Vol. 40. Suez, le 9 novembre 1867.

10- Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 3186.

رسالة من شريف باشا - وزير الخارجية - للسيد الوكيل والقنصل العمومى لإنجلترا. الإسكندرية، الأول من يونيو سنة ١٨٧٠.

(١١) تقع جزيرة "موسي" ("Moussa" أو "Mussa") فى مدخل خليج "تادجورا" (أو "تادجورا"). وتم التنازل عنها لإنجلترا يوم ٩ أغسطس سنة ١٨٤٠. أمّا جزيرة "أوباد" (أو "إيفات")، فتقع على بُعد ثمانية أميال شمال "زليغ"، وتم شراؤها من حاكم الميناء فى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٠.

(12) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 2284. Alexandrie, le 22 septembre 1873.

(13) Ibid, Vol. 3187.

من السير هـ. إليوت إلى اللورد جرانفيل. Therapia, le 13 novembre 1873.

(14) Archives anglaises. Ibid. Alexandrie, le 15 septembre 1874.

(15) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 3188.

تقرير من "وود" ملحق ببرقية السير إليوت، رقم ٤٢٧ بتاريخ ٦ أغسطس
سنة ١٨٧٥.

(١٦) خطبة المسيو لامارزيل (Lamarzelle) في جلسة يوم ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٠.

(١٧) يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧.

(18) A. Tollaie: "Les anglais en Egypte. L' Ossature de la trahison", Paris,
1900.

(19) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 3189. Alexandria, le 17 avril 1878.

(20) Ibid. F.O. 84. Vol. 1511. Le Caire, le 22 mars 1878.

(21) Ibid. F.O. le 2 avril 1878.

(22) Ibid.

الرسالة المذكورة سلفاً التي أرسلها اللورد فيفيان إلى حكومته يوم ٢٢ مارس
سنة ١٨٨٧.

(23) Ibid. Le Caire, le 29 mars 1878.

(24) Ibid. F.O. le 31 mai 1878.

(25) Ibid. Alexandrie, le 9 juin 1878.

(٢٦) راجع الفصل السادس عشر: جوردون في السودان.

(27) Archives anglaises. Ibid. Alexandrie, le 23 juin 1878.

(28) Bulletin de la Société Géographiques, 1886.

مقال للمسيو جابرييل فيرران (Gabriel Ferrand) بعنوان:

"Notes sur le Pachalik du Harrar "

أكد فيه بأن الجواسيس المحليين لإتجلترا هم الذين أخبروا الإنجليز بكل تحركات السفن المحملة بالعبيد في البحر الأحمر. وكان بإمكان الإنجليز ضبطها ولكنهم لم يفعلوا، وفضلوا أن يتركوا المبادرة لأبي بكر والسلطات المصرية مراعاةً للمصالح في المستقبل.

(29) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 3189. Le Caire, le 7 avril 1876.

(٣٠) راجع الفصل التالي: "الإدارة المصرية في أفريقيا الشرقية".

* * *

الفصل الحادى عشر

الإدارة المصرية فى أفريقيا الشرقية

من ساحل الصومال حتى هرَّ

- ١- تاريخ إمبراطورية "آدل" (أو "آدال") منذ الغزو الإسلامى: زيلع، وبربرة، وهرَّ؛ قبيلتنا "الجالا" و"الصومال".
- ٢- بربرة، وبولهار، وزيلع أو ساحل بلاد الصومال^[١] أثناء الاحتلال المصرى (١٨٧٢-١٨٨٤).
- ٣- غزو وتنظيم ولاية هرَّ.
- ٤- التقييم العام لنتائج الاحتلال المصرى.

^[١] فى الفهرس، جاء هذا العنوان الفرعى بدون ذكر كلمة "مأهل" [المترجم].

الإدارة المصرية فى أفريقيا الشرقية من ساحل الصومال حتى هرر أولاً: تاريخ إمبراطورية "آدل" (أو "آدال") منذ الغزو الإسلامي:

زِيلَع، وبربرة وهرر؛ قبيلتا "الجالا" و "الصومال":

قرب نهاية القرن السابع الميلادي، أنشأت مجموعة من المستعمرين العرب - من اليمن أو حضرموت - مدينة هرر. ورويدا رويدا، تَكَوَّنت إمبراطورية "آدل" القديمة وكانت "زِيلَع" هى عاصمتها. أمَّا بربرة، فقد أنشأها البطالمة وأصبحت - منذ القرن الثالث عشر الميلادي - جزءا من إمبراطورية "آدل"، ثم ازدادت قوتها لدرجة أنها اشتبكت مع الحبشة فى معارك شبه مستمرة فى القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين.

وخلال القرن السادس عشر الميلادي، ازدادت أهمية هذه المعارك بسبب ظهور أوروبا على الساحة، وكذلك ظهور أمير هرر المشهور: الأمير محمد - الملقَّب بـ "جران" (أو "جراني" أى "الأعسر") - الذى تزعم تحالفا إسلاميا كبيرا.

فمن جهة، أصبح الأتراك - منذ عهد سليم الأول - هم أصحاب السيادة على شبه الجزيرة العربية ومصر: فاحتلوا كل موانئ ساحل البحر الأحمر، وزوّدوا إخوانهم فى الدين بالمدافع والأسلحة النارية، ونقلوا العاصمة من زيلع إلى هرر سنة ١٥٢١م. ومن جهة أخرى، وفى الوقت نفسه، جاء البرتغاليون من الهند وأغدقوا بالجنود والأسلحة على الأحباش. واستطاع "جران" غزو بعض الولايات وأصبح بالقوة هو السيد على الحبشة بأكملها لعدة سنوات. ولكنه هُزم وقُتل سنة ١٥٥٣. ومنذ ذلك التاريخ، انهارت إمبراطورية "آدل".

وفى النصف الأخير من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر، حكّم "هرر" أمراء ينحدرون من أشراف مكة. وبفضل موقع "هرر" على الساحل،

استطاعت السيطرة على مختلف القبائل. ولكن، ازدادت قوة هذه القبائل بالتدريج، فقامت بتخريب هذه المنطقة عن طريق إثارة الفتن، وعمليات السلب والنهب والابتزاز، ونشر الفوضى. وتحوّلت المدينة إلى مجرد "مدينة/ إمارة" بسيطة^(١). وكانت في أغلب الأحيان تتجج في الخلاص من تحرشات قبائل "الجالا" ضدها بفضل الوسائل الدبلوماسية والمكر، ولكنها لم تستطع التخلص من استبداد أمرائها.

ومع ذلك، فإن مدينة هرر لم تفقد أهميتها الناتجة عن وضعها كمركز تجارى في غاية الأهمية: فهي تقع بين الساحل والبلاد الداخلية الثرية مثل بلاد شوا (Choa) وأوجادين.

وهذا الموقع الرائع جذبَ جنسين ليقما حول هذه المدينة وليمتلكا أراض شاسعة حولها، هذان الجنسان هما: "الكومال" (أو "الصومال") و"الجالا".

وقبائل "الكومال" (أو "الصومال") ينتمون للجنس السامي: فأصلهم عربى وينحدرون من نسل الشريف إسحاق بن أحمد الذى أتى من حضرموت إلى بربرة فى القرن الثالث عشر الميلادى. ولكن بعض علماء الأجناس يعتبرون أن قبائل الصومال تنتمى - فى الأصل - إلى الجنس الحامى، ولكنها اكتسبت صفات الساميين بواسطة الدين والثقافة الإسلامية.

وبلاد الصومال تمتد على مساحة واسعة تأخذ شكل مثلث: تتركز قاعدته على سلسلة الجبال الساحلية فى "كافا"، أو على خط وهمى يمتد من خليج "تادجورا" حتى نهر "تانا"؛ ويرتكز أحد ضلعى المثلث على خليج عدن (بطول ١١٠٠ كم)؛ والضلع الثانى يقع على المحيط الهندى (٢٢٠٠ كم).

"واستطاعت قبائل "الدناقل" صدّ زحف قبائل "الصومال" فى الشمال فاندفعت نحو الجنوب واغتصبت أراض من بلاد "الماساي". وهذه المنطقة غنية جدًا بالصمغ والمر والبخور. والنهر الرئيسى بها هو نهر "جوبا" الذى ينبع من هضبة "الجالا". وتتصل "هرر" بمملكة "شوا" و"وادي هرر" الخصيب.

وقبائل الصومال - أساساً - من البدو الرُّحْل الذين يعيشون على تربية الماشية وتأجير الجمال. ولكن اتصاف جنسهم بالعدوانية وإثارة الفتن والسلب والنهب يَضُرُّ كثيرًا بتجارَتهم، ويدفعهم للارتحال جنوباً في اتجاه زنجبار: فتَحُول ميناء بربرة وبولهار إلى مجرد مَنَقَذَيْن بحريَّين رديَّين بعدما كانا سوقَيْن رائجَيْن.

وتنقسم قبائل "الصومال" إلى أربع مجموعات:

- ١- قبائل صومال الشمال.
- ٢- قبائل صومال هَرَّر والغرب.
- ٣- قبائل صومال أوجادين (أو قبائل الوسط).
- ٤- قبائل صومال ساحل "بينادير" (أو قبائل الجنوب).

وتتضمن المجموعة الأولى (صومال الشمال) القبائل الرئيسية التالية: "حَبَر - أويل"، و"عيسا"، و"جبابا دورسي"، و"ميدو جوريتين"، وأربع قبائل أخرى أقل أهمية.

وتسيطر قبيلة "حَبَر - أويل" على بربرة وبولهار والساحل الشمالي بأكمله حتى "زيلع". وبلادهم سهلية يقطعها العديد من الجبال. وتوجد كميات غير معقولة من الثروة الحيوانية: الضأن والماعز والنوق.

وتبعد أراضي قبيلة "عيسا" مسافة ستة أميال عن الساحل بدءاً من جنوب زيلع وتمتد بطول الطريق من زيلع إلى هَرَّر باتجاه شمال/شمال/شرق إلى جنوب/جنوب/غرب حتى "جيلديسا". ومن هذه المحطة الحدودية يتحول الطريق: فيأخذ اتجاه شمال/شمال/غرب إلى جنوب/جنوب/شرق. وتتضمن أراضي قبيلة "العيسا" الجزء الأكبر من مملكة "أديل" القديمة. ويبلغ عدد أفرادها حوالي ١٣٠ ألف نسمة كلهم مسلمون وأميون.

أما قبيلة "جبابا دورسي" فتُحاذي جارتها قبيلة "عيسا". وعدد أفرادها يتراوح ما بين ٢٥ و٣٠ ألف نسمة.

وتنقسم المجموعة الثانية ("صومال هَرَّر والغرب") إلى خمس قبائل رئيسية كبيرة هي: "جيري"، و"بارتيرري"، و"بارسوب"، و"بابيلي"، و"هابيسكول"، بالإضافة

إلى مجموعتين أقل أهمية. وتعيش قبيلة "جيرري" في جنوب/ جنوب/ شرق هرر؛ وقبيلة "بارتيرري" تعيش في الجزء الجبلي من هضبة هرر؛ وفي الشرق، توجد قبيلة "جيرري"؛ وفي الجنوب، تعيش قبيلة "جادا بورسي" و"جد - أويل"؛ وتوجد قبائل "بارسوب" عند منابع نهر "توج - إيافاو"؛ وتعيش قبيلة "بابيلي" في جنوب شرق هرر. أما قبائل "هابسكول"، فيرجع أصلها إلى منطقة "أوجادين ولكنها تعيش شرق قبيلة "جيرري" و"بارسوب".

والمجموعة الثالثة - التي تتكون من قبائل "صومال أوجادين" (أو "الوسط") - فتعيش في الجزء الداخلي لبلاد الصومال ولم يدخلها الأوروبيون إلا في سنة ١٨٨٣. وفي كل قبيلة من قبائل أوجادين يوجد متعلمون يقرءون القرآن ويكتبون اللغة العربية ومنهم شعراء يرتجلون الشعر.

أما المجموعة الرابعة فهي قبائل "صومال الجنوب" (أو قبائل ساحل "بينادير") وتعيش على ضفتي نهر "وابي شيبلي" (أو نهر ليويولد) وأسفل جوبا.

ومنطقة أراضي قبائل "جالا" تمتد - عموماً - من شمال/ شرق بحيرة "فيكتوريا نيانزا - بين هضبة الحبشة شمالاً - إلى منطقة قبائل الصومال شرقاً ومنطقتي "أروسي" و"بوران" جنوباً. وقبائل "جالا" تنتمي إلى الجنس الحامي.

وبلغ عدد أفرادها - في الماضي - من ٧ إلى ١٠ مليون نسمة يتصفون بأنهم أجمل أجناس أفريقيا. وأشاد المبشر كرايف (Krapf) بمهاراتهم الحربية وأجسامهم القوية. وهم وثنويون أذكىاء يعيشون على تربية الماشية كما يتصفون بأنهم مزارعون جيّدون. واستقرت قبائل "جالا" حول مدينة "هرر" في المناطق الجبلية الخصبة حيث يمتلكون المراعي الشاسعة والقطعان الرائعة. وتتصف قبائل "جالا" - على وجه الخصوص - بأنهم قطاع طُرُق مشهورون بالجرأة والشجاعة ويتحصنون دائماً في الأماكن الوعرة المنيعة فوق قمم الجبال.

وفي القرن الخامس عشر، كانت قبائل "جالا" تعيش على سواحل خليج عدن. ولكن غزو "محمد جران" ("الأعسر") للحبشة تسبّب في حدوث حركة انتشار واسعة

بين قبائل "جالا" التي افتتحت خطوات "جران": فمنذ ذلك التاريخ، سيطرت هذه القبائل على "شوا" ومناطق جنوب الحبشة. وفي القرن السابع عشر - تقريباً - احتلّت هضبة "هرّر" وبدأت في ممارسة ضغوط شديدة على أمير هرّر لاغتصاب سلطاته والسيطرة على تجارة القوافل.

وفي هرّر، تنقسم قبائل "جالا" إلى ست مجموعات من القبائل القوية هي: "تولية" و"دجارسو"، و"آلا"، و"إننيا"، و"أروسي"، و"إيتو".

وتعيش قبيلة "تولية" في الشمال ما بين "جالديسا" و"هرّر"، وهي منطقة جبلية تطل عليها الأمطار بغزارة مما يساعد على زراعة القمح والذرة إلخ... أما قبيلة "دجارسو" فتعيش في شرق هرر، وبجوارها مباشرة تعيش قبيلة "آلا". وفي الجنوب والغرب، تعيش قبيلتا "أروسي" و"إننيا". وتوجد قبيلة "إيتو" في الغرب.

وتنقسم كل قبيلة إلى عدة عشائر، فمثلاً قبيلة "تولية" تنقسم إلى عشائر: "جورجوره"، و"أورومو"، و"مونجا"، و"آليلا"، و"آبو".

وهذا الانقسام يضر بوحدة العرق مع إنه ملائم لطبيعتهم المستقل/ الفردي/ الديمقراطي: ولذلك، سنجد قبائل "جالا" - وأيضاً قبائل "صومال" - تنقسم إلى ٨٣ أو ٨٥ قبيلة (وهذا الرقم قابل لمزيد من الانقسام) بدلاً من أن تكون منهم خمس قبائل متجانسة.

وفي سنة ١٨٨٥، قَدَّر العالم النمساوي باولتيشكه (Paultischke) عدد أفراد قبائل "جالا" - في هرر - بحوالى مليون و ٣٠٠ ألف نسمة، منهم: حوالى مليون نسمة تنتمى لقبيلة "أروسي" وحدها، و ٤٠ ألفاً لقبيلة "تولية"، و ١٠٠ ألف لقبيلة "آلا"، و ٢٠ ألفاً لقبيلة "إننيا"، و ١٠٠ ألف لقبيلة "إيتو".

وبوجود هذه القبائل الشرسة التي تثير الاضطرابات والفتن حول المدينة، سنجد أن حدود "هرّر" تنقلص باستمرار لدرجة أنها أصبحت تتركز - مؤخراً - بداخل أسوار المدينة فقط، بينما كانت - في الماضي - عاصمة لمملكة واسعة تشمل الساحل وتمتد إلى المناطق الداخلية.

وميناء بربرة هو الميناء الوحيد الآمن لرسو السفن فى ساحل خليج عَدَن؛ ومن هنا، ظهرت الأهمية القصوى لكى تسيطر "هرر" على ميناء بربرة. ولذلك، انتشرت فى زمن بيرتون مقولة: "إن مَنْ يُسيطر على بربرة يمسك فى يده بلحية هَرَر (٢)".

ويصل تجار البلاد الداخلية من هَرَر إلى بربرة جالبين معهم: البن والعاج وريش النعام والجلود والصمغ وقطعان الضأن والماشية ليبيعوها هناك أو يبادلوها مقابل الأقمشة القطنية والأرز والتمور والسكر والتبغ والشاى والخمور، وغيرها من البضائع من أوروبا وشبه الجزيرة العربية والهند. إن كثرة الأجناس واللغات وتنوعها - فى فصل الشتاء - تُحوّل بربرة إلى مدينة "بابل" حقيقية.

لكن انعدام الأمن يضر كثيرا بالحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد: فتجار المناطق الداخلية يعانون من ابتزاز أمير هَرَر والقبائل الموجودة على طريق القوافل. وتُجار المناطق الخارجية يعانون من ابتزاز قبائل الساحل التى تفرض على كل تاجر منهم أن يضم إليه أحد أفراد القبيلة بصفة "أَبَان" (أى: "حام" له). وبسبب هذه الحماية المفترضة - و"المفروضة" - على التاجر، يحقّ "للأَبَان" اقتسام نصف الأرباح التى يكسبها التاجر من تجارته.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن القوافل تتقلّ البضائع إلى الساحل فى رحلة تستغرق ١٥ يوما فى الأحوال العادية. ولكن هذه الرحلة تستغرق - غالبا - ١٨ شهرا وأحيانا سنتين للوصول إلى الساحل. ولذلك، ركّدت التجارة وتدهورت أحوال بوليار وبربرة.

وكان يوجد مجرى للمياه العذبة يغذى مدينة بربرة من أقدم العصور ولكنه اندثر الآن. وتوجد أطلال خزان مياه قديم تشهد على أن المياه - اللازمة لحياة البشر والحيوانات - كانت متوفرة بكثرة فيما مضى. وفى فصل الشتاء، كان يرد إلى بربرة جمع غفير من الناس سنويا. وللحصول على المياه اللازمة لاستهلاكهم، كانوا يحفرون رمال الشاطئ. لكن هذه المياه كانت شديدة المרהرة والملوحة وغير

صحية بالمرّة. وطوال فترة الصيف، كان ميناء بربرة الجميل يصبح بلا حركة، وكان شاطئه يتحول إلى صحراء خالية هجرها الصيادون، لا توجد به سوى بعض الحيوانات المتوحشة التي تتجول فيه بأمان تام.

وعند اقتراب موسم الأمطار، كانت قبائل صومال هي التي تصل أولاً إلى بربرة وتستقر هناك وتفرض الإتاوات على التجار. وكانت هذه القبائل تخوض فيما بينها صراعات دامية حتى تفوز إحداها - في نهاية الأمر - بجباية الضرائب المفروضة في أثناء موسم الأمطار. وبعد ما تتم تسوية هذه المسألة، كانت تُنصّب الأكواخ فوراً ويبدأ سوق بربرة السنوي (أكتوبر - أبريل).

وقد اكتسب ميناء بربرة سمعة سيئة نتيجة للمجزرة التي تعرّض لها طاقم السفينة "ماري آن" في سنة ١٨٢٥، والهجوم الذي تعرض له بيرتون (Burton) سنة ١٨٥٥ واغتيال مرافقه الملازم سترويان (Strojan). وكان بيرتون هو أول أوروبي يزور هرّر سنة ١٨٥٤ متكرراً في زى عربي.

ثانياً: بربرة وبولهار وزينع أو بلاد ساحل الصومال أثناء الاحتلال المصري (١٨٧٢-١٨٨٤).

انطلقت الحضارة المصرية من بربرة لتغزو مملكة "آدل" القديمة. وكانت بربرة حينذاك عبارة عن مجموعة من الأكواخ. وتمثلت سيادة حكومة الخديوى عليها برسو سفينة حربية هناك في فصل الشتاء لحفظ الأمن العام.

واعتمدت الحكومة المصرية بأن يكون على متن هذه السفينة الحربية مصريون مهتمون بالعلوم، وكانت مهمتهم هي اكتشاف البلاد الواقعة خلف بربرة. واكتشف هؤلاء الضباط منابع غزيرة للمياه العذبة، وأطلال المجرى القديم ورسوم خرائط طبوغرافية لبلاد الداخل؛ ووضعوا تصميمات لبناء مجرى مياه جديد،

وتحسين منابع المياه بشكل دائم، وإقامة مبانٍ نافعة في هذا الميناء (مثل: المخازن والعنابر والطواحين والمخابز والثكنات وفنار وأرصفة إلخ...).

وخلال خمس سنوات فقط - من ١٨٧٢ إلى ١٨٧٧ - تبدّل حال الميناء تمامًا: فتم إنشاء فنار وحاجز للأمواج وعنابر مليئة بالفحم لخدمة السفن التجارية، ومنازل مستوفية للشروط الصحية، وشوارع مستقيمة، وحديقة، ومسجد رائع، وذلك كله يبرهن على رغبة الخديوى الجادة في إقامة منشآت لتدعيم السلام والتقدم مرتبطة بحالة البلاد.

وأصبح الناس يسبّرون في الشوارع بحُرّية، وبدون حمل السلاح وبدون الخوف من أن يغتالهم أحد. وأصبحت الشوارع نظيفة ولا توجد نفايات تقوح منها الروائح الكريهة التي تنتشر الأمراض كما كان يحدث في الماضي. وبدلاً من شرب المياه الفاسدة - التي يشتريها المستهلكون بثمن غال - وصلتهم مياه نقية بوفرة من جبل "دوبار" - على بعد ١٢ كم - بواسطة مواسير من الحديد الزهر موزعة في جميع المناطق.

وكانت المياه الجوفية تتبّع من سلسلة الجبال البحرية وكانت درجة حرارتها مرتفعة جداً، فكان لا بد من تبريدها في خزان قبل تمريرها من السهل الساحلى الى خزانات تبريد في منطقة "شأب" (Schaab) - وهو الاسم الذى أطلقه السكان المحليون على الحى المصرى الذى أصبح هو المدينة الحديثة^(٣) - والقرية التى يسكنها أهالى البلاد. ويوجد - حتى الآن^(٢) - حصن قديم بناه المصريون فى "دوبار" لحماية النبع^(٤).

وإذا مرض أحد المسافرين - أو أحد السكان - كان ينقل إلى مستشفى نظيف حيث يجد الرعاية والدواء الكافيين. وأنشأت الحكومة المصرية مكتباً للبريد حصل على عضوية "اتحاد البريد"^(٥).

[٢] المؤلف يقصد حتى سنة ١٩٣٣ وهى سنة نشر هذا الكتاب [المترجم].

ونجح حاكم بربرة المصرى - خلال بضعة سنوات فقط - فى بناء ميناء رائع يُرى بميناء عدن. وباعتراف الميجور هنتر نفسه - القنصل الإنجليزى فى ساحل الصومال - فقد نفذ الحاكم المصرى فى بربرة "أشغالاُ عمومية ذات طبيعة حيوية تجعل أية إدارة نتية فخرًا بتنفيذها"^(٦)

وقبل احتلال مصر لميناء بربرة، كانت قبائل "إيال أحمد" تأتى إلى المدينة وتسكنها فى فصل الشتاء فقط لأن الرياح الموسمية تسمح بتدفق السفن والقوافل إليها. وكانت هذه القبائل تهجر بربرة طوال السنة أشهر الأخرى مع الحشود التى كانت تتوجه إلى زيلع مع نهاية الشتاء.

وفى الوقت الحالى، أصبحت قبائل "إيال أحمد" تقطن بربرة طوال العام. وبالتأكيد، فإنها ما تزال تعيش فى أكواخ - أو فى منازل من الطين - تُشكّل القرية المحلية. لكن بفضل التأثير النافع للحكومة المصرية هناك، فإن هذه القبائل البدوية المتقلّة - التى كانت تثير الاضطرابات وتتنيب وتسلب - قد تحوّلت ببطء إلى قبائل مستقرة يمكن تحويل أفرادها إلى مواطنين.

وفى سنة ١٨٨١، كتب أحد المراقبين معلقاً: "إن الاحتلال المصرى يهدف إلى تنظيم هذه الأحوال وتثبيت إقامة هؤلاء الرُحّل فى نقطة تكون بها كافة المزايا أكثر من أى خليج آخر على هذا الساحل. وهذا الإجراء فى غاية الذكاء"^(٧). إن توطيّن هؤلاء البدو الرُحّل - وبالتالى إعادة الحياة للحركة الاجتماعية والتجارية للميناء - قد رفع قدر مصر بدرجة عالية جداً فى جميع أرجاء بلاد الصومال.

ومع إن الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين كانوا قد عقدوا العديد من المعاهدات مع بعض شيوخ القبائل - الخاضعين لسيادة الخديوى - قبل وأثناء التوسّع الفعلى لسيادته على سواحل بلاد الصومال (١٨٧٢-١٨٧٤)، ومع إن سيادة الخديوى قد ظلت مجرد سيادة اسمية على مياه الخليج وفى الداخل - بين السهل والجبل - إلا أن اسم "السلطان إسماعين" (كما أسماه العرب) ظل له تأثيره المهيّب فى كل هذه البلاد.

وبتاريخ ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٤، ذكر المقيم الإنجليزي في عدن - الجنرال جيمس بلير - ما يلي: "يجدر بنا القول بأن الصوماليين والدناقل والعرب في خليج عدن يرفعون على سفنهم، وغالبًا على منازلهم أو مقابرهم أعلامًا تركية أو مصرية سواء أكانوا مستقلين أو خاضعين للحماية الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية^(٨)".

وكان المصريون أنفسهم هم أول مَنْ أقاموا مركزًا للحضارة في قلب القارة السوداء - في الخرطوم - حيث لم يكن موجودًا سوى بعض أكواخ الصيادين المتناثرة. والمصريون هم - أيضًا - الذين أنشأوا مدينة بربرة التي ترفع هامتها بفخر فوق ربوة وهي مُحاطة بإطار ساحر يسلب لب كل المسافرين المبهوتين بجمالها، حتى أولئك الذين كانوا يُعارضون - غريزيًا - سيادة مصر على هذه السواحل البعيدة.

وشغل المسيو جابريل فيرران (Gabriel Ferrand) منصب نائب قنصل فرنسا في تلك المنطقة (وهو الآن وزير مُفَوَّض)، وقام آنذاك بزيارة لبربرة - في سنة ١٨٨٣ - وكتب على إثرها الانطباع التالي: "أنشأ عبد الرحمن بك^(٩) مدينة أفريقية صغيرة، مريحة وأنيقة، بعيدة عن القرية التي يقطنها الأهالي. ويُجلب الماء العذب إليها من جبل "دوبار" على بعد ١٢ كم من الساحل.

وتم بناء مبان حكومية (منزل الحاكم، ومخفر للشرطة، وسجن، ومنزل على الطراز الموريسكي - به حديقة داخلية - خصص لاستضافة الزائرين الأجانب). وهذه المباني الحكومية صُمِّمَتْ لتلائم المناخ شديد الحرارة هناك. وبفضل العناية المستمرة، زُرعت مساحات من الخضرة والزهور، وأصبحت الخضروات تُزرع طول العام. وأصبح للميناء - أخيرًا - فنار يرى على بُعد ١٥ ميلًا، ورصيف شحْن يسمح للسفن - ذات الحمولات الكبيرة - بشحن حمولاتها وتفريغها.

"وهذا العمل رائع لا سيما وأن الذى أنجزه هو حاكم شرقي، وأن بربرة أصبحت تملك - حاليًا - أدوات ومواد للإعاشة كثيرة جدًا ولا يمكن مقارنتها - أبدًا - بأى ميناء آخر فى أفريقيا الشرقية ما بين السويس وموزمبيق، أى على ساحل يبلغ طوله حوالى سبعة آلاف كم^(١٠)".

وفى شهر مارس سنة ١٨٨٤، زار أحد الإنجليز - وهو المستر ف. ل. جيمس - المدينة التى كانت ما تزال تحتلها الحامية المصرية، ولكنه - فى أثناء زيارته التالية لها - فى شهر نوفمبر "أدّى التحية للراية البريطانية التى كانت ترفرف على أطلال الإدارة المصرية السيئة". ولكن هذا المؤلف يتناقض مع نفسه^(١١) عندما يعطينا معلومات إيجابية وبناءة عن إدارة بربرة (فى الكتاب نفسه): "إن مدينة بربرة الجديدة نظيفة وأنيقة بشكل ملحوظ. وهى أفضل بكثير من أية مدينة أخرى شيدّها المصريون على ساحل أفريقيا.

"ويغلب على بعض المباني طابع البذخ، لا سيما مسكن الحاكم القديم الذى يتصل - بواسطة شرفة طويلة - بضريح ضخم يأخذ شكل مسجد بُنى لشيخ صومالى عظيم الشأن. ومسكن الحاكم توجد به حديقة غناء ترويبها نافورة مبنية بشكل فني. ولتمويل بناء هذا الضريح، قرّض الحاكم ضريبة على كل جمل يدخل المدينة. واستفاد الحاكم شخصيًا من فرض هذه الضريبة. وتوجد بالمدينة مستشفى ذات حجم معقول، وبعض البيوت المصرية اللطيفة والمريحة.

"وكان المستر ولسن قد استقبلنا على المرسى فى الميناء، وأمر بتنظيف المسكن الذى كان مخصصًا للحاكم، وجهازه لاستقبالنا، ورافقنا فى زيارته. وبدا لنا هذا المسكن وكأنه فيلا من مدينة "بومبي" القديمة؛ فبه فناء واسع، وحديقة، وممر يحيط به ويوصل إلى الغرف المختلفة، وبه حمام واسع فى حالة ممتازة".

وكذلك كان الحال بالنسبة لميناء "بولهار" الذى أدخلت عليه تحسينات أساسية: فبعدما كان يتكوّن من بعض الأكواخ المبنية من الحصير، قامت المدينة الجديدة مكانها عندما جاء الاحتلال المصرى للمناطق الساحلية بعد سنة ١٨٧٠. وبنى المصريون هناك فناءً فوق مقر إقامة الحاكم، وبنوا - أيضا - أربعة مبان

حكومية أهمها مبنى الجمارك الذى يتلقى منتجات المناطق الداخلية المخصصة للتصدير. وكان هناك منزلان خشبيان صغيران يسكنهما موظفو الحكومة. وكان المصريون يُقيمون فى بولهار عندما يكون الجو لطيفاً ويرحلون للإقامة فى بربره فى "بداية فصل" الخريف" الرهيب الذى يغطى البيوت بالرمال^(١٢).

أمّا ميناء "زِيلَع"، فقد كان العكس من الميناءين السابقين لأنه كان يتمتع بقدر من الرخاء - قبل الاحتلال المصرى له - وذلك بفضل وجود السلطة التركية به. لكن أهميته كانت قد تضاءلت نظراً لأنه ظل معزولاً عن البلاد الداخلية، أى بلاد هَرَر، وهى مركز هام لتجارة القوافل الآتية من أقاليم بلاد الحبشة الجنوبية. ولكن احتلال المصريين لهَرَر وضع هذا لهجمات قبائل الصومال على القوافل؛ فانتشر الأمن وعمّ الخير - فى كل مكان - مما أعطى دفعة قوية لانطلاق تجارة "زِيلَع".

ثالثاً: غزو وتنظيم ولاية هَرَر:

بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥، انطلق رعوف باشا من "زِيلَع" لغزو "هَرَر" على رأس حملة تتكون من: خمس سرايا من المشاة المصريين، و ٢٣٦ "باشى بُوزُق"^(١٣)، و ٣٠٠ جمل، ومدفعين للجبال.

واخترق رعوف باشا أراضى قبائل الصومال بسهولة ولم يلاق أية صعوبة حقيقية إلا ابتداءً من "جورجورة" - على حدود قبائل "توليه - جالا" لأن الطريق هناك كان ضيقاً؛ فاستفادت منه قبائل "الجالا" واتخذت مواقعها على المناطق المتحكمة فيه، وناوشت القوات المصرية. ولكن القوات المصرية هزمتها هزيمة مُكررة بعد معركة حاسمة دارت لمدة سبع ساعات على قمة "إيجو".

[٣] "باشى بُوزُق": اسم كان يُطلق على الجنود غير النظاميين فى الجيش العثمانى فى القرن التاسع عشر [المترجم].

وسارع أمير هرر وأرسل وفداً يعلن خضوع هذا الأمير للسيادة المصرية. وبتاريخ ١١ أكتوبر، ارتفعت الراية المصرية على المدينة وسط حماس السكان.

وتقع مدينة هرر على نتوء جبلى يمتد فى البحر، ويوجد خلفها سهل خصب للغاية، وتحيط به تلال منحدره مكسوة باللون الأخضر أو أجام شجيرات البن والقات (وهو نبات مُخَدَّر منتشر هناك) فينكوّن حزام أخضر يحيط بالمدينة.

وانقرض جنس سكان "هرر" الأصليين - "الهراري" - نتيجة لهجمات قبائل "جالا" الحاميو "صومال" السامية التى تُشكّل حوالى ثُلثى سكان المدينة. والسكان كلهم مسلمون ويتبعون المذهب الشافعى (الفارسي)^[٤].

وأعلن أمير هرر السابق - محمد عبد الشكور - ولاءه ظاهرياً للنظام الجديد، ولكنه لم يقبل - واقعياً - ضياع سلطاته، ولم يكف عن تدبير المؤامرات ضد الحكم المصرى فى هرر؛ وبسبب تحريضه، هاجمت القبائل القريبة من المدينة الجيش المصرى بأعداد هائلة (حوالى ٦٠ ألف محارب). ولكن المصريون ردوهم على أعقابهم وطلبوا تعزيزات عسكرية لإعادة هذه القبائل إلى صوابها.

وهذا الوضع له علاقة بوفاة هذا الأمير: فقد اغتاله أحد أفراد قوة "الباشى بوزق" وهو يؤدّى صلاة العشاء بعد وصول المصريين بثمانية أيام. وهذا الاغتيال "لم يكن ضرورياً" - حسبما وصفه جوردون - لكنه كان عادلاً؛ فهو النهاية التى يستحقها طاغية متآمر.

وفى الواقع، فقد كان هذا الأمير مغروراً وهمجياً عانت البلاد من نير حكمه الكريه لمدة عشرين عاماً؛ فلقد حرّم على رعاياه أكل الأرز والتمور بحجة أنها طعام الحكام والملوك الذين يحق لهم - وحدهم - تناول أطعمة لذينة الطعم. كما احتكر تجارة العاج وريش النعام والمسك.

[٤] المذهب الشافعى من المذاهب السنيّة الأربعة، والإمام الشافعى عربى قح وليس له أصول فارسية. كما أن بلاد فارس يتبع أغلب سكانها المذهب الشيعى [المترجم].

أما البن - في هرر - فقد كانت نوعيته تفوق نوعية بن "مخا" (في اليمن)، وكانت شجيراته تنمو بشكل رائع على التلال المحيطة بالمدينة. لكن الأمير منع زراعته إلا في الأراضي المملوكة له وللمقربين منه فقط: فقد كان يريد ألا يزيد الإنتاج لكيلا ينخفض السعر.

ومنع الأمير السكان من تغطية رؤوسهم - لحمايتهم من البرودة أو الحرارة - بوضع أي غطاء للرأس ولو حتى بطرف "التوب". وفرض عقوبات قاسية على المخالفين. كما مارس سلوكيات غير معقولة لكنها حدثت بالفعل: فإذا أراد أن يَبْصُق، كان الحاضرون يتسابقون ليقدموا له أكمام ملابسهم ليبصق فيها!!^(١٣).

لقد بادر رعوف باشا بإلغاء كل الاحتكارات التي كانت موجودة، وكان هذا أول إجراء ضروري لتنمية التجارة والزراعة. وبذل قصارى جهده لإنهاء عمليات السلب والنهب وإراقة الدماء في ولاية هرر بأكملها. وتعامل بشراسة وعنف مع قبائل "جالا": فبعث إليها بحملات حربية وأخضعها بيد من حديد.

أما قبائل "عيسا - صومال"، فقد اتبع رعوف باشا معها سياسة مختلفة كانت جزءاً من خطة الحكومة المصرية: فقد عمل على نشر تعاليم العقيدة الإسلامية الصحيحة لمحاربة المساوئ المنتشرة بينهم، خصوصاً قطع الطريق والقتل اللذان كانت هذه العشائر المسلمة تفتخر بارتكابهما: فأفراد "عيسا" كانوا يستدرجون دائماً جيرانهم ويذبحونهم غداً، إذا واتتهم الفرصة. وفور ارتكاب هذه الجريمة، كانوا يضعون ريشة نعامة بيضاء على رأسهم^(١٤). ويعتبرونها بمثابة وسام يجلب لهم احترام قبيلتهم.

وعرف اللواء رعوف باشا غرائزهم السيئة من تجاربه اليومية معهم، وعبّر لهم علناً - وفي عدة مناسبات - عن رأيه في عمليات الاغتيال التي يرتكبوها: "إنكم تدعون بأنكم مسلمون، ولكن الدين الإسلامي يُجرّم الاغتيال. ضعوا ريشة النعامة البيضاء في شعركم إذا كان ذلك يروق لكم عندما تسلكون سلوك الجنود الشجعان في معركة نظامية؛ ولكن لا تضعوها عندما تلجأون للمكر والخداع لجر عدوكم إلى فخ تنصبوه له وتغتالونه بدون أن يستطيع الدفاع عن نفسه"^(١٥).

وبالإضافة إلى ذلك، عملت الإدارة المصرية على توطيد دعائم الأمن وحماية الأرواح والممتلكات، وتشجيع تجارة القوافل: فشَقَّت طريقاً تسلكه المركبات في "زليغ"، وأقامت مراكز عسكرية على طول الطريق، وزادت من محطات توزيع المياه زيادة كبيرة، ووصلت الطرود بانتظام من أوروبا إلى هَرَر.

وذكر البروفيسير فيليب باوليتشكه: "يرجع الفضل إلى المصريين - وبالتحديد إلى المقدم مختار بك^(٦) - في إنشاء مدينة "جيديسا" الهامة عند النقاء طريقى "هزر" و"شوا" في أرض قبائل "عيسا" و"جادا بورسى".

ويقول المؤلف إن مدينة "جيلديسّا" كانت أصلاً مجرد موقع عسكري (أو محطة للقوافل) أنشأها مختار بك في أثناء الحملة العسكرية الكبرى ضد هرّر لتكون مكاناً تستريح فيه حيوانات النقل ومن يقودون القوافل. ورويدا رويدا، نشأ سوق بجوار هذا الموقع وبدأت قبائل "جالا" ترتاده لتبادل منتجاتها فيه، ثم بدأت تبنى أكواخاً لها هناك؛ وازدادت حركة البناء لدرجة أن المساحة الواسعة - المحصورة بين جبلي جيلديسّا والحافة الشرقية للخور - ازدحمت بالسكان: فسكن "الصومال" في أحد الجوانب وسكن "الجالا" في الجانب الآخر بالقرب من محطة القوافل. وهكذا نشأت مدينة "جيلديسّا" في أرض قبائل "جالا" الذين تقهقروا شيئاً فشيئاً إلى الخلف. وهذه المدينة مدينة بدوية صرفة لا يعمل سكانها إلا بتجارة القوافل^(١٧). ومن الطريف أن كلمة "جيلديسّا" مشتقة من كلمة "ديشالديسّا" أي "القرد" بلغة قبائل الحالا.

ومن المؤكد أن إنشاء محطة عسكرية في "جيدليسا" كان جزءًا من خطة الإصلاحات الشاملة التي وُضعت منذ بداية احتلال رءوف باشا للمنطقة لضمان سلامة وأمن القوافل المتوجهة إلى زيلع، ولتشجيع التجارة. وبتاريخ ٢٧ أبريل سنة ١٨٧٦، رفع رءوف باشا تقريرًا إلى الخديوى ذكر فيه:

١- إن التجار في الصومال كانوا يُمضون - أحياناً - سنة ونصف للوصول إلى زيلع.

٢- وأن هذا التأخير يرجع لعدم وجود مواقع عسكرية على ممر 'جيلديسا' (فى أرض قبائل "عيسا- صومال") وعلى ممر "دارمي" (فى أرض قبائل "جادابورسي").

٣- وأن قبائل "عيسا" تخشى قبائل "توليه- جالا" فهجرت مدينة "جيلديسا".

٤- وطلب - فى النهاية- تعزيزات عسكرية من الخديوى الذى سارع بإرسالها إليه^(١٨).

وأُتاحت هذه المزايا - التى استفادت منها التجارة - لشعب هرر والصومال فرصة لانطلاق عبقريته التى تتجلى فى مجال التجارة على وجه الخصوص: ففى عهد الأمراء البائد، كانت حوالى ٧٠ قافلة تصل إلى ساحل هرر - سنوياً - فارتفع هذا العدد إلى حوالى ٤٠٠ قافلة فى عهد السيادة المصرية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فالحكومة المصرية عملت على تسهيل المبادلات التجارية التى كانت - حتى ذلك التاريخ - تتم بواسطة تبادل السلع، أو باستخدام عملة ضئيلة القيمة كان أمير المنطقة هو الذى يضربها: فأدخل رعوف باشا العملة المصرية هناك، وساعد استخدامها على إعطاء دفعة جديدة قوية أنعشت التجارة.

واعتنى رعوف باشا عناية خاصة بازدهار الزراعة وتربية الحيوانات. وكانت أكبر نسبة من مساحات الأراضى القابلة للزراعة- وأخصبها - قد أهملت بالرغم من وفرة مياه الأمطار وخصوبة الأرض. وهذا الوضع كان يبعث على الرثاء، خصوصاً وأن بعض المناطق - مثل "أرجوبيا" فى الجنوب - تُعتبر من أخصب الأراضى الزراعية فى العالم: فعلم رعوف باشا القبائل مبادئ فن الزراعة، ووزع الأراضى على زعماء هرر وعلى جزء كبير من عائلات قبائل "جالا"، وشجّع الجميع على زراعة شجيرات البُن (الذى أصبح المحصول الرئيسى) وعلى زراعة أنواع جديدة من الأشجار والخضروات.

وشجّع الحاكم المصرى وكبار الموظفين المصريين الصناعة المحلية: فارتدوا جميعاً ملابس مصنوعة محلياً لى يقتدى بهم السكان الأصليون، فارتدوا ملابس مفصلة حسب المقاس بدلاً من "التوب" - المنسوج من الكتان الأبيض - الذى يلتف حول أجسادهم.

وأنشأت الحكومة المصرية مدارس ومحاكم عادلة يتساوى أمامها الجميع: ففى الماضى، كان القضاة يفسرون القرآن تفسيراً مُغرِضاً لإرضاء الأمراء، فوجدوا أن سلطتهم تنقلص أمام مجلس مهمته إصدار أحكام نهائية فى جميع المسائل المدنية (مثلما حدث بالضبط لقضاة بلاد الشام تحت حكم إبراهيم باشا).

وفى الوقت نفسه، وضع رءوف باشا برنامجاً عظيماً للإنشاءات يهدف إلى تجديد مظهر مدينة هرّز وتوفير الرفاهية لها، وهى أساس كل تقدم، وبنى مُجمِعا يضم مختلف الإدارات وعدداً كبيراً من المنازل.

وعامل الحاكم السكان المحليين بإنسانية لدرجة أن الهر باوليتشكه ذكر أن أعيان هرّز كانوا لا يسيرون إليه إلا بذكر كلمة "الأب". وتحت هذه الإدارة الأبوية الحازمة، نعمت هرر بعهد جديد من الحرية والعدالة والرفاهية بدلاً من العهد البائد الذى اتسم بشيوع الفوضى والاضطرابات.

ولكن من المؤسف أن رءوف باشا قد اعتمد - فقط - على الجنود المصريين لتنفيذ الإنجازات المتعددة التى حققها، ولكنه كان مضطراً لذلك: ففرض عليهم أشغالاً قاسية بالسُّخرة لبناء كافة المنشآت. ولذلك، فعندما زار جوردون باشا - الحاكم العام للسودان - هرّز فى سنة ١٨٧٨، اشتكى الجنود المصريون له بأنهم يُستَخدمون بصفاتهم عمالاً يديويين غير مهرة؛ فاستفاد جوردون من هذه الشكوى - ومن ذرائع أخرى - وطلب إقالة رءوف باشا.

ويُعلّق باوليتشكه قائلاً أن رحيل رءوف باشا عن هرر قد وَجَّه ضربة قاصمة أثّرت على رفاهية البلد: فهذا البلد لم يَتَقَمَّ ولم يَدخُل - بحق - فى طريق

الحضارة إلا بفضل إدارة رءوف باشا. ومنذ رحيله، لم يحدث أى تقدم ملموس فى أحوال هذا البلد.

ومن حسن الحظ أن جوردون قضى فى هرر ثلاثة أيام فقط ثم غادرها بعد أن قام بتعيين رضوان باشا فى منصب حاكم هرر، وهو الذى جَدَّد ميناء بربرة. واستكمل رضوان باشا الإنشاءات والأعمال التى كان سلفه قد بدأها، وبذل جهداً كبيراً لمنع شراب "البوطة"، ونوعاً آخر من الخمر يصنع من الموز، وشراب يُصنع من نبات القات، وكل المشروبات التى تُدَمَّر الجهاز العصبى للإنسان^(١٩).

وكانت مدينة هرر تفتقر لمياه الشرب، ففكر رضوان باشا فى تزويدها بالماء العذب ببناء مجرى للمياه، كما سبق له وأن فعل فى بربرة: فأخذ الماء من نبع غزير يقع فى أطراف المدينة ووزعه بواسطة قنوات مُصممة بطريقة علمية.

وفى شهر يونيو سنة ١٨٨٠، تولى محمد نادى باشا منصب حاكم هرر بدلاً من رضوان باشا. وكان محمد نادى باشا حاكماً ممتازاً ولكن قسوته - وبعض تصرفاته الغريبة - جعلته يتباعد عن الضباط الكبار الذين تصاهروا مع أعيان المدينة. وفى شهر نوفمبر سنة ١٨٨١، وقعت مشادة حادة بينه وبين سليم بك عوثى قائد الحامية؛ فقام الحاكم بإقالته من منصبه وعيّن مكانه أحمد وعدى قائداً لهيئة الأركان.

وكتب المسيو فيرران قائلاً: "على الرغم من أن نادى باشا مصري، إلا أن لديه قدرًا من المبادرة"^(٢٠)، فضلاً عن أن الكولونيل أحمد بك وعدى نائب الحاكم وقائد الحامية كان يعاونه^(٢١). "وبفضل ذكاء ونشاط نائب الحاكم، اعترفت قبائل مهمة جديدة بخضوعها لسيادة الخديوى عليها.

[٥] يجب علينا ملاحظة لهجة الاستعلاء المتغلطسة التى ينظر بها هذا الأوروبي إلى غيره: "قالحاكم كفاء مع أنه مصري". ويتوهم الأوروبيون عادة أن الصفات الإيجابية حكر عليهم، مع احتمال وجود بعضها - بدرجات متفاوتة - لدى غيرهم [المترجم].

وأخضع محمد نادى باشا بلاد قبائل " إيتو - جالا " (تقع بين "هرر" و"شوا") وبلاد قبائل "جيرري- صومال" و"بارتيرري". ومع ذلك، ففي أثناء سفر الحاكم لقضاء إجازته، وبينما كان أحمد بك وعدى يحارب قبائل "جيرري" ليعيدها إلى جادة الصواب، هاجمت قبائل "بارتيرري" القوافل المتوجهة إلى هرر - لحضور احتفالات سوق "بولهار" - وذبحت عددًا من الأفراد؛ فأسرع أحمد بك واستولى على آبار هذه القبائل الشرسة، واستطاع إخضاعهم بمنع الماء عنهم وبمحاصرتهم بين قواته ومحاربي أعدائهم من قبيلتي "جورجورا" و"آرتي".

ومن الجدير بالذكر هنا أن محمد نادى باشا شجّع الأوروبيين، وعاون "البعثة التبشيرية" الكاثوليكية على ممارسة شعائرها الدينية بحرية في مدينة هرر، لدرجة أنه سمح لها بدق أجراسها، فأعطى - بذلك - مثلاً جيذاً للتسامح^(٢١).

وكان المستكشف الإيطالى أنطونيو تشيكى (Antonio Cecchi) قد أقام مدة زمنية قصيرة في هرر - فى عهد نادى باشا (١٨٨١) - فتحدث عن انطباعه بأن الوضع المادى للمدينة يتطابق مع الوضع الروحى لأهاليها: "إن المصريين يعطون - بحق - انطباعاً بأنهم ناشرو الحضارة؛ فهم يعلمون الأطفال قراءة وكتابة اللغة العربية، ويُعلِّمون البالغين الصلاة والشريعة الإسلامية.

"وبالإضافة إلى ذلك، فالمرء لا يعرف كيف يمدح الطريقة التى يحفظ المصريون بها الأمن العام فى المدينة وضواحيها. وقوة الشرطة تتكون من مجموعة من رجال الدرك الأتراك، تعاونها مجموعة أخرى من الخفر المحليين. وهناك تحسن ملحوظ استجدّ فى مجال القضاء: فالأحكام أصبحت ناجزة ومنصفة للجميع، على عكس ما كان الحال عليه فى عهد الأمراء السابقين^(٢٢)".

ثم تولى على رضا باشا منصب الحاكم خلفاً لمحمد نادى باشا بدءاً من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٢. ويرجع الفضل إلى على رضا باشا فى محاربة سطوة الأفراد الذين يُسمون بـ "رجال الطب" أو "أطباء المعجزات": فحرق كُتُب الطلاس

والسحر التى كانوا يستخدمونها، وأفسد أدويتهم التى كانوا يبيعونها للسكان المحليين، وكانت تلك الأدوية تسبب الكثير من الأضرار لمن يتعاطونها على أنها لقاحات ضد الأمراض^(٢٣).

رابعاً: التقييم العام لنتائج الاحتلال المصري:

استطاع الحكم المصرى تنفيذ لب خطته فى "هرر" وذلك خلال تسع سنوات - فقط - قضاها هناك، خصوصاً فى السنوات الأربع الأولى (من ١٨٧٥ حتى ١٨٧٩)، واستطاع - أيضاً - تنفيذ الجزء الرئيسى فى "بربرة" (من ١٨٧٢ حتى ١٨٧٧).

وأحرزت الإدارة المصرية نتائج رائعة فى هذه المنطقة البعيدة: فموقع هذه المنطقة - فى الطرف الجنوبي/ الشرقى للإمبراطورية المصرية - كان له الفضل فى إبعادها عن:

- ١- التأثير الضار الناتج عن إدارة بيكر وجوردون فى السودان.
- ٢- والتأثير الضار الذى تسبب فيه "نظام الامتيازات الأجنبية" الفاسد الذى فرضته أوروبا على "القاهرة".

إن النتائج الرائعة للاحتلال المصرى - فى هذه المناطق - تجعل مصر تشعر بالفخر وتنبه زهواً.

أولاً: فى مجال الزراعة:

نجحت الزراعة فى بلاد قبائل "جالا" نجاحاً غير معقول: فزُرعت مساحات شاسعة من شجيرات البن وازدهرت فى أراض لم تكن تزرع من قبل. وبما أن المصريين فلاحون بالفطرة وبُسْتانيون ممتازون، فقد أدخلوا هناك زراعة الكروم،

وأشجار اللوز والخوخ والليمون والبرتقال والمشمش، وجميع أنواع الحبوب والخضروات التى تنمو فى دلتا مصر كالقمح والبرسيم وقصب السكر والبطاطس والقرع والبنجر والشمام والبطيخ والخيار، إلخ إلخ ...

وكانت بعض أشجار الفواكه المذكورة سلفاً معروفة إلى حد ما فى "هرر"، لكن أنواعها كانت نادرة للغاية. وعندما وصل المصريون إلى تلك البلاد، لم يكن بها سوى ١٤ عريشة كَرْم فقط، ولم تكن تعرف من الخضروات سوى البطاطس التى كانت تنمو متناثرة هنا وهناك ويبدو أن السكان لم يعرفوا ماذا يفعلون بها.

ثانيًا: فى مجال التجارة:

حدثت انطلاقة هائلة فى مجال التجارة - بالضبط مثلما حدث فى مجال الزراعة - فى جميع أرجاء إمبراطورية "آديل" القديمة بفضل:

- ١- ظهور منتجات جديدة فى الأسواق.
- ٢- استتباب الأمن فى طرق القوافل.
- ٣- إعادة بناء مدينتى "هَرَر" و"بربرة"، وإنشاء مدينة "جبلديس".
- ٤- وصول التجار الهنود واليونانيين والإيطاليين إلى هناك.
- ٥- مجيء الحرفيين الأوروبيين (مثل: الخبازين والسروجيين).
- ٦- توطين العناصر البدوية الرُّحْل بداخل المدن.
- ٧- تطوير تربية الحيوانات.
- ٨- زيادة تجارة جلود الحيوانات سنة بعد أخرى.
- ٩- وأخيرًا، بفضل إدخال "القرش" المصرى الذى أزاح العملة ذات القيمة البهيسة التى كان يضربها الأمراء السابقون.

ثالثاً: فى مجال الحضارة:

قال الهر باوليتشكه: "نتج عن هذا التوسع السريع - فى التجارة والزراعة - تقدّم الحضارة فى مناطق كثيرة من أراضى قبائل "جالا"، خصوصاً بين القبائل التى خضعت - راضية - لسيادة الخديوى عليها^(٢٤)".

ولإضافة المزيد من المعلومات عن هذا الحدث الرئيسى، علينا أن نذكر أن امتداد السيادة المصرية قد ازداد نجاحاً وتقدماً باستمرار سنة بعد أخرى. ففى بداية الاحتلال المصرى لتلك المناطق، كانت سيادة الخديوى مُعترف بها - فقط - فى ساحل بلاد الصومال وعلى حدود إمارة هرّر. ويُحدّد رءوف باشا حدود هذه الإمارة بأنها: تنحصر ما بين جالديسّا (من جهة الساحل)، ونهر "أواش" (فى الشمال/ الغربى)، وقبيلة "أوجادين" (فى الجنوب/ الشرقى)، ومنطقة "أروسي" (فى الجنوب)^(٢٥).

ورويذا رويذا، ازدادت الهيمنة المصرية، فعُبرت هذه الحدود الضيقة، لدرجة أن عدد أفراد القبائل الخاضعة للنفوذ المصرى - فى سنة ١٨٨٣ - قد بلغ مليوناً ونصف المليون نسمة^(٢٦) - وهو رقم هائل - منهم جزء كبير من قبائل "جالا" التى اعتنقت الدين الإسلامى.

وقام القاصد الرسولى^[٦] فى بلاد "جالا" - المونسنيور "تورين كاهاني" (Taurin Cahagne) - برحلة حول هرّر فى سنة ١٨٨١ ولاحظ - فى كل مكان - وجود زراعات لشجيرات البن والموز "وكلها مزروعة منذ بضع سنوات فقط".

وكتب هذا المُبشّر عن انتشار وعمق النفوذ المصرى بين قبائل "جالا" فذكر: "قبل الاحتلال المصرى، كانت قبائل "جالا" تعترف لأمير هرّر بسيادة إسمية عليها.

[٦] "القاصد (أو "المبعوث") الرسولى": (Vicaire apostolique) أسقف كاثولى مختص بإدارة الأراضى الواقعة تحت سلطة "الكفار" أو "الهرطقة" [المترجم].

ولكنها كانت تحكم نفسها بنفسها حسب تقاليد وعادات أسلافها التي تبدلت قليلا في المناطق التي دخلها "المحمديون"^[٧].

"وكان لكل قسم من أقسام القبيلة^[٨] - مثل قبيلتي "تونو" و"آلا" - حاكم (نصف وراثي، ونصف مُنتخب) يحكم مدة ثماني سنوات ويحمل لقب "بوكو" ... ويليه من يحمل لقب "دوري" وهو أيضا يشغل منصبه لمدة ثمان سنوات وسلطاته محدودة للغاية. وبعد "دوري" يأتي "رابا" ويكلف بأداء بعض المهام ضئيلة الأهمية. وحرص المصريون على تدمير هذه العادات والتقاليد المحلية الموروثة لكي تندمج هذه القبائل معهم فيستوعبونها تمامًا.

"قضى القبائل التي خضعت للنفوذ المصري، اختفى ألب "بوكو" ومنع من تولّى أى منصب وأصبح فقيرًا ذليلاً، وجاء مكانه موظف - أصله غالبًا من أهالي هرر - يظهر عند جباية الضرائب ويخدم ما يبدو أنه العدالة. أمّا ألب "دوري" فقد حل محله ألب "جيراد" وهو - غالبًا - المالك الكبير السابق الذي تتوحد مصالحه مع مصالح أصحاب الإقطاعية، وهو المسئول عن الضرائب... ويضع فوق رأسه عمامة تدل على مكانته ورفعة شأنه. ومن هنا، جاء التعبيران الشائعان لدى الأهالي: "إن الباشا لف الحزام حول رأسه" ("ساباتا ماريه")، و"الباشا خلّع عنه الحزام" ("ساباتا نيكيه") ويقصدون به تعيين "الجيراد" في وظيفته أو عزله عنها^(٢٧).

ومع ذلك، فمن الواضح أن كاهاني لم يستسغ الشق الديني في التوسع المصري لأنه علّق عليه بقوله: "إن هذا التغيير العنيف غريب على العادات المحلية (كذا !!!) وهو أشد ما يُوقف تقدّم السيادة المصرية في تلك الأنحاء". وكان هذا المبشر الفرنسي قد ذكر في بداية مقاله ما يلي: "يوم ٢٥ أكتوبر، سافرنا في ساعة

[٧] المبشر يقصد "المسلمون" [المترجم].

[٨] لعله يقصد الحديث عن "العشائر" [المترجم].

مبكرة من الصباح، وكُنَّا نسمع الأطفال الصغار وهم يرتلون القرآن. وفي الواقع، فإن هذا التعليم منتشر تمامًا في جميع أنحاء هرَّز، كما أن الاحتلال المصري يُشجعه ويُمنِّيه مع إن قبائل "جالا" تتفرَّ منه".

ولكن، على العكس مما ذكره هذا المبعث، فإن قبائل "جالا" لم تتفرَّ أبدًا من هذا التعليم، بل إنها اعتنقت الدين الإسلامي بدون أى إكراه. لقد قدَّم الإسلام لهذه القبائل الهمجية قيمًا أخلاقية راقية وانتشر بينهم بسرعة لدرجة أن الإنجليز أبدوا قلقهم من سرعة هذا الانتشار: فقد كان الميجور هفتر يُقيم في عدن لمراقبة انسحاب القوات المصرية من هذه المناطق. وبتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٨٨٤، كتب ما يلي: "لو كان هذا النظام الحالي قد استمر لبضعة سنوات أخرى، فمن المحتمل أن كل القبائل كانت ستعتنق دين الرسول [محمد ﷺ]"^(٢٨).

وهذا الحدث الرئيسى كان وقوعه مُنتظرًا لأنه يُواكب تقدُّم وانتشار السيادة المصرية ومدتها الزمنية في تلك الأرجاء. وكان من المحتم أن يحدث تأثيرًا حاسمًا ليس فقط على مستقبل هرَّز (فقد حوَّل سكانها المنقسمين دائمًا إلى شعب متجانس ومُسيَّس إلى حد ما) بل إنه يتجاوزها ليصل إلى مناطق: "شوا" و"كافا" و"جالا" - وكلها مناطق شاسعة وغنية - فيؤثر فيها.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن أحد المراقبين الإيطاليين كان قد أقام في هرَّز - في أثناء الحكم المصرى - وأبدى رأيًا صائبًا أيَّته الوثائق المصرية بوضوح. هذا الرأى مفاده: أن الخطة المصرية - فى سنة ١٨٧٥ - كانت تهدف إلى ترك رعوف باشا يزحف بقواته من "زيلع" إلى "هرَّز"، ومنها إلى بلاد قبائل "إيتو - جالا" ثم إلى "كافا". وفى تلك الأثناء، يقوم "مونزينجر" (Munzinger) بغزو الشمال لاحتلال مملكة "شوا".

ولكن هزيمة "مونزينجر"، واضطراره للانسحاب من "برافا"، والتهديدات الإنجليزية بخصوص حقوق زنزيبار، والوضع المالى السيئ فى مصر كانت كلها

عوامل كُبحَت روح الغزو وحميته لدى القاهرة: فأصدرت أمرًا لرءوف باشا بالتوقف عند هَرَر^(٢٦). ولم تَسْتَطِع مصر - فى سنة ١٨٧٥ - غزو تلك الأراضى بالقوة، فَسَعَت لغزوها عن طريق التَغْلغل الدينى والتجاري.

ومن المؤكد أن تدعيم السيادة المصرية على هذه المناطق الشاسعة لم يؤد إلى تكوين إمبراطورية هائلة فى أواسط أفريقيا لأن أوروبا كانت تطمع فيها.

وذكر الهر باوليتشكه نتيجة أخرى نَحَقَّت بفضل انتشار السيادة المصرية فى تلك المناطق: "وهناك شرف عظيم آخر يُضاف إلى سجل الإدارة المصرية، ألا وهو: إلغاء النخاسة (تجارة العبيد) التى كان الأمراء يُشجعونها. وبالنسبة لمن يعرفون دقائق السياسة التجارية، فإنهم يلاحظون أن الزيادة فى فرع ما تؤدى إلى النقص فى فرع آخر، والعكس صحيح. لقد تَجَلَّت هذه المعادلة فى هَرَر: فعندما انخفضت تجارة الصمغ والعاج - بشكل ملحوظ - زادت تجارة البُن والقطن بنسب هائلة^(٢٧)".

لقد كانت توجد علاقة وثيقة - ومعروفة - بين تجارة العبيد وتجارة العاج: فعندما كان المهريون وزعماء العصابات لا يجدون كمية كافية من العاج - فى أثناء حملات الصيد - كانوا يهاجمون القُرى ويخطفون سكانها؛ وكان العبيد يكوّنون جزءًا هامًا من بضائع القوافل المتوجهة إلى الخرطوم أو إلى أية مدينة أخرى فى الداخل أو على الساحل. وكان العبد - فى القرن التاسع عشر - ملكية مقدسة لسيدة لا يجب المساس بها، بالضبط كما كان الحال عليه فى العصر الرومانى. وكان نمو التجارة وتَطَوُّر الحضارة هما السبيل الوحيد الذى يُؤدَّى إلى القضاء التدريجى على النخاسة.

وبرهن نجاح التجربة المصرية - فى هرر - على صواب هذا الرأى. أمّا التجربة الإنجليزية - أو بالأحرى النظام الإنجليزى - فقد اعتمد على استخدام العنف فى منطقة البحر الأحمر والسودان لاقتلاع جذور هذه التجارة البالغة القَدَم:

فأصدر القرارات واستُخدِمَ البندقية ففشل فشلاً ذريعاً. وبينما كان الاضطراب الاجتماعي يتزايد أكثر فأكثر في ربوع السودان بسبب سوء الإدارة العسكرية - التي اتبعتها بيكر وجوردون - كانت هَرَرُ بمنأى عن ذلك كله.

لقد نَعِمَتْ هَرَرُ بعهد جديد تحت الإدارة المصرية بفضل:

- ١- إنشاء مراكز حضارية.
- ٢- إنشاء إدارة منظمة تنظيماً جيداً ليا: ميزانيتها وجماركها وشرطتها وجيشها؛ إلخ... إلخ.
- ٣- إظهار وتسجيل حالات الزواج كلها، وتسجيل كافة الممتلكات العقارية من منازل وأفنية وحدائق.
- ٤- اهتمام الإدارة المصرية بتنظيم الخدمات الصحية: فأنشأت مستشفى كبير أمام "باب الترك"^(٣١)، وأصدرت أوامر مُشدَّدة بعدم خروج أية جثة من أبواب المدينة إلا بعد إذن السلطات.
- ٥- اتخاذ إجراءات لمنع انتشار عمليات التلقيح الذي كان يجتاح هَرَرُ في عهد الأمراء وكان بمثابة شرٍ خطير.
- إن كل ما ذكرناه لهو عمل مصري خالص يسجله التاريخ بصفته من أفضل أمجاد إسماعيل ومصر الحديثة.
- وكذلك، فإن الضباط المصريين قد رسموا خريطة لهذه البلاد، وأدار الضابط النابه والنشط محمد مختار العمليات الجغرافية في تلك المنطقة مما أدى للنتائج التالية:

- ١- تحديد مواقع عدة نقاط تحديداً فلكياً.
- ٢- تحديد خطوط سير الحملات.
- ٣- وضع مخطط لمدينة هَرَرُ بمعاونة الضباطين: مختار وفوزي^(٣٢).

٤- كتب الضابط مختار وصفاً لبلاد صومال وقبائلها ^(٣٣).

٥- كتابة تقرير عن أمراء هرر.

٦- وأخيراً، تم تكوين مجموعات إثنوجرافية ذات قيمة علمية هائلة.

وفي أثناء فترة الاحتلال المصري لهرر، توفي "مونزنجر" في ظروف مؤلمة (سنة ١٨٧٦) على ضفاف بحيرة "أوسا" بين "زِيلَع" و"شوا". وخلال تلك الكارثة الدامية، رسم الكابتن ^(١) عبد الكريم عزت - بشجاعة - خط سير الحملة ^(٣٤). وتم الحصول على المعلومات والمواد اللازمة لهذين العاملين الأخيرين (المجموعات الإثنوجرافية ورسم خط سير الحملة) بفضل الغارات التي شنتها قوة "الباشي بُوزُق" التي لم تكن لها أية فائدة إلا عند رسم خرائط هرر ^(٣٥).

وبينما كانت مصر تستكمل هذا الإنجاز الحضاري الرائع في سنة ١٨٨٤، صدر أمر حاسم من حكومة الهند البريطانية بانسحاب القوات المصرية من تلك المنطقة فكان له وقع الصاعقة في "هرر" فلقد كانت الجالية المصرية هناك يبلغ عدد أفرادها ١٤ ألف و ٥٠٠ فرداً - مابين مدني وعسكري - وكان عدد كبير منهم قد صاهروا أهالي البلد، وامتلكوا عقارات لا تعد، وأنفقوا مدخراتهم في بناء منازل أمرتهم الحكومة ببنائها - لكي يكونوا قُدوة للسكان - واضطر جميع المصريين لبيع ممتلكاتهم كلها بالمزاد، وخرجوا من هرر كما خرج العرب من أسبانيا.

وكانت "هيئة أركان الحرب" المصرية تتكون من الضابطين: مختار وفوزي. ومنذ بداية الاحتلال المصري لتلك المناطق، استطاعت الهيئة تحقيق رغبة مصر - في عهد إسماعيل - في تشكيل حكومة واحدة من البحر المتوسط حتى خط الاستواء ^(٣٦)، وأن تصل مملكة هرر إلى أعلى درجات الرفاهية والتقدم - في الشرق - بعد مصر ^(٣٧).

[٩] "كابتن (Capitaine)" تعادل رتبة "نقيب" [الترجم].

ولكن إنجلترا و دول أوروبا لم يكونوا ليسمحوا بتشجيع مثل هذه السياسة - أو السماح بها أصلاً - لفترة طويلة: فكان يجب على مصر أن تترك هذا النموذج الأفريقي، وتتخلى عن كل تطلعاتها للعظمة والقوة حتى ولو كانت محصورة في الحدود الضيقة التي فرضتها المعاهدات عليها.

وعلق روبيكى بريكىتي (Robecchi Bricchetti) على هذا الوضع قائلاً: "ومهما كانت النتيجة، فإن الاحتلال المصرى أتاح لأول شعاع من العصر الذهبى أن يشرق على هرر: فالبلد بدأ يخرج من سباته العميق ويحيا حياة جديدة، وبدأ الأهالى يزرعون حقولهم، وظهرت زراعات الفواكه وحقول القمح فى الأودية الوعرة"^(٣٨).

وعلق مراقب مطلع آخر قائلاً: "يجب أن نعتبر الاحتلال المصرى من أهم الأحداث التى أثرت على مصير هرر: ففي بلد على هذا القدر من الهمجية، أدخلت ثقافة شرقية، وبُعِثَت التجارة من جديد، واستتب الأمن على الطرق. باختصار، لقد حدث تحول جذرى لصالح البلاد. إن مَنْ يعرف بلاد الشرق - خصوصاً أقطار أفريقيا المحرومة من أية ثقافة - سيوافقنى على أن الحضارة المصرية تمثل درجة عالية من الثقافة بوجه عام.

"ويهمنى - أيضاً- أن أؤكد على أن احتلال المصريين لهرر وزيلع وبولهار وبربرة، والساحل كله حتى "رأس جوار دافوي"، يجب تقييمه - إجمالاً- على أن تأثيره كان تأثيراً ثورياً لا مثيل له، ليس على هرر وحدها بل على كل منطقة شمال/ شرق أفريقيا: فلم يسبق لأى احتلال عسكرى فى أفريقيا أن أدى لمثل هذه النتائج"^(٣٩).

وبالتأكيد، فقد كانت مصر - ومصر فقط- هى التى تستطيع نقل حضارة حقيقية لسكان هرر وبلاد الصومال، وتكون هذه الحضارة متقدمة عن حضارتهم الموروثة (غير قشور تلك الحضارة التى تغطى سلوكياتهم ظاهرياً)، ولم تكن

الحبشة الهمجية ولا أية قوة أوروبية تقدر على فعل ما فعلته مصر. وبعبارة أخرى فقد كانت هذه الحضارة الأرقى - التي نقلتها مصر - لها جذور ترتكز عليها في المنطقة نفسها: لغتها ودينها وتعلّق السكان الطبيعي والتلقائي بها. وبالتالي، فإن هذه الحضارة ستؤدي إلى حدوث تطور عميق وسريع في المجال الروحي والمادي على حد سواء.

ولكن ما يبعث على العزاء - حقاً - هو أن مصر في تلك البقعة الأفريقية الجميلة - كانت متحررة من كل القيود الأوروبية وغيرها، فاستطاعت إظهار مدى عبقريتها وأدت مهمتها الحضارية في القارة السوداء بكفاءة تفوق ما كان متوقعاً منها.

* * *

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) مقال E. Littmann عن "هَرَر" في: Encyclopedie de l' Islam

(2) Cap. Sir Richard F. Burton: "First footsteps in East Africa or an Exploration of Harrar". London, 1856. 2 Vols.

(٣) اعتمد E. Littmann فى المرجع السابق على ما زعمه اللورد كرومر - والعديد من المؤلفين الإنجليز - أن المدينة الحديثة قد احترقت بالكامل - تقريباً - فى سنة ١٨٨٨م. ولكن فى الحقيقة، فإن القرية القديمة التى يقطنها السكان المحليون كانت هى التى احترقت - عَرَضاً - فى شهر يونيو سنة ١٨٨٨ ثم أعيد بناؤها. أمّا "المدينة الأوروبية" - التى يُطلق عليها اسم "Schaab" فهى نفسها "المدينة المصرية" (راجع التعليمات البحرية الخاصة بالبحر الأحمر فى كتاب:

"Red Sea and Gulf Aden. Pilot", 7th edition 1921.

(4) Ralph E. Drake - Brockman: "British Somaliland", London, 1912.

(٥) المحفوظات المصرية. قصر عابدين. القاهرة: مذكرات بعنوان "مذكرة" حررتها هيئة أركان الحرب المصرية بتاريخ ١٠ يونيو سنة ١٨٧٧م.

(٦) مذكرة من الميجور / هنتر (Hunter) إلى الكونت كيمبرلى (Kimberley) بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٨٤م.

(7) T. Cahagne: "Les Missions Catholiques", No. 621, 29 avril 1881.

رسالة بعنوان: "La Mission de Berbera" من عدن بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٨٨١.

(8) Archives anglaises. F O. 72. Vol 3857

من جيمس بلير (James Blair) إلى المستر بارنج. عدن، بتاريخ ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٤م.

(٩) ما ذكره المسيو فيرران خطأ لأن صاحب فكرة إعادة بناء المدينة هو الحاكم السابق - رضوان باشا - وليس عبد الرحمن بك.

(10) Gabrial Ferrand: "Les Somalis". Paris, 1903 (Pp. 111- 112).

(11) F.L. James "The Unknown Horn of Africa. Anexploration from Berbera to Leopld River", London. 1888 (Pp. 10. 22 -23).

(12) R.E. Drake - Brockman, Ibid.

(١٣) محمد مختار: "مذكرات عن بلاد هرر" (مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية. القاهرة. سنة ١٨٧٦).

(١٤) لاحظ الضابط الإنجليزي كروتندن (Cruttenden) في سنة ١٨٤٨ هذه العادة نفسها لدى قبيلة "حبر - أويل" (Haber-Aouel): "إنهم يرتدون "الريش" - أو ريش النعام" - عند قتل عدو لهم مع إنهم يتحدثون برعب عن العادة الموجودة عند قبائل "العيسا"، أى أن "العيسا" يخصون أعدائهم بعد الموت وأحياناً قبله" (مذكرة كتبت في سنة ١٨٤٨ ونشرت في:

"TheJournal of the Royal Geographical Society of London," Vol. xix. 1849, part I.

(١٥) محمد مختار، المرجع نفسه.

(16) P. Politschke "Le Harrar sous, l'administration égyptienne (1875- 1885)". (Bull. Soc. de Geog. Le Caire, Serie II, No 10. mars 1887.

(17) P. Politschke "Harrar Forschungsreise nach den Somal und Gala Landern. Ost Afrikas". Leipzig. 1888.

(١٨) المحفوظات المصرية. قصر عابدين. تقرير محمد رءوف باشا بتاريخ ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٩٣هـ (٢٧ أبريل سنة ١٨٦٧م).

(١٩) شجيرة "القات" تنتشر في جميع حدائق "هرر" كما هو الحال في اليمن، ويمضغ السكان أوراقها الغضة التي تُسبب لهم نوعاً من السُّطل. والاستخدام المفرط لهذا المخدر يُسبب مرضاً يصيب القلب وهو منتشر جداً في هرر. وفي تقرير بتاريخ ٤ صفر سنة ١٢٩٣هـ. (٢٩ فبراير سنة ١٨٧٦م)، أبلغت هيئة أركان الحرب الخديوى بأنها أرسلت عينة من هذا النبات ليُحلّله الكيميائيون لأنها لاحظت أن للقات خواص طبية.

وفي سنة ١٩١٠، حلّلت مجموعة من الصيادلة - في مدينة ليون - عشرة كيلوجرامات من أوراق "القات": "فوجدت أن النبات يحتوى على مادتي "الكوكا" و"الكافيين" وعنصر خاص نشط له خواص مادة "الكافيين" نفسها (ولكنه يعمل على تحييد نتائجها الضارة). وهذا ما يجعل القات مفيداً للغاية في بعض الحالات، خصوصاً للأمراض العصبية التي تُصيب بعض السيدات لأنه يزيد من احتمال الجسم لمادة الكافيين. ولهذا السبب، قام الصيادلة المختصون بتركيب أقراص بها خلاصة القات وأسموها: "Néo. tonique abyssin".

R.P. Azais et R. Chambard: "Cinq années de recherches archéologiques en Ethiopie. Province. de Harrar et Ethiopie Méridionale." Paris, Geuthner, 1931, 2 Vols.

(20) Gabriel Ferrand "Notes sur la situation politique, commerciale et religieuse du Pachalik de Harrar" (Bull. Soc. de Geo. de l' Est. Nancy, 1886).

(٢١) في شهر مارس سنة ١٨٨١، أنشئت في "بربرة" أول إرسالية تبشيرية كاثوليكية على شاطئ أفريقيا. واستقبل الحاكم المصري لبربرة - عبد الرحمن

بك - بحفاوة شديدة الأب "كاهاني" (Cahagne) وأرسل الحاكم ابنه الصغير لهذه البعثة لكي يتعلم اللغة الفرنسية ثم تبعه أطفال آخرون... وبعد إنشاء هذه الإرسالية الأولى، توجّه الأب "كاهاني" إلى زيلع وهرّر - في قلب بلاد "الجالا" - وهناك، قدّمت له السلطات المصرية كل العون لدرجة أنها وفّرت حراسة مسلحة لحماية البعثات التبشيرية والسماح لها بـ "التقاط بعض الأرواح في هذا الحقل المهجور منذ قرون".

ولتقدير مدى أهمية الحماية التي أسبغتها مصر على هذا العمل المسيحي والحضاري [!!! المترجم] سنورد فيما يلي ما ذكره "كاهاني" - أسقف بلاد "الجالا": "في الماضي، كان مبشرونافي زيلع يعانون من أن السلطات المحلية كانت تفرض التأخير عليهم لفترات طويلة أو ترفض طلباتهم بشكل فوري: ففي سنة ١٨٧٠، اضطر الأب لويس دي جوازاج - وبرفقته عشرة من الشباب - للعودة إلى عدن بعدما انتظروا عدة أيام بلا جدوى. أمّا القسيسين: جان داماسين وأليكسيس فقد أنهكت قواهما على هذا الساحل الذي تحرقه الشمس. وبعد شهور طوال، استطاعا المسير وماتا من التعب والحمى في "صحراء الدناقل". واضطر الأب إدمون والأب فرنسوا اكزافييه للعودة إلى عدن بعد انتظار طويل. وأراد الله أن يرحمنا من هذا العذاب كله: فقد أصنّر صاحب السمو الخديوى توصياته بشأنى إلى السلطات المصرية الحاكمة في زيلع وهرّر".

("Les Missions Catholiques," No. 630, 1er juillet 1881).

(22) Antoino Cecchi: "Spedizione Italiana Nell'Africa Equatoriale. Da Zeila alle frontiere del Caffa (1886 - 1887)", 3 Vols.

(٢٣) حارب الحكام المصريون انتشار الخرافات في كل منطقة أفريقيا الشرقية التي خضعت لسلطتهم؛ وفي الوقت نفسه، استكملوا عملية الإصلاح. والحالة التالية ذكرها جابريل فيرران: "بالقرب من الينابيع التي تمتد بربرة بالمياه، توجد شجرة تقدسها قبيلة "حبر - أويل" وتحتفل بها احتفالاً فريداً من نوعه:

فعندما يتم تعيين "أوجاز" جديد، يذهب هذا الزعيم إلى جوار هذه الشجرة ومعه كل محاربي قبيلته، ويقوم هناك لمدة ثمانية أيام يقضيها في الصلاة. وفي صباح اليوم التاسع، يؤدي صلاة أخيرة لسيد العالم ثم يُصَوَّب رمحه إلى جذع الشجرة المقدسة. وطوال حياة هذا "الأوجاز"، تشن القبيلة غزواتها في الاتجاه الذي حدده رُمح الزعيم. وحاول عبد الرحمن بك إلغاء هذه العادة الهمجية: فصب مُسماراً ضخماً وعرزه في جذع الشجرة. ولم تستطع قبيلة "خَبَر - أوِيل" نزعها. فادَّعت بعد ذلك بأن جنى شرير يعمل على إفشال كل غزواتهم. وهذه "الغزوات" - التي يتحدثون عنها - لا تعنى سوى نهب وسلب القبائل المجاورة. وأُضغِتْ العقليّة الخرافية (التي يتصف بها أفراد قبيلة "خَبَر - أوِيل") على هذا المسمار قوى سحرية مضادة لمشاريعهم؛ فعندما أصبحت حصيلة غزواتهم سلبية أو غير مُجدية، انخفض عدد غزواتهم لجيرانهم". (Les Somalis, Paris, 1903, P. 111)

(24) P. Paulitschke, Ibid.

(٢٥) المحفوظات المصرية، قصر عابدين - تقرير من رءوف باشا بتاريخ ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣هـ (٢٧ أبريل سنة ١٨٧٦م).

(٢٦) المصدر نفسه، تقرير من محمد نادى باشا بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٨٨٣م.

(27) T. Cahagne "Missions Catholiques," No. 678, 2 juin 1882.

(28) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 2725.

مذكرة من هنتر للسير بارنج. عدن، ١٣ أبريل سنة ١٨٨٤.

(29) Singor Sacconi: "Il Governo Egiziano e le tribu Galla e Somali". L'Esploratore. anno 7, 1883. Harrar. 14 febbraio 1883.

(30) P. Politschke, Ibid.

(٣١) "باب الأتراك" كان يُسمَّى في الماضي "باب الحبشة". وحسبما يقول Jules Borelli في كتابه: "Ethiopie Méridionale": "أطلق هذا الاسم - "باب الأتراك" - لأن رعوف باشا، أول حاكم لهرَّ بعد الغزو المصري لها، شقَّ عليه "الباشي بُوزُق" الذين عاثوا فساداً".

(32) Mouktar et Abdallah Fauzi: "Plan de la ville de Herrar" (Bull. Soc. Khed. Geog. serie I, No. 4, 1876).

- Mêmes auteurs: "Carte de Zeila et des environs".

وراجع أيضاً "مجلة هيئة أركان الحرب المصرية"، عدد سبتمبر سنة ١٨٧٦ (باللغة العربية).

(33) Mohamed Mouktar: "Le Pays de Herrar" (Bull Soc. Khed Géog., I, 4).

(34) Bonola Bey: "L' Egypte et la Géographie", Le Caire , 1889.

(35) P. Paulitschke, Ibid.

(٣٦) تقرير بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥م.

(٣٧) تقرير بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٩٣ هـ (٢٩ فبراير سنة ١٨٧٦م).

(38) Ingr L. Robecchi Bricchetti: "Nell - Harar," Milano, 1896.

(39) Philippe Paulitschke: "Harar - Forshungsreise nach den Somal und Galla Landern, Ost - Afrikas," Leipzig, 1888.

الفصل الثانى عشر

الإدارة المصرية فى السودان

(١٨٢١ - ١٨٧٧)

١- من محمد على إلى إسماعيل.

٢- فى عهد إسماعيل ^[١].

^[١] فى الأصل الفرنسى، جاء هذا العنوان الفرعى على النحو التالى:

- موسى باشا حمدى (١٨٦٢ - ١٨٦٥)،

- جعفر باشا مظهر (١٨٦٦ - ١٨٧١)،

- إسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ - ١٨٧٧)،

ولكننا فضلنا اختصاره على هذا النحو [المترجم].

الإدارة المصرية فى السودان (١٨٢١ - ١٨٧٧)

عندما كانت غزوات مصر تتوالى - بنشاط - فى شرق أفريقيا، كانت حدود سيادتها تتوسع - باستمرار وفى الوقت نفسه - فى السودان ووسط أفريقيا. وكانت هذه التحركات - فى كلا الاتجاهين - منتظمة ومنتزامة تمامًا. ولكن تدخل إنجلترا تسبب - شيئاً فشيئاً - فى وقوع اضطراب عام أوقف هذه المسيرة المتناسقة.

أولاً: من محمد على إلى إسماعيل:

من المؤسف أن يكون "بيكر" و"جوردون" - حاكما السودان فى المستقبل - هما أول من هاجما الإدارة المصرية فى السودان، وخطأ من قدرها، وقصحا "أخطائها"، وأشاعا أنها تعتمد على القهر والسلب، وقاما - عمداً - بتشويه وازدراء كل الحسنات الحقيقية لهذه الإدارة؛ فاخترزلاها فى صورة "جباية الضرائب" الذى أصبح - فى كتاباتهما - رمزاً للإدارة المصرية السيئة.

وبالطبع، فإن الإدارة المصرية كانت لها أخطاؤها التى لن ننسى إلى إخفائها، ولكن - أيضاً - كانت لها حسناتها. وبالتأكيد، فقد وجد - أحياناً - إداريون سنيون أو حكاماً مستبدين أو فاسدين، ولكنهم كانوا سرعان ما يُعزَلون ويُستبدلون بحكام ممتازين كانوا يُسارعون بإلغاء التجاوزات ونشر العدل والأمن.

وفى سنة ١٨٢١، قام محمد على بغزو السودان. وفى عهده، عرّف السودان إداريين ممتازين مثل "محو بك" - سنة ١٨٢٦ - الذى نشر النظام بين القوات المحتلة، وحمى السكان من سلبها ونهبها، وحكم البلاد حسبما يريد أهلها، وكان هو أول من طبق "مبدأ المشاركة" فى حكومة السودان، وعرف كيف يختار مستشاراً

جيدًا من بين الأعيان السودانيين (الشيخ عبد القادر) الذى عُرف بذكائه الشديد وقد قَدَّرَه محمد على نفسه فيما بعد. وطوال ثلاثين سنة، كان أغلب الحكام المصريين فى السودان يستشيرونه فى شئون البلاد.

وبعد "مَحُو بك"، تَوَلَّى "خورشيد باشا" (١٩٢٦ - ١٨٣٩) منصب حاكم السودان. وعُرف "خورشيد باشا" باستقامته وأمانته: ففرض ضرائب عادلة، وشجّع المهاجرين على العودة إلى المناطق التى هجروها، وحث السودانيين - للمرة الأولى - على استخدام الأحجار لبناء مساكنهم بدلاً من جلود الأبقار والبوص بل ووزَّع عليهم مواد البناء اللازمة للمساعدة فى زيادة الرفاهية والرخاء العام لديهم.

وفى نهاية حكم "خورشيد باشا" للسودان، قام محمد بزيارته الشهيرة هناك (١٨٣٨ - ١٨٣٩) والتى تَمَيَّزَتْ بإجراء إصلاحات عميقة تُبرهن على عنايته بالسودان. لقد بنى المصريون مدينة "الخرطوم" التى أصبحت - منذ ذلك الحين - "رأس جسر الحضارة فى أفريقيا"، حسب تعبير أستاذنا المسيو إميل بورجوا (Emile Bourgeois).

ومن ١٨٣٩ حتى ١٨٤٤، حكم "أحمد باشا أبو ودان": فأعاد تنظيم الإدارة السودانية، ونشر الأمن والنظام فى جميع أرجاء السودان؛ وعمل على تطوير الزراعة: فأدخل محاصيل جديدة، وأعطى دفعة قوية لانطلاق التجارة والصناعة؛ وشجّع الملاحة؛ فبنى سفناً كثيرة أصبحت هى نواه البحرية التجارية السودانية؛ وضم ولاية "تاكنا" (أو "كسلا") إلى حكم مصر، وأخضع القبائل المشاكسة فى شرق السودان (خصوصاً قبائل "الهدندوة").

ولإخضاع هذه القبائل، قام "أحمد باشا أبو ودان" بتحويل مجرى نهر "جاش" - الذى يروى أراضيهم - فمنع بذلك كل وسائل المقاومة.

أمَّا اللواء "أحمد باشا المنيكلى" فقد حكم فترة قصيرة (١٨٤٤ - ١٨٤٥) أبدى فيها رغبة شديدة لعمل إصلاحات.

وحاول عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ - ١٨٥١) إصلاح المظالم التي حَدَّثَتْ في السودان ليس بسبب "كل" الحكام السابقين كما يُشيع بعض المؤرخين الإنجليز^(١)، ولكن بسبب الحاكم الذي سبقه مباشرة: "خالد باشا" الذي أقام نظامًا فاسدًا واستبداديًا من سنة ١٨٤٦ حتى سنة ١٨٥٠. وعلى عكس ما فعله سلفه - "خالد باشا" - فإن "عبد اللطيف باشا" أعاد العدل والنظام فاستطاع أن يكسب حب واحترام السكان.

ويرجع إليه الفضل في إنشاء مبان عديدة (منها "قصر الحكومة"، والثكنات والمخازن العسكرية، ومخازن البارود)، كما بنى مدرسة حكومية في الخرطوم تحت إدارة رفاعة بك^(٢) وبيومي بك، وهما أستاذان مشهوران.

وفي فترة حكم "على باشا شَرْكَس" (١٨٥٥ - ١٨٥٧)، توفى الشيخ عبد القادر فحزن الجميع عليه؛ وفيها - أيضًا - زار الوالي محمد سعيد باشا السودان. ومن المعروف أن الوالي - في أثناء مزاحه - أعرب عن رغبته في الجلاء عن السودان، ولكن الأهالي خَشَوْا من عودة الفوضى إلى رُبُوعه مُجَدِّدًا: فأصروا على بقاء السيادة المصرية، واكتفوا بأن يطلبوا من الوالي إجراء بعض الإصلاحات الضرورية، فاستجاب لهم سعيد باشا وقام بتخفيض الضرائب، وأمر ببعض الإجراءات الكريمة تلبية لرغبتهم.

وبرهن سعيد باشا على تسامحه عندما عيَّن مسيحيًا - هو "أراكيل بك" (أخو "نوبار باشا" العظيم) - ليحكم السودان (من سنة ١٨٥٧ حتى سنة ١٨٥٩)، وكان "أراكيل بك" معروفًا بحبه للعدل وبمهارته الإدارية؛ فأثار هذا التعيين سُخط بعض القبائل المسلمة هناك، ولكن الحكومة الجديدة استطاعت - بفضل كياستها وحزمها - أن تتفادى وقوع حركة تمرد كانت تتشكل ضدها.

[٢] هو "رفاعة بك رافع (الطهطاوي) الذي كان عباس باشا قد نفاه إلى السودان حينذاك [المترجم].

ثانياً: فى عهد إسماعيل:

تزامنت بداية حكم "موسى باشا حمدى" للسودان (١٨٦٢ - ١٨٦٥) مع ارتقاء الخديوى إسماعيل باشا عرش مصر (سنة ١٨٦٣). وكانت لدى "موسى باشا حمدى" خبرة طويلة فى شئون السودان، وكان ينوى - جدياً - وضع حد للشكاوى والتظلمات الناتجة عن قسوة الضرائب. كما كان ينوي - على وجه الخصوص - أن يضع حداً لطريقة الجباية التعسفية التى كان يمارسها "الباشى بوزق" ومندوبو السلطة هناك: فأصدر قرارات رسمية بتحديد نسبة الضرائب المطلوبة من كل ممول فى سجلات حكومية، وطبع "سركى" أو أوراق مَدْمُوغة يُسجَل فيها جابى الضرائب كل مبلغ يدفعه الممول والمبلغ الإجمالى المطلوب تسديده على ثلاث دفعات سنوياً. وبالإضافة إلى ذلك، فقد اختار رؤساء المقاطعات ونوابهم من بين أهالى السودان.

ولكن، هل كانت كل هذه الإجراءات والإصلاحات - التى تَمَّت فى نظام الضرائب - تَسْتَطِيع فعلاً أن تقضى على هذه الحالة المزمنة التى استعصت على كل الإصلاحات التى أجراها مختلف الحكام المصريين؟

فى سنتى ١٨٦٤ و ١٨٦٥، أجرى المسيو جارنييه - المترجم الأول لقنصلية فرنسا فى القاهرة - تحقيقاً حول وضع السودان ولكنه قَدَّمَ تقريرين يبدو أنهما متناقضان عن الحالة هناك: فبتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٤، كتب من الخرطوم تقريراً للقنصل - المسيو تاستو - جاء فيه: "عند وصولى إلى هنا، كُنْتُ أَتَوَقَّع أن أجد مجموعة من الاتهامات ضد "موسى باشا"، خصوصاً وأنه ما يزال غائباً. حسن!! إن مَنْ كَتَبُوا ضده كثيراً، وَمَنْ وَقَعُوا على الكثير من الاحتجاجات، لم ينبسوا ببنت شفة عن شكاواهم. بل على العكس: فالتجار الأمناء، والوكلاء الذين لم يتورطوا فى النخاسة، أو الذين لا يتأثرون بالضغائن الشخصية، أجمعوا كلهم على مدح سجايا موسى باشا".

ثم تساءل المسيو جارنييه عن جيش السودان - الذى وصل عدده إلى ٢٠ ألف و ٧٣٨ رجل - بقوله: "ما هو الهدف من رعاية جيش لا يتناسب حجمه - أبداً - مع احتياجات البلاد؟"^(٢).

وبعد ذلك، تناول الموضوع؛ فبتاريخ ٥ مايو كتب ما يلي من الخرطوم: "إن موسى باشا يدور فى حلقة مفرغة، بقدر ما تتسع بقدر ما يغوص السودان فى بؤس يتزايد - باستمرار - سيدمره تماماً. ويبدو أن نظام موسى باشا يتلخص فى العمل على زيادة جيش السودان بدرجة مبالغ فيها لكى يضمن تحصيل الضرائب. وبالتالي، تزداد الضرائب بلا نهاية لدفع مرتبات الجيش"^(٣).

ومن المحتمل أن يكون موسى باشا قد أجبر على تغيير هذا النظام، ولكن من المؤكد أنه فى تلك الأصقاع الشاسعة - التى تسكنها شعوب فوضوية أغلبها من الرُّحْل - فإن الحكم يصبح من أصعب ما يمكن بالنسبة لأفضل الحكام، خصوصاً فى مرحلة بداية خلق حكومة: فلا يجب الخضوع - أو التراجع - أمام قوة القبائل المعتادة على السلب والنهب والفوضى.

إن مجرد وجود حكومة منتظمة، ومجرد قيامها بممارسة أى إجراء - فرض ضرائب مثلاً - لابد وأن يؤثر الطابع الفردى المشاكس لدى ساكنى الصحراء أو الجبال . ولذلك، فإن أى حاكم - لديه عزم وتصميم- يجب عليه أن يفرض هيبة الحكومة وجباية الضرائب بالقوة المسلحة^(٤). وهيبة الحكومة هى التى أدت إلى فرض النظام والأمن فى السودان، وهما أول حسناتها لأنهما الركيزة الأولى لكل حضارة.

لقد كتب السير صمويل بيكر نفسه - فى سنة ١٨٦١ - خلال رحلته الشهيرة لاكتشاف بحيرة "ألبرت نيانزا" ما يلي: "كانت مدينة "كسلا" قد بُنيت قبل وصولى للسودان بعشرين عاماً، أى بعد غزو المصريين لتاكنا وضمها لهم، وبعد أن ضموا السودان كله، وأخضعوا قبائل عربية كثيرة لسلطة الخديوي. وذلك كله كان الخطوة الأولى الضرورية لتحسين وضع البلاد.

"ومع أن المصريين حكامٌ سيئون، ولا يهتمون أبداً بخير أو منفعة البلاد التي يحكمونها في المستقبل، إلا أنه يجب علينا أن نتذكر بأن كل القبائل - قبل إلحاق السودان بمصر - كانت تتحارب فيما بينها بلا انقطاع. وكانت الحكومة والقانون مُعَدَمين لدرجة أن البلاد كانت مغلقة تماماً في وجه الأوروبيين. أما في الوقت الحالي، فلم يعد هناك أى خطر يتهدد السفر في مصر العليا^[٣] وكأن المسافرين يُعْتَبَر حديقة هايد بارك ظهراً بشرط أن يتحلّى باللطف والانضباط.

"وفي سنة ١٨٦١، عندما زرتُ مدينة "كسلا"، كان لكل قبيلة عربية شيخ يحكمها على حدة وهو المسئول أمام السلطات المصرية عن جباية الضرائب المفروضة على أتباعه. ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت كل القبائل - أيا كان اسمها - خاضعة لسلطة الشيخ "أحمد أبو سن"، وهو شيخ عربي كبير السن والمقام. وكان شيخ قبيلة "الهدندوة" مسجوناً في أثناء إقامتنا في البلاد بسبب ارتكابه بعض المخالفات السلوكية في علاقته بالحكومة المصرية.

"إن يد الطغيان الحديدية قد نتج عنها تحوّل رائع في سلوكيات العرب الذين أصبحوا عاجزين تماماً بسبب نظام الحكم الذي يتبعه المصريون. ولسوء الحظ، فإن هذا النظام القاسي قد أصاب كل نشاط بالشلل"^(٥).

أبداً، إن هذا النظام لم يكن قاسياً بالمرّة، ولم يتسبب - مطلقاً - في شلل أى نشاط في أية منطقة من مناطق السودان. وهذا التعميم يُثَبِّت سوء نية واضح لدى المؤلف، أو أنه يتعمّد إصدار حكم مغلوط وسطحي: فلقد كانت حركة الحضارة تُواكب تَوْسُّع السيادة المصرية وتدعمها - أولاً بأول - منذ عهد محمد علي، وكانت حركة الحضارة تتغلغل ببطء في السودان - من جهة الشمال - حتى مدينة "الخرطوم"، كما كانت تتقدم على طول مجرى نهر النيل حيث توجد مراكز سكانية وعناصر مستقرة تشغل بالزراعة والصناعة.

[٣] المستر بيكر لا يقصد هنا الحديث عن "صعيد مصر": فمضمون ما كتبه يوضح أنه يتحدث عن "السودان" بصفته جزءاً من جنوب مصر [المترجم].

ولكن عبّر حدود بعض المناطق الشرقية والغربية للسودان، وجنوب مدينة "الخرطوم"، كانت الحكومة المصرية تبذل أقصى جهودها - باستمرار - لفرض احترام القانون على القبائل الكثيرة الموجودة هناك. وتكبّدت الحكومة المصرية تضحيات هائلة في الرجال والمال. ونتيجة للظروف القاهرة، فإن الإدارة العامة لم تستطع أن تكون متوازنة وحاسمة تمامًا طالما أن عمليات نشر السلام والسيطرة وتوطيدهما لم تَكُنْ قد تمت بعد في جميع أرجاء السودان.

وفي سنة ١٨٦٥، أصبح "جعفر باشا صادق" حاكمًا للسودان، ثم جاء بعده "جعفر باشا مظهر" (١٨٦٦ - ١٨٧١)^(١). وأنشأ "جعفر باشا مظهر" المحاكم والمدارس، وطوّر ترسانة الخرطوم، واستكمل سياسة الإصلاح التي بدأها من سبقوه. وهو الذي أنهى التمرد الذي قامت به حامية مدينة "كسلا" - منذ سنة ١٨٦٥ - في عهد حكومة موسى باشا. وعاون "أدهم بك" (باشا فيما بعد) في مهمته وقاد الجيوش المصرية في السودان.

و"أدهم باشا" سوداني من أصل عربي وُلد في كردفان، ودرّس - في شبابه - في مصر، ورافق إبراهيم باشا في حروبه ببلاد الشام، وتميّز بالشجاعة والمهارة. ولم يتأخر الخديوى إسماعيل في الإنعام بالأوسمة على هذا الجندي الذي رافق والده العظيم في حروبه. وكان "مبدأ المشاركة" سياسة حكيمة للغاية داوم الخديوى إسماعيل على تطبيقها في إمبراطوريته.

وهناك سوداني آخر، هو "حسين باشا خليفة" الذي حكم وقتذاك ولايتي "بربرة" و"دنقلة" ولكن حكمه كان استبداديًا.

وبين سنتي ١٨٧١ و ١٨٧٣، تولى "ممتاز باشا" منصب الحاكم العام للسودان. و"ممتاز باشا" شركسي حاد الذكاء ومن أشد أنصار الإصلاحات، وهو الذي أدخل زراعة القطن المصرى في السودان. ولسوء حظه، اتهمته بعض التقارير بأنه يتلقى الرشوة؛ فقبض عليه وحقق معه ومات مسجوناً في الخرطوم سنة ١٨٧٥.

وجاء بعده "إسماعيل باشا أيوب" (١٨٧٣ - ١٨٧٧) وهو شركسي أيضا ولكن حظه كان أفضل من حظ سلفه. وقال صمويل بيكر عنه: "أنجز إسماعيل باشا أيوب إصلاحا عظيما في السودان بمحاولته وضع حد لنظام الفساد والرشوة الذي أدى إلى خراب هذا البلد. وبناءً على أوامر الخديوي، قام بتنفيذ عمل عظيم آخر عندما أزال "السود"^[٤] التي كانت تعرقل الملاحة النهرية في مجرى "النيل الأبيض"^(٧).

وقال عنه المستر جيجلر - مدير مصلحة التلغراف في الخرطوم - ما يلي: "وصل إسماعيل باشا أيوب من دارفور منذ شهر بعدما غاب هناك لمدة عامين: فاستقبله السكان بحفاوة شديدة. وهو محبوب جدا في هذا البلد الذي يحكمه بحزم وعدل. لقد تمت تحسينات محمودة في الخرطوم: فأنشئت طرق واسعة جديدة تخترق المدينة، فأصبحت الخرطوم أكثر بهجة، والأهم هو أنها أصبحت أكثر صحة"^(٨).

وكتب عنه قنصل سابق لفرنسا في الخرطوم ما يلي: "إنه يحظى بشعبية جارفة في السودان لأنه هو الذي أدخل زراعة القطن والنيلة، وأصلح الوعاء الضريبي عندما سحب امتياز جباية الضرائب من شيوخ القبائل العرب، وعندما أنشأ نظاما بدائيا للمراقبة ما يزال ساريا حتى الآن"^(٩).

وفي الواقع، فإن إسماعيل باشا أيوب كان حاكما نشيطا وذكيا وعلى دراية بكل شئون السودان، بالرغم من رأى جوردون الذي خلفه في حكمه. وكان إسماعيل باشا أيوب قد حاول تصنيع القطن في "كسلا"، كما سبق له وأن حاول في

[4] "منطقة السودود" (جمع "سد") تقع في مجرى نهر "النيل الأبيض" حيث تنبت نباتات كثيفة للغاية لدرجة أنها تعوق الملاحة النهرية في تلك المنطقة، وتعمل على سرعة تبخر كميات مهولة من الماء، وتضر بالثروة السمكية هناك. ومن المفروض أن يحل "مشروع قناة جونجلي" (٣٦٠ كم) هذه المشاكل، وبدأ شق هذه القناة في سنة ١٩٧٨ ولكنه لم يتم حتى الآن (سنة ٢٠٠٨) بسبب الحرب الأهلية الدائرة هناك [المترجم].

الخرطوم: فجلب الآلات البخارية اللازمة للتصنيع إلى هاتين المدينتين وتكلفت تكاليف باهظة، ولكنها أهملت لعدم وجود وقود لها: فقد قطعت جميع الأشجار في المناطق المحيطة "بالخرطوم" و"كسلا" منذ سنوات قليلة.

وعندما أزال إسماعيل باشا "السود"، فإنه قد أسدى خدمة عظيمة للملاحة النيلية؛ وأيضاً، فإنه قد أتاح للسيادة المصرية أن تتوسع وتتقدم في المديرية الاستوائية.

وبتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٧٤، كتب الكولونيل جوردون عن هذا الموضوع في يومياته - في أثناء وجوده في الخرطوم قبل توجّبه إلى مدينة "جوندوكورو" - فذكر: "قد يستطيع المرء أن يتخيل - بالتقريب - ميزة هذا العمل بالنسبة لي: فالمرء كان يستغرق ١٨ شهراً - وأحياناً سنتين - للسفر من هنا إلى "جوندوكورو". أمّا الآن، فبالإمكان قطع هذه المسافة في ٢١ يوماً فقط باستخدام مركب بخاري"^(١٠).

وبدءاً من سنة ١٨٧٣، قسّم الخديوى السودان إلى "مديريات" يحكمها "مديرون" مستقلون - بدرجة أو بأخرى - عن الحاكم العام للسودان. وهكذا نجد أن: "يوسف أفندي" قد حكم مديرية "فاشودة"، وحسين خليفة حكم مديرية "بربرة"؛ وفيما بعد، حكم الكولونيل جوردون "المديريات الاستوائية".

حاول إسماعيل أيوب أن يمد سيادة مصر إلى غرب السودان، من جهة "دارفور" و"بحر الغزال". وفي الوقت نفسه، بذل أقصى جهوده لاستمالة سكان ولايات شرق السودان و"الفاشر" (في ولاية "تাকা") مستخدماً إجراءات حكيمة وفعالة.

ومصطلح "دارفور" يعنى "أرض قبائل الفور"؛ وكذلك، فإن مصطلح "دار فرتييت" يعنى "أرض" قبائل "الفرتييت". ويقول جوردون إن "الفور" و"الفرتييت" هم أهالى البلاد الأصليون وهم زنوج. وبعد ذلك، جاءت القبائل [العربية] البدوية التى

احتلت جزءاً من الإقليم وحوّلوا قبائل "الفور" و"الفرتيت" إلى الدين الإسلامي وعيّنوا عليهم سلطاناً ليحكمهم. ومع أن "الفور" قبائل مستقرة بينما القبائل البدوية من الرُّحْل إلا أنهم يتعايشون في سلام مع أن عاداتهم مختلفة^[5].

ومنذ عهد محمد علي، كانت مصر تطمح في الاستيلاء على "دارفور" وكل المناطق المتاخمة "للنيل الأبيض" التي تُكوّن الامتداد الطبيعي للسودان. وكانت "دارفور" تمارس التجارة المنتظمة مع مصر: فقد كانت قوافلها تُرَدّ إلى مصر سنوياً وهي محملة بـ: العاج، وريش النعام، والصمغ والعبيد، إلخ إلخ... وعند عودة القوافل إلى "دارفور"، كانت تحمل: المنسوجات، والأسلحة النارية، والمسابح، إلخ إلخ...

ومثلما كانت مديرتا "كردفان" و"بحر الغزال"، فقد كانت مديرية "دارفور" مركزاً مهماً لتجارة العبيد. وفي سنة ١٨٧٤، دُعيت مصر للسيطرة على "دارفور" بدلاً من أن تسقط تحت سيطرة النُحَّاسين: فلقد كان النُحَّاسون أثرياء جداً ولديهم عصابات مسلحة تَأتمر بأمرهم، فأصبحوا هم سادة منطقة "وسط أفريقيا" وأصبحوا يُشكّلون تهديداً خطيراً للامتداد والتوسع الفعلي - أو المحتمل - للسيادة المصرية على تلك المنطقة.

ومنذ سنة ١٨٦٩، بدأت مصر تعتبر أن النخاسة والنُحَّاسين يشكلون خطراً سياسياً عليها، ولكنها لم تفضل استخدام العنف لإلغاء هذه التجارة إلا في حالة الضرورة القصوى، ولجأت إلى استخدام قدر كبير من الكياسة والفطنة لمراعاة المصالح العديدة المرتبطة بهذه التجارة. وعندما كان حكام السودان المصريون

[5] تغيرت هذه الصورة السلمية منذ بضع سنوات فقط عندما تم اكتشاف البترول واليورانيوم في إقليم دارفور: فتشبت حرب أهلية جديدة شرسة في السودان بين القبائل البدوية العربية (وهم رعاة رُحْل) - الذين تدعمهم الحكومة المركزية في الخرطوم - وبين "الفور" الزنوج المستقرين (وهم فلاحون). وتهدف تدخلات القوى الغربية إلى فصل "دارفور" عن "السودان" [المترجم].

يشعرون بضرورة استخدام القوة ضد النخاسين، فقد كانوا يدفعون - بمبادرة شديدة - نخاسين آخرين لمحاربتهم: وبذلك، ضمن المصريون هيمنتهم على تلك المنطقة.

وفي سنة ١٨٦٩، شعر نخاسو منطقة "بحر الغزال" بأنهم أقوياء للدرجة التي تدفعهم لتحدي الحكومة المصرية: فرفضوا دفع الإيجار السنوي للأراضي الزراعية.

وكان "الزبير رحمت" على رأس النخاسين المتمردين، ولعب دوراً هاماً في شئون السودان. والزبير رحمت ينحدر من نسل العباسيين الذين هربوا إلى مصر من بغداد ثم إلى أعالي النيل بعد غزو التتار لبغداد سنة ١٢٧٨ هجرية^[٦] وكان يحظى بمكانة رفيعة ونادرة لدى المسلمين. وبالإضافة إلى الأصل الشريف، كان الزبير ذكياً ولبقاً وجريئاً وشجاعاً، فنجح في أن يرتقى من مجرد "وكيل" بسيط في "بحر الغزال" - لبيت على عموري (وهو تاجر من صعيد مصر) - ليصبح ملكاً غير متوج خلال بضع سنين؛ فامتلك قصرًا، وجيشاً من صاندي العبيد، وحصوناً ("زرائب") على طول أعالي نهر النيل، وترسانات، وسفنًا، وثروة هائلة.

وفي سنة ١٨٦٩، أرسل الخديوي صيادا آخر للعبيد - اسمه بلال - ليتولى منصب حاكم مديرية "بحر الغزال"، ويستعيد سلطة الخديوي هناك ثم يحتل دارفور: فقتل الزبير بلالاً في كمين له ومزق حملته شر مزق.

وتزامن قيام حملة صمويل بيكر مع قيام حملة بلال. وكان بيكر مندعشاً من أن حاكم السودان - جعفر باشا مظهر - قد عيّن نخاساً كبيراً لإلغاء النخاسة. ولكن الحكومة المصرية كانت تريد - في المقام الأول - أن توطد سلطتها التي اهتزت، وأن تدافع عن المصالح العليا لسياستها. ومن هذا المنظور، أرادت أن تتقّى شر الزبير - مؤقتاً على الأقل - فلا تدخل في حرب علنية ضده.

[٦] المؤلف يقصد سنة ١٢٥٨ "ميلادية". وكان المغول - بقيادة هولاكو خان قد دمروا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية في سنة ١٢٥٨ "ميلادية"، ثم اجتاحتها مرة ثانية - بقيادة تيمورلنك بين سنتي ١٣٨٧ و ١٤٠١ ميلادية [المترجم].

وفى الوقت نفسه، كانت تتجمع أسباب كثيرة للصراع ولم يمر وقت طويل حتى انفجر الصراع بين السلطان إبراهيم - سلطان "دارفور" - وبين الزبير رحمت الذى كانت قوته تتزايد وتثير الخوف منه. وفى سنة ١٨٧٣، استعد الزبير لاجتياح "دارفور" من الجنوب، وكان هذا الاجتياح كفيلاً بزيادة قوته ومكانته أكثر فأكثر مما يهدد مصالح مصر. ولكن إسماعيل باشا أيوب كان يقظاً: فهو - أيضاً - كان يستعد لاجتياح "دارفور" من الشرق تاركاً الزبير يغزوها لحساب مصر فى النهاية.

وفضلاً عن ذلك، فقد تصرّف الخديوى بذكاء ولباقة: فأسرع بتعيين الزبير باشا حاكماً على البلاد التى كان قد استولى عليها مؤخراً وهى: "بحر الغزال"، و"شاك"، والجزء الجنوبي من دارفور، وكلفه باستكمال غزو دارفور بالتعاون الوثيق مع أيوب باشا.

وفى سنة ١٨٧٤، وقعت معركة حاسمة قتل فيها سلطان دارفور واثنين من أبنائه: فسُلِّمَت دارفور إلى المصريين. وعندئذ، أنعم الخديوى على الزبير برتبة "باشا". ولكن الزبير لم يرض عن هذا التكريم لأنه كان يعتقد - بحق - بأنه يستحق منصب الحاكم العام للمديرية الجديدة.

وفى الوقت نفسه، كان الخديوى لديه من الأسباب ما يجعله حذراً تجاه نوايا الزبير: ففي سنة ١٨٧٣، خضع الزبير فعلاً لسلطة مصر، ولكنه بسط سيادته على "بحر الغزال" ربما بقصد صرف أنظار المصريين عن هدفه الذى يرمى لخلق قوة جديدة قادرة - ببطء - على تأكيد استقلاله عن مصر بفضل موارد دارفور الهائلة.

وبعد إبداء قدر من التردد، قرر الزبير أن يذهب إلى القاهرة لكى يرفع - بنفسه - التماسه للخديوى. وتولى سليمان - ابنه - مهام منصبه حتى يعود من غيابه الذى سيطول. وبالفعل، فبعد وصول الزبير إلى القاهرة، مُنِعَ من مغادرتها تحت أذعار وحجج مختلفة: فبقى حبس الحظوة الخديوية.

واستتب الأمن تماماً في دارفور بعدما احتلتها القوات العسكرية التابعة للخديوي. وبالإضافة إلى الأمن، أنشأ إسماعيل أيوب الكثير من المحطات في السودان من البحر الأحمر حتى نهر النيل، وبين "سواكن" و"بربرة"، ومن النيل حتى حدود "واداي"، وفي "دار فريت" (بين "الخرطوم" و"دارفور").

وهكذا نعم السودان بتقديم حقيقى طول فترة الإدارة المصرية منذ عهد محمد على، رغماً عن الأخطار والمصاعب - التى لا يمكن تجنبها - والمرتبطة بفترة الانتقال والإنشاء الأولى: فلقد خلق إداريون أكفاء - أو حاولوا تطبيق - إصلاحات عظيمة فى جميع المجالات، وتم إنشاء مدن جديدة أو تم تحديثها، ونشأ "سلام مصري" حقيقى^[٧] فى كل مكان: فتقهقرت قوى الفوضى والصحراء باستمرار أمام التوسع المصري.

وعلى الرغم من التكاليف المالية التى تطلبها مشروع الغزو والتنظيم، فإن السودان لم يستند وكان لديه اكتفاء ذاتي. وفى تقرير المستر كيف، لسنة ١٨٧٦، ذكر ما يلي: "حسب المعلومات المتوفرة لدينا، فإن السودان بلد غنى، وكثير السكان، ومنتج كبير للقمح. وبعد تسديد المصروفات التى أنفقت من أجل "دارفور"، وعلى الحملات الاستكشافية لمنطقة البحيرات العظمى"، فإن السودان يُورَد للخزانة دخلاً يُقدَّر بـ ١٥٠ ألف جنيه، حسبما ذكرت الإحصائيات الرسمية".

لقد ظهر العجز فى الميزانية والفوضى - تحديداً - بسبب:

١- "البحيرات الاستوائية" (حملة بيكر الاستكشافية بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧٤).

٢- و"دارفور" (إدارة جوردون لهذا الإقليم بين سنتي ١٨٧٧ و ١٨٧٩).

[٧] "سلام مصري" (Pax Aegyptica): عبارة لاتينية على وزن "Pax Romana" (السلام الروماني) وتعنى أن السلام العالمى لا يتحقق إلا بسيطرة روما على كل العالم المعروف وقتها، وعندئذ تنتهى الحروب. وعلى الوزن نفسه - وب نفس المعنى أيضا - ظهرت فى العصر الحديث عبارة: "Pax Americana" (السلام الأمريكى) فى النصف الثانى من القرن العشرين [المترجم].

٣- ودفع إنجلترا للأحداث في اتجاه مُعَيَّن يهدف إلى إلغاء معظم النتائج التي
اكتسبتها الإدارة المصرية- بعناء- في السودان.

هوامش الفصل الثانى عشر

(١) راجع - مثلاً - التقرير الشهير الذى كتبه المقدم ستيوارت عن السودان.
الخرطوم فى ٩ فبراير سنة ١٨٨٣.

(2) Archives françaises. A.E. Correspondance politique. Egypte. Vol.
35.

من المسيو جارنييه إلى المسيو تيمستو، الخرطوم فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٤، ملحق
للبقية السياسية رقم ١٠، الإسكندرية فى ٢٩ يناير سنة ١٨٦٥.

(3) Ibid. Vol. 36.

من المسيو جارنييه للقنصل. الخرطوم فى ٥ مايو سنة ١٨٦٥.

(٤) توجد رسالة موحية كتبها جوردون للسير ريفرز ويلسون رئيس "اللجنة العليا
للتفتيش". وهذه الرسالة تلغى الأسطورة التى خلقها جوردون - بنفسه ومعه
الدبلوماسيين الإنجليز - بخصوص نظام الضرائب المصري: فالرسالة تُبين
بوضوح شديد أن العيب الأساسى لنظام الضرائب - المطبّق فى السودان -
يرجع أساساً لصفات الشعوب السودانية ذاتها وليس إلى الصفة الإدارية
المصرية. لقد حاول حكام مصريون عديدون إصلاح هذا النظام فى السودان
ولكن بلا جدوى: فبنار يخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٨، كتب جوردون - من
الخرطوم - ما يلى: "تلقيتُ تقرير 'لجنة التفتيش' وقرأته بعناية. ويسعدنى أن
أخبركم بأن المسألة التى أشرتم إلى أنها موجودة فى حكومة مصر نادراً ما
توجد فى السودان.

"وفيما يتعلّق بجباية الضرائب، فالسكان هم الذين انتصروا: ففي هذا البلد المترامي الأطراف، بمقدورهم الهرب بسهولة من جباة الضرائب، وأصبحت المبالغ المتأخرة عليهم هائلة. ومن غير المجدى أن نُهَوّن من هذه المسألة بل يجب اللجوء إلى القوة الجبرية لكي نُجبر الممولين على دفع الضرائب المقررة عليهم. ولقد جرّبت كل الوسائل ولكن بلاد جدوى، إلخ إلخ..."

(Sir Rivers Wilson: "Chapters from my official life", London. 1916, Pp. 195- 196).

(5) Sir Samuel Baker: "Nile Tributaries of Abyssinie", London. 1871, Pp. 72- 73.

(٦) "كان جعفر باشا يحكم السودان المصرى - وقتذاك - بحزم شديد، وهو أصلاً كابتن فرقاطة فى البحرية المصرية فى عهد محمد علي. وتعرّفتُ عليه خلال رحلتى الأولى (سنة ١٨٦٣) عندما كان مديراً للصعيد. وهو رجل مثقّف ثقافة واسعة ولديه كميات كبيرة من الأطالس ولوحات التشريح".

(Dr. George Schweinfurth: "Au coeur de l' Afrique (1868-1871).", Traduit Par M.H. Lereau, Paris, Hachette, 1875, 2 Vols.

"وتولى جعفر باشا مظهر لمدة ست سنوات، وحاز رضى الجميع: فقد كان يشجع التجارة ويحميها، ونظم الإدارات وأدخل إصلاحات ممتازة. وهو الذى بعث للقااهرة - سنة ١٨٦٦ - بالحيوانات والمنتجات الطبيعية والمشغولات الفنية التى عُرضت فى "معرض باريس الدولي" بناءً على رغبة الوالي، إسماعيل باشا [...]"

(Gaetano Casati: "Dix années en Equatoria." Traduit par: L. de Hessen, Paris, 1872.

(7) Samuel Baker: "Ismaïlia," T.I, Pp. 487, 488.

(8) T. Douglas Murray and A. Silva White: "Sir Samuel Baker, A memoir," London, 1895.

رسالة من جيجلر إلى صمويل بيكر بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦.

(9) Louis Vossion: "Khartoum et le Soudan d' Egypte" (Nouvelle Revue, mars 1883).

(10) Hill: "Colonel Gordon in Central Africa".

الفصل الثالث عشر
صمويل بيكر فى وسط أفريقيا
(١٨٦٩ - ١٨٧٣)

- ١- كفاءات بيكر، وتقييم الوسائل التى اتبعتها لإلغاء النخاسة.
- ٢- تقدم حملة بيكر فى أفريقيا، ونتائجها بالنسبة لمصر وإنجلترا.

صمويل بيكر فى وسط أفريقيا (١٨٦٩ - ١٨٧٣)

أراد إسماعيل مجاملة إنجلترا لكى تؤيده فى بسط سيادته على أفريقيا. ولذلك، بدأ فى اتباع سياسة جديدة فى السودان منذ سنة ١٨٧٠. ولكن حساباته كانت خاطئة وسيّبت له خيبة أمل قاسية: فقد كان يمكنه الدفاع عن "سياسة المشاركة" - مع العنصر الأوروبي - طالما أن الأمر كان يتعلق بالكشوفات الجغرافية أو بالدراسات العلمية فقط. ولكن عندما يقوم الخديوى بتعيين مسيحيين - خصوصاً الإنجليز - لحكم المديرية المصرية البعيدة، فقد كان ذلك يعنى:

١- أن تفقد الإدارة المصرية شعبيتها هناك.

٢- وألا تضرب بجذورها فى أعماق تلك المديرية، خصوصاً وأن هؤلاء الحكام لم يكن لديهم أى عامل مُشترك مع الأهالى يربطهم بهم.

أولاً: كفاءات بيكر، وتقييم الوسائل التى اتبعتها لإلغاء النخاسة:

وصل السير صمويل بيكر إلى مصر مع حاشية ولى عهد بريطانيا فى أثناء زيارته للخديوى إسماعيل سنة ١٨٦٩. ورشحه ولى العهد للخديوى للقيام بحملة استكشافية فى وسط أفريقيا، وذكر الدكتور راسل فى كتابه: "ويرجع الفضل فى التنظيم النهائى لهذه الحملة إلى ولى عهد بريطانيا الذى حثَّ الخديوى عليها وبَيَّن له منافعها؛ فاقترح الخديوى على السير صمويل بيكر أن يرأسها"^(١).

ولكن، هل كان بيكر لديه فعلاً المعرفة والنكاء والرغبة المطلوب توافرها فيمن سينفذ هذا العمل العظيم - باسم مصر - وسط هذه الشعوب الأفريقية؟ إن بيكر لم يتلق سوى تعليم سطحي وغير مكتمل^(٢)، ولم تكن لديه من صفات المستكشفين

إلا الروح الرياضية والخيال الذى كان يُوجِّيه - "مثل البوصلة" - إلى المجهول فى أفريقيا الوسطى.

وكان بيكر قد سبق له وأن أعلن عن مشاعره المعادية لمصر بوضوح: ففي سنة ١٨٦٧، كان قد ألَّف كتاباً عنوانه "اكتشاف بحيرة ألبرت- نيانزا" زعم فيه أن نظام الحكم المصرى فى السودان عبارة عن "احتكار ونهب وقمع" فقط، وقد غالى فى الهجوم على النخاسة- التى كانت منتشرة للغاية فى المناطق الاستوائية- واتهم السلطات المصرية بتشجيعها.

ولكى نفهم - ونُقيِّم - جيداً الهدف المُغرض وغير العلمى لهذا المستكشف، يكفينا ذِكرُ أنه أكَّد- فى مقدمة كتابه المذكور- أن "المستكشف هو الذى يفتح الطريق أمام المستعمر". وبالتالي، فإن غرضه لم يكن القيام بعملية استكشاف علمية. بحتة، بل كان يهدف لفتح الطريق أمام المستعمر الذى سيأتى بعده. وهذا بالضبط ما كانت تهدف إليه بعثتا سبيك (Speke) وجرانت (Grant) اللتان أرسلتهما الحكومة الإنجليزية- على نفقتها- لاكتشاف منابع نهر النيل (١٨٦٠ - ١٨٦٢).

ومع ذلك، وجدت مصر نفسها متورطة فى تنفيذ غرض إنجلترا نتيجة لحركة احتيال بارعة نفذتها الحكومة الإنجليزية: فقد شُنَّ الكُتَّاب والصحافة فى إنجلترا حملة منهجية منظمة لإدانة النخاسة فى أفريقيا، فطلبت إنجلترا من الخديوى ضرورة إلغائها، وتعيين بيكر فى منصب الحاكم العام لتلك المناطق التى تطمع فيها مصر وبريطانيا العظمى فى الوقت نفسه.

وهكذا تحوَّل "المستكشف" إلى "مُراقِب"، بل وأصبح "وكيلاً سياسياً" لحكومته يضمن لها نفوذاً حقيقياً فى شئون تلك البلاد، خصوصاً وأنه كان مُقتنعاً بوجهة نظرها التى ستتغلب- من الآن فصاعداً- على سياسة مصر وتوجهها بشكل مباشر أو غير مباشر.

وكانت حملة السير صمويل بيكر تهدف إلى:

- ١- إخضاع البلاد الواقعة فى جنوب مدينة "جوندوكورو" لسيادة الخديوي.
 - ٢- إلغاء النخاسة، وتنظيم التجارة.
 - ٣- فتح "البحيرات العظمى" - فى منطقة خط الاستواء - أمام الملاحة.
 - ٤- وأخيراً، إنشاء مجموعة من المحطات العسكرية والمخازن التجارية عبر وسط أفريقيا، وتحويل مدينة "جوندوكورو" إلى مركز للعمليات.
- ولتحقيق هذه الأهداف المحددة - وهى خطة متكاملة ومتسقة تماماً- قام إسماعيل بتعيين بيكر لقيادة هذه الحملة لمدة أربع سنوات تبدأ من أول أبريل سنة ١٨٦٩، وأعطاه سلطات مطلقة لإنجاح هذه الأهداف- منها حق تنفيذ أحكام الإعدام- فى كل المناطق الواقعة جنوب جوندوكورو.
- وكان الوالى يُريد من حملة بيكر أن تضم إلى سلطته كل الأراضى التى تُكوّن "حوض أعالي نهر النيل" وتقوم بتنظيمها. ولكن بيكر لم يكن على المستوى المطلوب لتنفيذ هذه المهمة التى كُلِّفَ بها. وحتى لو افترضنا أن لديه الإرادة للتغلب على المصاعب التى واجهته فقد كانت تنقصه الروح المنهجية / العقلانية التى تنظم هذه الإرادة وتساعد على التقدّم بثبات وباستخدام الوسائل المناسبة لتحقيق الهدف المنشود.
- لقد كان هذا المغامر الحالم يتوهم أن مجرد إقامة محطة عسكرية بسيطة - فى منطقة ما- ستؤدى إلى إلغاء النخاسة؛ فلم يتعمّق فى دراسة جوهر المشكلة وظواهرها، ولم يُبال بقوة النخاسين ولا بمواردهم العديدة المنتشرة فى كل مناطق وسط أفريقيا. وبسبب ذلك، فقد سبق له وأن ذكّر- فى كتابه "اكتشاف بحيرة ألبرت - نيانزا" - ما يلي: "إن مدينة جوندوكورو تعتبر بمثابة جحيم حقيقي، والسلطات المصرية لا تُعيرها أدنى اهتمام. ومع ذلك، فما أسهل إرسال بعض الضباط و ٢٠٠ جندي - من الخرطوم - لإقامة حكومة عسكرية هناك ومنع الاتجار فى الزنوج".
- إذن، فإن صمويل بيكر كان من أنصار شن الحرب على النخاسين. ولكن هذه الوسيلة مكلفة وضعيفة الفاعلية: فبى ستُخفّف الألم فى أجزاء محدودة للغاية

من المناطق الشاسعة في أفريقيا، ولكنها لن تقضى على النخاسة: ففي البحر الأحمر - مثلاً - عجزت السفن الحربية البريطانية اليقظة - التي تدعمها السلطات المصرية بقوة - عن إلغاء النخاسة التي ما تزال موجودة حتى يومنا هذا^[1] على ضفتي البحر الأحمر بين أفريقيا وشبه الجزيرة العربية.

إن اللجوء إلى العنف لم يؤد إلا إلى خراب خزائن مصر، وإلى ما هو أخطر: فقد تسببت في خلق حالة سُخط بين هذه القبائل ضد مصر التي كانت قد تكبدت تضحيات هائلة من أجل إقامة سلام معها. وكان لابد من مراعاة العوامل الثقافية والمادية عند إلغاء النخاسة، وهذا ما أدركته - وأوصت به- القوى الأوروبية لاحقاً، بعدما حققت هدفها أي بعدما سيطرت على هذه البلاد.

وفي الواقع، فإن هذه التجارة كانت "مؤسسة" ضارية بجذورها - منذ قديم الأزل - في عادات تلك الشعوب، وترسّخت عبر تقاليد دامت لآلاف السنين. ولذلك، كان يجب - أولاً- إصلاح وتعديل هذه العادات والتقاليد لنشر حركة الحضارة تدريجياً، وإقامة حكومة دائمة وتدعيمها لأنها هي الوحيدة القادرة على:

٥- تنظيم طرق المواصلات.

٦- وتطوير الموارد الطبيعية.

٧- وخلق عادات النظام والعمل- في كل مكان- التي تجعل من النخاسة عملاً بشعاً في عيون هؤلاء السكان، وغير مربح بالنسبة للنخاسين أنفسهم.

وبالإضافة إلى كل ما سبق، فإن خلق وسائل المواصلات يُشجع على ممارسة رقابة فعّالة في تلك المناطق الشاسعة في قلب أفريقيا.

وفي أغلب أرجاء أفريقيا، من المعروف أن تجارة العاج كانت أحد الأسباب الرئيسية للنخاسة وملازمة لها، إن لم تكن هي سببها الوحيد: فبدون العاج كان

[1] يقصد المؤلف سنة ١٩٣٣ وهي سنة نشر هذا الكتاب. ففي المملكة العربية السعودية - مثلاً - لم تلغ العبودية رسمياً إلا في سنة ١٩٦٠ [المترجم]

صيد العبيد سيُصبح غير مربح إذا وصل النخاسون بالعبيد - فقط - إلى الساحل الأفريقي. وفي أثناء الحملات التي شنها النخاسون العرب والبرتغاليون، استفادوا من تفوق أسلحتهم الحديثة لنهب العاج واستعباد الرجال والنساء والأطفال.

وفي مناطق "النيل الأبيض"، كان يوجد تجار كبار يُتاجرون في العاج - ظاهرياً - ويدفعون عنه مبالغ مُحددة للحكومة. وكانت لديهم عصابات مسلحة بدعوى حماية "الزرائب" الخاصة بهم (أى "الأماكن المُحصنة") التي تُستخدم كمخازن لتشيون العاج. ولكن - فى الحقيقة - كانت هذه العصابات المسلحة تهاجم السكان المسالمين، وتأسرهم بصفقتهم عبيداً، وتتاجر فيهم تحت ستار تجارة العاج.

وفي تلك المناطق، كان السكان المحليون - أنفسهم - يسيئون العبيد لحسابهم الخاص. وكانت القبائل البدوية المرتحلة المحاربة تعمل فى خدمة النخاسين وتساهم - غالباً - فى تلك الحملات المربحة: فلقد كان الاتجار فى البشر - فى تلك البقاع - آنذاك طبيعى للغاية لدرجة أن نصف عدد سكان السودان - على الأقل - كان من العبيد.

وفي مدينة "الخرطوم" كان يوجد ستة نخاسين كبار يحتكرون هذه التجارة منهم عائلات: "غطاس" و"العقاد" و"عموري" الذين كانوا يتصفون بروح المغامرة، وامتلكوا عدداً كبيراً من المنشآت القريبة جداً من مناطق العاج فى "بحر الغزال" و"دارفور" و"كردفان" حيث كان وكلاؤهم هناك يرأسون عدداً كبيراً من الموظفين يعملون لديهم.

وكان هؤلاء الوكلاء لديهم كافة السلطات: فهم الذين يُحددون مقدار الضريبة العينية على السكان المحليين لإعاشة الحامية، وعدد الحماليين المطلوبين منهم للحملات البعيدة، وكانوا يُعيّنون - ويعزلون - الوكلاء المحليين، ويتخذون قرارات الحرب والسلام، ويعقدون التحالفات، ويرسلون إلى الخرطوم - سنوياً - البضائع التي جمعوها⁽³⁾.

وكان هؤلاء التجار الكبار يشبهون كبار الرأسماليين الذين جذبهم مجال العمل: فخلطوا العمليات المشروعة (التجارة) بغير المشروعة (شن الهجمات لصيد العبيد). وكانت الحكومة المصرية لا تملك سوى إغماض عينيها عما يجري: فسلطتها كانت مجرد سلطة اسمية في المناطق الواقعة جنوب "الخرطوم"، خصوصاً في "فاشودة". وكان من المفروض أن يبدأ المستر بيكر على النحو التالي:

١- أن يمد السيادة المصرية على تلك البلاد البعيدة المبتلاة بالنخاسة.

٢- وأن يربط إلغاء هذه التجارة بخطة متكاملة بناءة تؤدي إلى فتح منطقة البحيرات الكبرى - في وسط أفريقيا - أمام الملاحة البخارية.

٣- وأن يقيم حكومة دائمة في تلك المناطق..

ولكن المستر بيكر لم يكن في ذهنه سوى خطة وحيدة ألا وهي اللجوء إلى استخدام العنف، والعنف فقط. ولذلك، فإنه حدّد مهمة حملته على أنها مجرد حملة مسلحة لمحاربة النخاسين. والدليل على ذلك أنه ألف كتاباً اسماء "إسماعيلية" (Ismaïlia) - وهو الاسم الذي أطلقه على "جوندوكورو" - ولكن العنوان الفرعى لهذا الكتاب كان "حكاية حملة تمت في وسط أفريقيا لإلغاء النخاسة".

وبالتأكيد، فإن كتاب سيرته يحاولون - حالياً - أن يخففوا من خطئه على طريقتهم، فقد ذكر بعضهم ما يلي: "إن معرفتنا الحالية - بالظروف التي كانت تتم فيها النخاسة في أفريقيا - قد ازدادت كثيراً عما كانت عليه في سنة ١٨٦٩. وعندما نذكر المبادئ العامة لشرح مهمة بيكر - في ضوء معرفتنا الحالية - فإن جهوده قد تبدو تافهة أو أنه قد أساء استخدامها.

"ولكن يجب أن نتذكر بأن إسماعيل باشا قرر إلغاء النخاسة في المناطق الخاضعة للتشريعات المصرية. وحينذاك، فقد كان من المعتقد أن هذا الهدف سيتحقق بقوة السلاح فقط. والآن، في العصر الحديث، من المعروف أنه من العبث الحديث عن إلغاء النخاسة بقوة السلاح (ولقد اعترف بيكر نفسه بذلك فيما بعد):

فهذه التجارة - فى حد ذاتها - يمكن تنظيمها أو إلغاؤها لمدة محدودة، ولكن لا يمكن أبداً إلغاؤها تماماً طالما أن الظروف التى نشأت فيها لم تتغير^(٤) .

ومما سبق، يتضح أن سلوك بيكر - خلال هذه الحملة - يثبت عجزه التام أو سوء نيته أو الاثنان معاً: فلا الخديوى ولا وزراؤه كانوا يعتقدون بأن إلغاء النخاسة سيحقق بمجرد استخدام القوة فقط.

وفى سنة ١٨٦٩، زار الخديوى لندن، ولفت أنصار فكرة إلغاء النخاسة نظره إلى بشاعة هذه التجارة فى مناطق النيل الأبيض. فرد عليهم نوبار - الذى كان يرافق الخديوى - نيابة عنه موضحاً: فيما يتعلق برعايا الخديوى الذين يسافرون فى بواخر تحمل الراية المصرية، فإن الخديوى قد نجح فى إلغاء تلك التجارة بينهم. ولكن هناك كثير من الأوروبيين يسافرون فى بواخر ترفع رايات بلادهم، فلا يستطيع الخديوى أن يمسهم.

إن حق تفتيش السفن الأجنبية، فى المياه الإقليمية المصرية نفسها، كان ممنوعاً على السلطات المصرية؛ وبالتالي، فقد كان من المستحيل على الخديوى أن يفعل أكثر مما فعل لإلغاء هذه التجارة المخزية.

وبصرف النظر عن التعليمات التى أصدرها الخديوى، والتى تعتبر وحدة متكاملة - سندرسها فيما بعد - فإن إلغاء النخاسة كان مسألة أخرى مختلفة: فهذه التجارة موجودة فى مصر منذ ١٢٨٣ سنة ولم يكن ينكرها الدين. وكان الخديوى يقول عنها إنها مؤسسة رهيبة، وأنه يود القضاء عليها، ولكن هذا لن يتم بين يوم وليلة.

وعلى عكس آراء الزوار الأوروبيين، فقد كان إسماعيل يؤمن بأن أفضل طريقة لإلغاء نظام العبودية هى البدء فى إلغاء التجارة ذاتها، وكان يطالب بحرية حركة أكبر ضد الأوروبيين - الذين كانوا يمارسونها - وكان يلفت نظر محدثيه إلى أن إلغاء القنصلية الإنجليزية لها فى الخرطوم - على وجه التحديد - كان تقدماً ملحوظاً فى هذا المجال.

وكان الخديوى قد تخلص من أغلب النخاسين مقابل دفع تعويضات هائلة لهم. لكن إذا كان الخديوى لم يقل كل ما لديه حينذاك إلا أنه يمكننا إضافة أنه كان يرى ضرورة الهجوم على المنبع - الذى يُغذى هذه التجارة - وتجفيفه وليس فقط مهاجمة التجارة، أى ضرورة القضاء على "الطلب" الذى يخلق "العرض" ويجعل النخاسة تزدهر.

ومن هذا المنطلق، فكر الخديوى - مثلاً - فى إلغاء نظام العبيد الذى يخدمون فى المنازل تدريجياً وذلك عن طريق نشر تعليم السيدات لكى يُغيّر نظام "الحريم" التقليدي. وفى الوقت نفسه، كان القناصل الأوروبيون لا يفكرون إلا فى النيل من حقوق البلاد ومن الحقوق الملازمة للملكية الفردية، وكان ذلك يتم بإضفاء حمايتهم - بدون تمييز - على جميع العبيد الذين كانوا يريدون هجر أسياهم وملاكهم الشرعيين.

فإسماعيل، إذن، كانت لديه نظرة واضحة وعميقة لوضع النخاسة. أمّا الحكومة الإنجليزية، فقد كانت حذرة جداً ولم تستعجل الأمور حتى تعرف عواقبها: فهى لم تنس بعد ما تكبدته بسبب إلغائها لنظام العبودية فى مستعمراتها.

ووصل صمويل بيكر إلى الخرطوم سنة ١٨٧٠. ومن هناك، كان المفروض أن يذهب إلى منطقة أعالي النيل. وعند وصوله إلى عاصمة السودان، لاحظ حالة البلاد فكتب مما يلي: "إن المظهر الخارجى للخرطوم لم يتغير، ولكننى لاحظتُ بفزع تغيراً مخيفاً طرأ على مظهر هذا البلد - بين "بربرة" والعاصمة - بعد زيارتى الأولى له: فالأرض الخصبة الواقعة على ضفتى النهر، التى كانت مزروعة بكثافة، قد هجرها سكانها.

"وهنا وهناك، نستطيع رؤية آجام من النخيل المهمل؛ لكن ضفتى النهر أصبحتا صحراء جرداء بعدما كانت مزروعة بنباتات زاهية الخضرة؛ والقرى التى كانت مليئة بالسكان قد اختفت تماماً: فالسكان قد هجروها. أمّا الري، فلم يعد موجوداً: ففي الماضي، كان صوت السواقي يُسمع فى المساء، ولكن صمت الموت

هو السائد حالياً. ولم يُعدّ يسمع حتى نباح الكلاب، لقد انتهى كل نشاط إنسانى لأن القهر طرد السكان من أراضيهم"^(٥).

وهكذا نجد بيكر - فى أثناء رحلته فى سنة ١٨٧٠ - يظهر عطفه على سكان السودان الذين طردهم المصريون من أراضيهم الخصبة - بين "بربرة" و"الخرطوم" - بسبب سياسة القهر التى مارسها المصريون عليهم.

إن المرء ليجت - بلا جدوى - فى كتاب بيكر الخاص برحلته الأولى ("اكتشاف بحيرة ألبرت/ نيانزا") عن أية إشارة لهذه الأراضى الشاسعة والخصبة، الواقعة على ضفتى النيل ولكنه لا يجد لها أى ذكر، بل إن العكس هو الصحيح: فالقارئ يستنتج من هذا الكتاب أن السودان - فى سنة ١٨٦٢ - كان "خرباً تماماً" وأن مظهره العام كان بانسا إلخ إلخ...^(٦) أى فى أثناء زيارة بيكر الأولى له. وفضلاً عن ذلك، ففي سنة ١٨٦٢، كانت توجد مناطق خصبة أخرى ضمها بيكر إلى "الخراب التام"^(٧).

وفى الحقيقة، فإن بيكر لم يكن مُراقِباً محايداً بل إنه لم يكن مُراقِباً على الإطلاق ففي مناطق النيل الأبيض، لم ير - هناك أيضاً - سوى "أرضاً خربة وجدباء" فى حين أن الغابات الكثيفة كانت تغطى المقاطعات المجاورة للضفة اليسرى لنهر النيل؛ وعبر هذه الغابات، كان يمتد سهل عظيم كانت أرضه الصلصالية مزروعة بكثافة. وكانت هذه الأرض تختلف عن أرض مصر الطميمة ولكنها لا تقل عنها خصوبة. وذكر الدكتور شفاينفورت ما يلى عن هذه المقاطعة: "إذا كان بيكر يصف هذه الأرض بأنها جدباء، فإن ذلك يرجع إلى أنه لم ير سوى رمال الضفة الشرقية"^(٨).

أمّا الأراضى المهجورة بين "بربر" و"الخرطوم"، فإن النوبيين - المولودين على ضفتى النيل - قد هجروا زراعتهم ومساكنهم فعلاً، ليس هرباً من تشدد الحكومة المصرية، بل للانضمام تحت لواء كبار الفخاسين لكى يمارسوا السلب والنهب وسرقة المواشى وصيد العبيد، ولكى يصبحوا من "الجلابة" (أى من صغار

تجار العبيد)؛ باختصار، لكي يمارسوا أية مهنة تُلبى رغبة كل نوبى فى حياة المغامرة".

وسنقدم - فيما يلى - رأى الدكتور شفاينفورت فى هذا الموضوع: "إن "الجلابة" من أدنى طبقة يتعرضون للكثير من خيبة الأمل: فإذا نفق لهم ثور - أو حمار - أثناء الطريق، يجب عليهم أن يتخلوا عن بضائعهم بأى ثمن... كما يتعرضون لمشاق شديدة وحرمان مفرط وربحهم غير مضمون. وسألهم عدة مرات، كيف يقدرّون على مغادرة مسقط رأسهم وعلى قطع صلاتهم بأهلهم... لكي يمارسوا تجارة لا تكاد تفى بحاجاتهم. وكان ردهم لا يتغير أبداً: "إننا نريد كسب "الجروش" (القروش)، فلماذا نبقى فى بلدنا؟

"فكنت أقول لهم: ابقوا فيها لكي تخلقوا لأنفسكم وسائل العيش. ألا تستطيعون زراعة الحبوب وتربية الماشية فيها؟"

"فكانوا يردون: لا؛ فهناك، ترهقنا الحكومة، والحبوب لم تعد تجلب لنا نقوداً.

"ولكن فى الواقع، فإن الحكومة ليست على هذا القدر من الجشع كما يدّعون؛ وكل ما فى الأمر، أنهم كسالى، وينفرون من العمل، وليس لديهم ما يدفعون للضرائب التى لا تزيد عن الضرائب المفروضة فى مصر".

إن بىكر لم يأل جهداً فى تحقير الإدارة المصرية بشكل منتظم ومستمر؛ أما مهمته الأساسية، فقد أداها بطريقة غير مرضية.

* * *

ثانياً: تقدّم حملة بىكر فى أفريقيا ونتائجها بالنسبة لمصر واتجلترا.

قاد بىكر حملة مؤلفة من ١٧٠٠ جندى وضابط ومهندس، و ٣٠ سفينة؛ وغادر الخرطوم فى شهر فبراير سنة ١٨٧٠. وكان جعفر باشا - حاكم السودان - قد نصحه ببدء حملته مع بداية موسم الأمطار عندما يرتفع منسوب المياه فى

النيل: فيسمح للسفن بالملاحة وسط النباتات الكثيفة التى تُعرقَل الإبحار فى النهر. ولكن بىكر تَصَوَّر - كما كان شأنه دائماً - أن الغيرة والنوايا السيئة هى الدافع وراء هذه النصائح؛ فلم يكثر بها ورحل مع حملته متجهاً إلى خط الاستواء.

وعندما وصل إلى "بحر الزراف"، لم يستطع أن يَشُق طريقه بين "السدود" (النباتات الكثيفة التى تَسُد مجرى النهر)، فاضطر - فى شهر أبريل - إلى أن يأمر رجاله بالعودة إلى "الخرطوم" التى وصلوها يوم ٢١ سبتمبر.

وفى "الخرطوم" علم بىكر أن العقَّاد - أهم تاجر فى منطقة النيل الأبيض - قد تعاقَد مع حكومة السودان لكى تمنحه احتكار تجارة العاج فى منطقة تبلغ مساحتها حوالي ١٢ ألف كم مربع مقابل تسديد مبلغ ثلاثة آلاف جنيه سنوياً. وفى الواقع، فإن هذا العقد يعنى السماح للنخاسين باجتياح هذه المنطقة لصيد الحيوانات والعبيد ومبادلتهم بالعاج فى مناطق أخرى.

ومع أن سلطات بىكر لم تكن تسرى على منطقة "النيل الأبيض" - فيما بين مدينتى "الخرطوم" و"جوندوكورو" - إلا أنه اعتبر هذه المنطقة بأكملها خاضعة لسلطاته على الرغم من أن الحكومة قد قامت بتأجيرها. ولم يهتم بىكر مطلقاً بمصالح المستأجرين؛ وأثناء انتظاره لوصول قرار الخديوي، استولى على سفنهم، وسجن وكلاءهم، وأطلق سراح عبيدهم، وصادر العاج.

وعندما أدرك - فى النهاية - أنه قد ظلم الشيخ أحمد العقاد، طلب تدخل جعفر باشا لتعديل بنود العقد، ولكى يجعل الإيجار النقدى السنوى يدفع عيناً بما يساويه من عاج حتى نهاية مدة سريان العقد فى سنة ١٨٧٢. وقد علق بىكر على ما حدث بقوله: "كان من الضرورى استخدام بعض من الدبلوماسية لتهدئة الأمور فى "الخرطوم". لقد كنت متسامحاً للغاية تجاه المعوقات السلبية التى تضعها سلطات الخرطوم فى سبيلي. لقد كان ذلك طبيعياً للغاية نظراً للوضع الذى نشأ نتيجة لهذا الإصلاح المفاجئ الذى أثر - مادياً - على مصالح السكان جميعاً وعلى طبقات المجتمع"^(٩).

إن خطأ بيكر الأساسى يكمن - تحديداً - فى "هذا الإصلاح المفاجئ" الذى تعارض تماماً مع التقاليد المتوارثة: فلقد تصرّف بيكر كما لو كان هدف حملته هو خلق حالة ثورية فى هذه المنطقة وليس إقامة حالة اجتماعية جديدة هناك؛ فالنخاسة كانت لها ارتباطات متشعبة للغاية فى جميع أرجاء السودان؛ وحتى لو لم يلغها بيكر، فإن تصرفاته كانت كفيلة باستثارة القبائل (التي أصبحت مسالمة بصعوبة) والتجار وأنصارهم، وبدفعهم لتحدى السلطات المصرية وعدم احترام النظام القائم والتمرد عليه.

وقضى بيكر بضعة أشهر فى "الخرطوم" ليدارى أول فشل منى به، ثم قرر الرحيل مجدداً يوم ١١ ديسمبر. وعلى الرغم من المشاكل الخطيرة التى واجهها، إلا أنه استطاع - فى هذه المرة - أن يجتاز بسفنه "السود" الكثيفة، ووصل إلى جوندوكورو يوم ١٥ أبريل، ولكنه لم يضمها رسمياً إلى مصر إلا يوم ٢٦ مايو، وأطلق عليها اسم "الإسماعيلية". وبعد ذلك، أُنذر قبائل "باري" المجاورة بضرورة الخضوع لسلطة الخديوي. لكن هذه القبائل المحاربة غضبت من الطريقة التى عاملهم بها، فثارت ضده، واضطر لأن يخوض معارك حقيقية ضدها.

وبفضل شجاعة قوة مصرية صغيرة - يقودها الكولونيل المصرى المشهور عبد القادر حلمي (هو نفسه عبد القادر باشا حاكم السودان المقبل) - استطاع بيكر هزيمة قبائل "باري" المتمردة التى لم تستطع مواجهة الأسلحة الحديثة الموجودة لدى هذه القوة الخاصة.

يَبْدُ أنه كان من الصعب الانتصار على هذه القبائل وإخضاعها تماماً؛ ولم يكتف بيكر بقتل رجال منها بل شن عليها الغارات، وسلب منها الآلاف من رؤوس الضأن والماشية، ومحصول الذرة لإعاشة قواته.

وحول مدينتي "جوندوكورو" و"لادو"، كان السكان ينتمون لقبائل "باري". ولذلك، انعدم الأمن، ولم يكن بمقدور أى جندي الابتعاد عن هاتين المدينتين وإلا

تعرضت حياته للخطر. وكان المستكشف الإيطالي "جيسي" (Gessi) يرافق حملة بيكر، وزار "لادو" في سنة ١٨٧٤، وكتب عنها ما يلي: "لقد عانى سكان لادو أشد المعاناة في عهد السير صمويل بيكر: فذات يوم، أخذ السير بيكر ٣٠٠ جندي وفاجأ السكان الذين لم يتوقعوا مثل هذه الزيارة؛ واستولى منهم على ١٢ ألف رأس من الماشية، وكل محصول الذرة.

"ومنذ ذلك التاريخ، ازداد فقر هذه البلاد، وكان لابد من مرور سنوات عديدة لتعويض هذا العدد من الماشية التي كانت - فيما مضى - تمثل المصدر الوحيد للثروة لديهم.

"وتميز الضابط إسماعيل أغا من بين الضباط الحملة، وهو الضابط نفسه الموجود معي الآن في "لادو". وحكى لى هذا الضابط والجنود عن أعمال وقعت في عهد الحاكم العام السابق (بيكر) وبلغت من القسوة حدًا يأبى القلم وصفه"^(١٠).

وفي شهر يناير سنة ١٨٧٢، اتجه بيكر جنوبًا؛ وخلال مسيرته، أقام مركزًا عسكريًا في "فاتيكو" التي كانت تُعتبر مقر قيادة النخاسين، ثم وصل إلى "ماسيندي" عاصمة مملكة "أونيورو" التي يحكمها الملك "كابا - ريجا".

وتوهم بيكر أن نشر الخوف والرعب - بين صفوف السكان - سيمكنه من السيطرة على الملك وشعبه: فعامله على أنه "مجرد زنجي"^(١١)؛ ولم يلبث أن اختلف معه، وعزله، وأعلن ضم مملكة "أونيورو" إلى مصر (١٤ مايو سنة ١٨٧٢). ولكن بعد فترة وجيزة، اضطر بيكر ومعه حفنة من الرجال - الذين أنهكهم التعب والمعارك - للنقحُر وسط الأدغال والغابات والعداء العام يتزايد ضدهم.

وبعد انسحاب بيكر من "أونيورو"، شُنَّ حملة جريئة (في أغسطس سنة ١٨٧٢) على النخاس "أبو سعود" - وكيل "العقاد" في مدينة "فاتيكو" - وسجنه، وقام بتجنيد بعض رجاله، ونفى الباقيين خارج البلاد، وصادر ما كان لديهم من

عاج فى جميع المحطات (حوالى ٧٥٠ قنطاراً) بحجة أن هذه الكمية قد تمت مبادلتها مقابل ماشية وعبيد اختطفوا من هنا وهناك.

وأخيراً، وبعدما قام بيكر "النشيط" بنشر الفوضى والرعب فى كل مكان - من "الخرطوم" حتى "ماسيندي" - رجع إلى "جوندوكورو" فى الأول من أبريل سنة ١٨٧٧، وهو تاريخ قرب انتهاء مهمته.

وبتاريخ ٢٤ أغسطس، وصل بيكر إلى القاهرة بعد ما سلم قيادة الحملة إلى ياوره "رؤوف بك"؛ ثم قَدَّم استقالته من منصب "حاكم إكواتوريا" (أى "مديرية خط الاستواء") وخلفه الكولونيل جوردون فى هذا المنصب.

لقد تكبدت مصر مليوناً من الجنيهات بسبب هذه الحملة التى قادها السير صمويل بيكر والتى لم تسفر إلا عن نتائج هزيلة: فكل ما حققه بيكر كان مؤقتاً وسطحياً سرعان ما زال، رغمًا عن إدعائه بأن الفضل يرجع إليه فى إقامة حكومة "أبوية" بسطت حمايتها على بلاد كانت الفوضى والعبودية ترتعان فيها حتى ذلك الحين. ولم يتبق أى أثر لما أقامه بيكر لا فى الحكم ولا فى التجارة.

لقد شَنَّ بيكر حربه على النخاسين ولكنه لم يبلغ النخاسة: فقام بحملة على ضفاف أعالي النيل، وصادر كل السفن المحملة بالعبيد، بما فيها سفينة كبيرة كانت محملة ببضائع خاصة بمدير (حاكم) "فاشودة"؛ لكن الجلافة كانوا قد سلكوا طريقاً آخر!!!

ويذكر شفاينفورت ما يلي: "كانت الحكومة المصرية وبيكر يستطيعان القيام بدور الشرطة النهرية، وشعرا بالسعادة لأنهما استطاعا تنظيف هذا النهر الطويل الذى كان مَحَطَّ كل الأنتظار؛ ولكنهما - فى غمرة هذه السعادة - لم يدركا أن ضفَّتَى النهر لم تكونا تحت سيطرتهم. وبالنسبة لمن كان يصل إلى هذه المنطقة، فإنه كان يرى الوضع الحقيقى بعينه: إن الإعلان عن إلغاء الإتجار فى البشر - فى بلاد النيل - كان يشبه القرى التى كان الحكام الروس يجعلون القيصرة كاترين

الثانية تراها خلال جولاتها في جنوب روسيا: فقد كانت هذه القرى مجرد ديكور ولا شيء غير ذلك^(١٢).

ولسوء الحظ، فإن هذا الديكور كان يتعارض مع العقل السليم لأن بيكر لم يكتف بمجرد غزو وسط أفريقيا غزواً سطحياً، لكنه - أيضاً - جعل الجميع يسخطون عليه أثناء جولاته العسكرية: فقد كان يستخدم دائماً وسائل متعسفة وغير سياسية في تعامله مع الأهالي؛ وذلك على الرغم من التحذيرات العديدة التى تلقاها من القاهرة للكف عن هذه الممارسات.

وفى شهر فبراير سنة ١٨٧٢، وجّه الخديوى له الرسالة التالية: "تلقيتُ تقريرك الذى أرسلته إلى بتاريخ ٨ أكتوبر من محطة "الإسماعيلية" التى وصلتُ إليها بعد رحلة دامت نحو خمسة أشهر... وكنتُ قد منحتُ "العقاد" مهلة لى ينسحب من السودان ويتوقف عن التجارة التى يمارسها.

"إن موعد انتهاء هذه المهلة يقترب وأراك تعتقد بأنه من الأفضل ضم رجاله إلى قواتك، بل إنك ترى أنه من الأفضل أن تستبدل كل قواتك برجال كانوا منضمين لعصابات "العقاد" بحجة أنهم معتادون على المشاق وأكثر خبرة بشئون البلاد.

"إننى أختلف معك تماماً فى هذه النقطة: فحملتك هدفها نشر السلام والتقدم، ومطلوب منك أن تعتقد مصالحة بين سكان البلاد الأصليين والرجل الأبيض الذى دخل بلادهم ولم يمارس - حتى الآن - سوى قتلهم ونهبهم واستعبادهم.

"ومن هذا المنطلق، فإن السكان إذا رأوا أتباع "العقاد" يعملون تحت إمرتك، فإنهم - بالضرورة - سيعتقدون بأن النظام القديم لم يتغير، وأنك لن تجلب لهم السلام ولا الطمأنينة. وسيعتقدون بأنك - بدلاً من أن تنتشر الهدوء والنظام بينهم - قد أتيت إليهم مثل النخاسين السابقين (بل وأقوى من النخاسين) لى تسلبهم محصول الذرة ومواشيهم وتستعبدهم.

"وعلى عكس ما تتوى فعله، يجب عليك أن تبذل جهداً لكى ينطبع فى أذهان شيوخ القبائل الفارق بينك وبين النخاسين السابقين. إن هذه النقطة هامة للغاية ورئيسية ويجب ألا تغيب عن نظرك أبداً. وإذا كنت قد فهمت تقريرك جيداً، فإننى أشعر بالأسف لوجود نقص فى الذرة والمؤونة لديك، ولأنك قد اضطررت للجوء للقوة للحصول عليهما من السكان المحليين الذين رفضوا تزويدك بهما. لقد خلطوا - فى أذهانهم - بين رجالك وبين رجال العصابات الذين كانوا يهوبونهم باستمرار...

"وطبعاً، يجب على أن أخبرك بأفكارى التى أرجو أن تتصاع لها: لقد وصلت إلى بلد جميل وخصب، ويحيطك فيه سكان مرتابون وأصبحوا أعداء بسبب التصرفات السابقة التى مارسها النخاسون ضدهم. وأول ما يتوجب عليك فعله هو أن تنتهى هذه الممارسات. إن خطوط مواصلاتك مع "الخرطوم" طويلة وصعبة. وفى مثل هذه الظروف، أرى أنه من الخطر عليك أن تتقدم إلى أبعد مما وصلت إليه تاركاً خلفك قبائل معادية لم تتصالح معها بعد.

"ولذلك، يجب عليك أن تتوقف فى "جوندوكورو"، وتتخصّن فيها، وتبدأ مهمتك، واستخدم كل الوسائل لكى يعرف شيوخ القبائل ما تقوم به، واحتكر التجارة كما اقترحت على: فاحتكار التجارة ضرورى لإبعاد المهربين الذين يستخدمون العبيد بدلاً من النقود فى عمليات المبادلات التجارية. ولكن يجب أن تمارس الاحتكار بنزاهة وكرم وبدون تضيق على الناس فى معيشتهم؛ وعندئذ، ستستطيع أن تجعل السكان يتركون - بسرعة - فائدة غير مشروعة مقابل حصولهم على فوائد مشروعة غيرها.

"وأريد معرفة نوعيات البضائع التى يهتم بها السكان المحليون - أكثر من غيرها - لكى أتبادلها معهم.

"إن إنجيلباتون (Ingelbathon) موجود معك، ولكننى أعتقد بأن مهندس واحد لا يكفي؛ ولذلك، سأبحث إليك بمهندس ثان ليكون تحت أمرك؛ وعليك الاهتمام بالبحث عن وسيلة لتيسير اتصالاتك بالخرطوم.

"إن شيوخ قبائل "باري" ينظرون إليك على أنك رجل قوي، فكن قويا وعادلاً أيضاً ليتقوا بك، ولیدركوا -بسرعة- أنك قد جئت لديهم لکی تعلّمهم.

"إن تنفيذ هذا العمل الأخلاقي والمادى سيأخذ منك وقتاً لا أعرف مداه؛ ولكن عندما تُنجز جزءاً مُعيناً منه، ستجد إنك قد فتحت طريقاً سبيلاً إلى منطقة "البحيرات" بدون مغادرة "جوندوكورو".

"لقد رسمت لك الخطوط العريضة للسلوك الذى أرجو أن تتمسك به تاركاً لذكائك إيجاد وسائل التنفيذ. وباختصار، عليك ألا تتقدم لما هو أبعد من "جوندوكورو"، استعمر، وعلم السكان، وصادقهم؛ وعندما تُحقّق ذلك، تقدّم" (١٣).

كان ذلك هو مفهوم إسماعيل عن هدف حملة بيكر؛ ولسوء الحظ، فإن هذا الدرس السامى لم يكن له أى تأثير على بيكر الذى لم يسع إلى تدعيم أى شيء قام به: فقد كان يتعجّل إنهاء مهمته. إن "مديرية خط الاستواء" - التى أنشأها - لم تُوجد إلا بالاسم فقط؛ والطواف فى الأرجاء الشاسعة لوسط أفريقيا، وضمتها إلى مصر - على الورق فقط - لا يعنى أبداً السيطرة عليها أو استعمارها، خصوصاً وأن بيكر خلق أعداء فى كل مكان. لقد فعلت الحملة كل شيء ماعدا نشر السلام والتقدم.

إن بيكر قد بدّد أموال مصر فى مغامرة شائنة، ومنع إنشاء خطوط مواصلات منتظمة فى السودان مع إن المواصلات وثيقة الصلة بموضوع إلغاء النخاسة، وكان الربط بين هذين الموضوعين واضحاً فى ذهن الخديوى.

وفهم شفاينفورت وجهة نظر الخديوى فكتب ما يلي: "فى أثناء رحلتي، كانت ممارسة التجارة - فى منطقة أعالي النيل - تتعرض لمخاطر مالية عظيمة، ولم

تكن أمامها أفاق باهرة: فقد كانت تعتمد - حينذاك - على نجاح حملات الغزو التي تسرق المواشي، وتستعبد البشر، وتنهب ما تستطيع نهبه من الحبوب والمحاصيل الأخرى...

وفي تلك المناطق البعيدة، لم يُبال أحد بالحكومة. وعندما كانت هذه الحكومة ترغّب في حماية التجارة المشروعة، لم يكن بمقدورها تنفيذ ذلك. وبالتالي، فإن أى مشروع تجارى مبنى على أسس قانونية كانت فرص نجاحه معدومة... وأراد إسماعيل تحقيق هذا الهدف لثقتّه فى نجاحه: فاقترح مدّ خط سكة حديد يربط الخرطوم بالبحر المتوسط. فإذا وضعنا فى الاعتبار الحالة كما قدمتها، فإن هذا المشروع يستحقّ الدعم من كل من يأملون فى فوز القانون فوزاً نهائياً على القوة^(١٤).

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن اختيار المهندس الإنجليزي فويلر (Fowler) كان بناءً على توصية من ولى عهد بريطانيا لمد خط سكة حديد السودان؛ وكان هذا الخط سيتم بالتزامن مع تقدم السيطرة المصرية وانتشارها فى تلك الأماكن، وكان يُنظر إليه على أنه الشريان الحيوى لهذه الإمبراطورية الجديدة.

وكان بيكر قد وعدَ بأن حملته ستستطيع - رويذا رويذا - تغطية نفقاتها بل وستحقق مكاسب لمصر. ولكن - خلال السنوات الأربع التى استغرقتها هذه الحملة - تسبّب بيكر فى زيادة الأعباء على كاهل الخزانة المصرية علماً بأنه لم يلمس مرتبه - وتركه لدى المصارف - حتى بلغ ٤٠ ألف جنيه (بواقع ١٠ آلاف جنيه فى السنة الواحدة) أى ما يُعادل مليون فرنك^(١٥).

ونشر المستر هيل (Hill) مراسلات الكولونيل جوردون - الذى خلفَ بيكر فى منصبه - وعلقَ قائلاً: "إنه (أى جوردون) قد استكمل ما بدأه السير صمويل بيكر. وعند وصوله، وجد القوات المصرية تحتل ثلاث محطات فقط، وكانت هذه المحطات الثلاث البائسة - مع خط حدود وهمى - تُشكّل ما سُمّي بمديرية "خط

الاستواء". وكانت المحطة الأولى مقامة في "جوندوكورو"، والثانية والثالثة في جنوبها في مدينتي "فاتيكو" و"قويرا"؛ ولتزويدهما بالموثونة أو الرسائل، كان لابد من إرسال عدد كبير من القوات"^(١٦).

وحظيت حملة بيكر بكَراهية شعبية جارفة: فقد استخدم إجراءات عنيفة ضد الملك "كابا - ريجا"، وسكان "ماسيندي"، والنخاسين، وقبائل "باري" - في وقت واحد - فتسبب في كراهية الرأي العام السوداني للسلطات المصرية. وكذلك، لأن الآلاف من رعايا الخديوى - في تلك المناطق - كانوا يكسبون رزقهم من الإتجار في "خشب الأبنوس" أو "العاج الأسود" (كما كانوا يُطلقون على النخاسة) الذى كان يمثل ثروتهم الوحيدة؛ فتسببت سياسة بيكر في إفلاسهم بين يوم وليلة.

لكن الكوارث التى تكبدتها مصر من جراء حملة بيكر لم تكن مهمة!!! فهذه الكوارث كانت تصب أخيراً في صالح إنجلترا. وعندما رجع بيكر إلى لندن - قرب نهاية سنة ١٨٧٣ - كتب إليه أحد أعضاء الوزارة الإنجليزية مُشجعاً: "أياً كانت نتيجة مسألة النخاسة، فإن حملتك - بالتأكيد - قد عملت على زيادة انتشار النفوذ الإنجليزي في مصر. فمتى سنرى السفن البخارية تُشَق مياها "البحيرات" بينما ترفرف عليها الراية الإنجليزية؟ ومتى سنرى خط مواصلات منتظم يسير من "البحيرات" حتى القاهرة؟ وفى الوقت الحالي، فإن أعظم شيء - فى العالم أجمع - هو رؤية التقدم المؤكد والسريع الذى نُحرزه بتوغلنا فى أفريقيا ومن المؤكد أن الطريق إليها يبدأ - أساساً - من أرض مصر"^(١٧).

وبعد أربع سنوات من انتهاء الحملة، أشار السير صمويل بيكر نفسه إلى هذا المعنى تقريباً فيما يتعلق بالنتائج السياسية لحملة؛ ففي أثناء مناقشة موضوع "المسألة الشرقية" - بعد توقيع "اتفاقية برلين"^(١٨) -، كتب بيكر ما يلي: "إننى أأمل راضياً بالتغيرات التى حدثت فى مصر، والزيادة الهائلة للنفوذ الإنجليزي فيها.

[٢] "اتفاقية برلين": اجتمعت ألمانيا وبريطانيا العظمى وبلجيكا وفرنسا والبرتغال وتركيا لتنظيم التجارة فى أفريقيا. ولكن المؤتمر سرعان ما تحول إلى سباق بين الدول

وترجع بداية هذه الزيادة إلى سنة ١٨٦٩ عندما استخدم الخديوى - للمرة الأولى - موظفًا إنجليزيًا ومنحه سلطات واسعة لإلغاء النخاسة فى وسط أفريقيا. إن هذا الإجراء قد أرسى قواعد الإصلاحات (كذا!!) التى تمت منذ ذلك التاريخ. وعند انتهاء حملتى - فى سنة ١٨٧٣ - خلّفنى جوردون فى منصبى واستكمل ما بدأتُه.

"إن الحرب ضد النخاسة قد فتحت الباب أمام التدخل البريطانى فى تلك المنطقة: فمالكولم (Malcolm) دخل فى خدمة الخديوى لإلغاء النخاسة فى البحر الأحمر وحصل على رتبة "باشا"، وحصل ماك كيللوب (Mc Killop) - أيضًا - على الباشوية، وسنجد أربعة من الإنجليز قد حصلوا على سلطات لم يسبق لأحد من مواطنينا الحصول عليها...

"وفى الحقيقة، فإن بلذا عدوانيًا - على الدوام - مثل إنجلترا لا يستطيع أبدا أن يتوقف عندما يريد ولا عندما يرغب فى التوقف: فالظروف تدفعنا إلى الأمام وتجبرنا على توسيع حدودنا حتى ولو لم نرد ذلك"^(١٨).

لقد درسنا - حتى الآن - المرحلتين اللتين مرَّ بهما التدخل الإنجليزى بحجة محاربة النخاسة فى وسط أفريقيا (١٨٦٩ - ١٨٧٣) وفى البحر الأحمر (١٨٧٧ - ١٨٧٨)، ويتبقى علينا - الآن - دراسة المرحلتين الحاسمتين: فى الحبشة والسودان (١٨٧٤ - ١٨٧٩) حيث تعمَّد الأوروبيون التضحية بمصالح مصر.

* * *

الأوروبية لتحديد مناطق النفوذ السياسى لكل منها فى أفريقيا، وتم ترسيم الحدود فى قارة لم تكن قد اكتشفت بعد بالكامل [المترجم].

هوامش الفصل الثالث عشر

- (1) Dr. Russel : "Diary in the East". London. 1869.
- (2) D. Murray and Silva White: "Sir Samuel Baker, A"memoir", London. 1895.
- (3) D. George Schweinfurth: "Au Coeur de l' Afrique (1868 - 1871)," Traduction française par Mme H. Loreau.
- (4) D. Murray: Ibid.
- (5) Samuel Baker: "Ismaïlia". T. I., Pp. 22 - 23.
- (6) Samuel Baker: "Decouverte de l' Albert - Nyanza," Traduction française par G. Masson. Paris, librairie Hachette, 1868. Pp. 8 et 9.
- (٧) كتب الرحالة الدكتور يونكر (Junker) عن "كسلا" ما يلي: "إن موقع 'كسلا' الرائع بين 'سواكن' (الميناء الطبيعي لشرق السودان) ومقاطعتي 'تاكنا' و'جيدارييف' (الغنييتين بالحبوب) قد جذب إليها الكثير من السكان..."
- "ولاية 'تاكنا' بها أرض خصبة تصلح لزراعة الحبوب والقطن. إن تطوّر التجارة في 'كسلا' قد ارتبط بسهولة المواصلات، أي منذ سنة ١٨٦٠: ونشطت حركة التجارة - على وجه الخصوص - مع مناطق النيل الأزرق (بما فيها الخرطوم)، و'الجيدارييف'، و'سوق أبو سن'، والبحر الأحمر. وتصل إليها يوميا عشرات القوافل؛ أمّا الجمال - التي تبرك خارج أسوارها - فتعدّ بالآلاف."
- كتاب: "Reisen in Africa"
- (8) Dr. George Schweinfurth, Ibid.

(9) Samuel Baker: "Ismailia", T. I. P. 160.

(10) Romolo Gessi: "Sette anni nel Soudan Egiziano.

(١١) هذا ما صرَّح به "كاتبًا ريجا" للدكتور أمين أفندى (Schmitzer). راجع مقتطفات من رسالة وَجَّهَهَا الدكتور أمين أفندى إلى صاحب السعادة جوردون باشا. وهذه الرسالة مكتوبة في "مزولي" (Mrooli) بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧. (المحفوظات المصرية، قصر عابدين، القاهرة).

(12) Dr. G. Schweinfurth, Ibid.

(١٣) المحفوظات المصرية. قصر عابدين، القاهرة: رسالة من الخديوى لصمويل بيكر، فبراير سنة ١٨٧٢.

(14) Dr. G. Schweinfurth, Ibid.

(15) W.S. Blunt: "Gordon at Khartoum".

(16) Hill: "Colonel Gordon in Central Africa".

(17) D. Murray, Ibid. P. 210.

وهي رسالة لا تحمل تاريخاً محدداً.

(18) D. Murray: Ibid. Pp. 270 - 271.

رسالة من بيكر إلى اللورد وارينكليف (Wharncliffe) مكتوبة في داتماوث (Datmouth) بتاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٨.

* * *

الفصل الرابع عشر

حرب الحبشة (١٨٧٥-١٨٧٦)

- ١- أسباب الخلاف بين مصر والحبشة، والدور المشبوه الذى لعبته فرنسا وإنجلترا.
- ٢- حملتا سنتى ١٨٧٥ و١٨٧٦، وأسباب الهزيمة ونتائجها.

حرب الحبشة (١٨٧٥-١٨٧٦)

أولاً: أسباب الخلاف بين مصر والحبشة والدور المشبوه الذى لعبته فرنسا وإنجلترا

ذكر المستر كيف فى تقريره المشهور ما يلى: "من وجهة النظر التجارية، كان احتلال "دارفور" والحملة على منطقة "البحيرات الاستوائية" مشروعات فاشلين. وكان الخديوى قد التزم - لدرجة معينة - بإلغاء النخاسة، ولكن "حرب الحبشة" فرضت عليه".

لقد نسب الكثيرون أسباب "حرب الحبشة" إلى أطماع الخديوى إسماعيل، ولكن "تقرير كيف" يستحق أن ندرسه ونستوعبه. وفى الحقيقة، فإن إنجلترا نجحت فى جر مصر للقيام بمغامرات سياسية ومالية بحجة إلغاء النخاسة. ولكن فيما يتعلق بموضوع "حرب الحبشة"، يمكننا القول بأن حكومتى إنجلترا وفرنسا مسئولتان عنه - بالقدر نفسه - ومشاركتان فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ونتيجةً لوضع الحبشة الجغرافى، فقد كان حتماً عليها أن تدور فى فلك النفوذ المصرى؛ ولكن أطماع إنجلترا وفرنسا لم تتوقف أبداً: فلولا إنجلترا، لاحتلها محمد علي. وفى عهد إسماعيل، اعتبرت القوتان الحربيتان نفسيهما مدافعتين عن المسيحية: فمنعتا مصر من التصرف بحرية فى هذه المنطقة لسنوات طويلة.

ومنذ عهد محمد علي، نشبت مشاكل حدودية بين مصر والحبشة، وكانت فرنسا تطمع فى الاستيلاء على "بوجوس" - تحديداً - وهى مدينة تقع على الحدود بين البلدين. وقام المبشرون الفرنسيون - من طائفة "اللازارية" Lazariste - بالدعاية الدينية والسياسية، وأعطى الأب ستيل القُدوة السيئة فى هذا المجال: ولننذكر أنه - فى بداية عهد إسماعيل - اشترك مع المغامر بيزون فى محاولة إشعال نيران الحرب بين مصر والحبشة^(١).

وهذا المبشر هو نفسه الذى كان يبعث بتقارير تحريضية لحكومة بلاده ضد سيطرة مصر على "بوجوس"، ويحثها على التدخل لصالح المسيحيين، علماً بأن المسلمين كانوا يُشكّلون أغلبية السكان فى هذه الولاية.

وبتاريخ ٩ مايو سنة ١٨٦٥، ذكر القنصل الفرنسى فى مصر لحكومته ما يلي: "قال لى الخديوى إسماعيل إنه يريد - قبل كل شيء - معرفة كيف ستتدخل حكومة الإمبراطور لصالح "بوجوس". وحسبما قال لى، فإن القنصلين السابقين لفرنسا كانا قد أعلنّا بأن المسيحيين وأرضهم يحظون بالحماية الرسمية من قبل فرنسا؛ وبالتالي، فإن فرنسا لها حق مباشر وتام فى التدخل. وعارض الوالى هذا التدخل بشدة، وذكر لى السوابق التاريخية التى تُثبت أن "بوجوس ملك لمصر"^(٢).

ولكن حكومة فرنسا تشبّثت برأيها، وقَدّمت إيضاحاً أكثر فاعتبرت أن "بوجوس" - التى يحتلها المصريون - "هى ولاية فُصلت عن الحبشة وليس لمصر أى حق فى السيادة عليها"^(٣). وربما كانت فرنسا تسعى لزيادة حدة الصراع بين مصر والحبشة - الذى تسبّب فيه الكونت دى بيزون - لكى تُوطد حقوق لها فى تلك الولاية التى - فى نهاية الأمر - يجب أن تتبع مصر أو الحبشة فقط.

وفضلاً عن ذلك، فالنجاشى تيودور (١٨٥٥ - ١٨٦٨) علم بتحريض الأب ستيللا للكونت دى بيزون لإقامة مشروع استيطانى على أرض "بوجوس"، فأمر "هيلو" - حاكم "هاماسين" - بالتوجه إلى "كيرين"، والقبض على "ستيللا" وإحضاره إليه. ولكن "ستيللا" علم بهذا الموضوع فى الوقت المناسب فهرب إلى وادى "سنيهيت". ومن المؤكد أن هذا الكاهن كان يحظى بتأييد قوى خفية شجعتة على تصرفاته هذه: فرئيسه المباشر - المسيو إيتيان - كفّ عن إرسال الأموال إليه ليُجبره على الرحيل من هذه المنطقة. لكنه لم يرحل، وعمل لدى الشركة السياسية الزراعية "بالميرو دى بيزون" التى سبق لنا وأن تحدثنا عنها^(٤).

ومن وجهة النظر الدينية البحتة، فإن أغلب قبائل ولاية "بوجوس" كانت قد اعتنقت الإسلام (مثل قبائل "هاجر")، ولكن قبائل "بوجوس" اعتنقت المسيحية بعدما

بَنَى المبشرون "اللازاريون" كنيسة في كيرين "لحماية المسيحيين من السيطرة الإسلامية عليهم".

وفي الحقيقة، فإن النفوذ الديني المسيحي كان يخدم أغراض السياسة الفرنسية. ومنذ ذلك الحين، سَعَت فرنسا لوقف انتشار الدين الإسلامي في أفريقيا بهدف إضعاف القوة السياسية العظيمة التي كان الإسلام يتمتع بها في القارة السوداء. فبتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٦٩، كتب المسيو پوجاد ما يلي: "إن صاحب السمو نفى بوضوح وجود أية نية لديه لكى يجعل الإسلام يُهيمن على الحبشة، بل إنه اشتكى لى من أنه لا يستطيع عمل أى شيء لحماية رعاياه المسلمين هناك.

"وقال الوالى بالنص: "سأتكلم بصراحة شديدة؛ ففي كل مرة عندما كانت مصلحتي تُحتم على أن أتحرك، كان قنصل فرنسا العمومى يتدخل لدرجة أنه ألغى سلطاتي. إنكم - بذلك - لم تكسبوا شيئاً ولكننى خسرتُ. وأنا لا أحب رؤية الإنجليز يوطدون نفوذهم فى الحبشة بقوة، بل إننى أفضل تأثير مبشريكم إذا لم يتعارض ذلك مع مصلحتي"^(٥).

ثم أشار إسماعيل إلى الحماية التى يُسبغها على المذهب الكاثوليكي فى ولاياته، وطالب بوجود اتفاق مصري/ فرنسى فيما يتعلق بشئون الحبشة. ولكن الخديوى نسي أن فرنسا وإنجلترا كانت لهما مصلحة مشتركة فى إضعاف مصر على الرغم من وجود المنافسات التى كانت تُفرقهما.

وطالما كان الخديوى فى وضع مالى وسياسى جيد، كانت القوتان تعارضان أى تدخل مصرى فى الحبشة. وبتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٦٩، كتب قنصل فرنسا لحكومته ما يلي: "بعث مونتنزينجر - وكيلنا فى مصوع - رسالة يخبر فيها بأن الأمير "كاسا" طلب مساعدة والى مصر ضد "جوباسي" الذى سيهاجم "كاسا" فى غضون هذا الشهر. ولم ينف الوالى هذه الواقعة... ولم أخف عن الخديوى رأى فى أن حكومة الإمبراطور لا توافق على تدخل مصر فى الحبشة لأنها حريصة على الحفاظ على استقلال هذا البلد المسيحي"^(٦).

وفى سنة ١٨٧٢، أصبح الأمير "كاسا" هو الملك يوحنا الثاني؛ وشجعه المبشرون والعملاء الإنجليز والفرنسيون على المطالبة باسترجاع "بوجوس" التى كانت قد ألحقت - ضمنيا - بولاية "تاكّا" منذ غزو محمد على للسودان، بل وشجعوه أيضا على المطالبة باستعادة كل مساحة مملكة أثيوبيا القديمة.

ولذلك، كلف يوحنا مغامرا إنجليزيا اسمه كيركهام (Kirkham) بقيادة جيوشه بعدما كان يعمل موظفا على سفينة بخارية فى البحر الأحمر، بل وأرسله (سنة ١٨٧٢) فى مهمة دبلوماسية إلى أوروبا لعقد تحالف ضد مصر. ومن جهة ثانية، قام الميسو سارزك (Sarzec) - نائب قنصل فرنسا فى مُصوُع - بمساع لدى الملك "جان" (Jean أو "يوحنا") ليطالبه بالتسامح مع البعثة التبشيرية الكاثوليكية - فى المستقبل - وفتح قنصلية فى "عدوة" مقابل وعد بتأييده ضد مصر فى مسألة "بوجوس" وغيرها.

ولم تتوقف دسائس قنصل فرنسا فى مصوع والمبشرين عند هذا الحد: فقام عملاء فرنسيون بتصدير كميات كبيرة من الأسلحة إلى الحبشة - عبر "سواكن" و"مصوع" - واستخدمها الأحباش فى شن غارات على الحدود المصرية؛ فأصدر شريف باشا (وزير الخارجية) فى شهر يوليو سنة ١٨٧٣ - قرارا بمنع إرسال أى نوع من الأسلحة إلى الحبشة عبر الأراضى المصرية. ولكن الغارات لم تتوقف مما أجبر مصر على وضع جيش قوى على حدودها مع الحبشة التى شنت حرب عصابات - على مصر - أسوأ بكثير من الحرب الصريحة والمعلنة.

وكان القنصل الإنجليزى بالإنابة - المستر فيفيان - يجهل أن الجنرال كيركهام يعمل لحساب جهاز المخابرات البريطانية، فأجرى تحقيقا عن مختلف مظاهر الصراع المصري/ الحبشي؛ ثم أرسل - بتاريخ ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٣ - لحكومته مذكرة تفصيلية دقيقة حول هذا الموضوع بيا معلومات استقاها بنفسه من أحد السويسريين (مونترينجر بك) الذى كان يشغل منصب القنصل السابق لفرنسا فى مُصوُع، ثم دخل فى خدمة الحكومة المصرية وأصبح حاكما على السودان

الشرقي في سنة ١٨٧٣. ووصف المستر فيفيان المسيو مونتزينجر بأنه يبدو جازا وأميناً وذا كفاءة.

وكانت الولايات المتاخمة للحبشة تنقسم إلى ثلاث مناطق تخضع لسلطة حكومة مُصَوَّع وهي: "سواكن" و"مصوع" و"تاكا". وأيضاً، فإن الحدود مع الحبشة لم تكن مُحددة بدقة؛ ولكن المصريين كانوا يُطالبون بكل الساحل، كما سيطروا على كل المناطق المنخفضة (وقاموا بحمايتها) تاركين الجبال للحبشة.

وفي رسالة وَجَّهها الملك يوحنا الثاني إلى اللورد جرانفيل، طالب بأن يمد نفوذه حتى خط الحدود المعترف به في أثناء حملة "مجدالا" (سنة ١٨٦٨)، أي على مناطق: "كايش"، و"ماريا"، و"دسال"، و"ماريكس"، و"بوجوس"، و"آيلات"، و"أرجادى - باغي"، و"إيورا"؛ بالإضافة إلى: "زوللا" و"أمفيللا" على البحر، وبلاد "الصومال" و"سانجاللا" و"ميتيما".

وأكد مونتزينجر أن منطقتي "ماريا" قد أصبحتا تحت سيطرة المصريين منذ فتح السودان، أي بين سنتي ١٨٢٥ و١٨٢٧. أمّا "بوجوس"، فإن حقوق مصر لا تبدو ثابتة بوضوح؛ وفيما عدا ذلك، فإن ملكية مصر "لمصوع" و"تاكا" ثابتة وواضحة. وبما أنه كان من الضروري إنشاء خط مواصلات يربط بين هاتين الولايتين، وبما أن هذا الخط كان يجب أن يمر عبر "بوجوس"، فإن ملكية مصر لبوجوس كانت حتمية. وكانت "آيلات" قرية صغيرة تقع على بُعد ٢٠ ميلاً من غرب مُصَوَّع، ولم تخضع أبداً للحبشة بل كانت تتبع مصوع دائماً.

وحوالي سنة ١٨٢٠، استولى الأتراك على منطقة "أرجادى - باغي" (أو "هاباب") وهي تقع بين "سواكن" و"مصوع" وكانت مستقلة حينذاك؛ ولم تُطالب بها الحبشة أبداً ولم تمارس عليها أي حق من حقوق السيادة.

أمّا "إيورا" فهو اسم قبيلة بدوية صغيرة متنقلة تعيش في الجبال التي تُشرف على مدينة مُصَوَّع، وكانت هذه القبيلة تخضع لحاكم مصوع. ويقع ميناء "زوللا"

و"أمفيللا" على البحر الأحمر جنوب مُصَوَّع، وهما تابعان لتركيا منذ ٢٥٠ عامًا ولا توجد للحبشة أية حقوق عليها.

وتقع "بلاد الصومال" جنوب "رأس جواردافوي" ولم تكن للحبشة أية علاقة بها في أى وقت؛ وفي الوقت نفسه، كانت الراية المصرية تُرفرف على "بربرة".

وتوجد بلاد "سانجالالا" في جنوب "تاكّا" حيث الأحباش ينزلون إليها لممارسة هوايتهم المحببة في السلب والنهب، ولم يكن لهم فيها أية حقوق ملكية؛ وفي الوقت نفسه، كانت مصر تحمي الجزء الواقع في شمال نهر "مارب" منذ ٤٠ سنة مضت.

وعلى بُعد أربعة أميال من "آيلات"، وحوالى ٢٥ ميلاً من مصوع - من جانب الحدود المصرية - تقع "سوبارجوم".

أمّا "ميتيما" فهو اسم لقبيلة أتت من دارفور واستعمرت هذا المكان، وكانت تدفع الجزية لمصر مقابل حماية مصر لها ضد غارات الأحباش، خصوصاً في عهد الملك تيودور.

وباختصار، فقد كانت مصر تمتلك - أو تحمي - كل خط الساحل وكل البلاد المنخفضة حتى الجبال - التي تركتها للحبشة - واحترمت مصر دوماً هذه الحدود، ولكن الأحباش كانوا يخترقون السهول باستمرار. وقال مونتزينجر إنه - لصالح البشرية - يجب أن تتولى حكومة دائمة ومنظمة حماية تجارة الساحل والسكان المسالمين، وأن هذه المهمة تقع على عاتق مصر^(٨).

واستمر المستر فيفيان في إجراء تحقيقه المحايد. وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٧٣، استفاد من مرور الأب فلاد (Flad) بمصر متوجّهاً إلى الحبشة، فسأله عن: شئون الحبشة، والولايات الحدودية، وقوة الملك ووضعه، ومواضيع أخرى كان الأب فلاد يعرفها معرفة عميقة. وذكر نائب القنصل أن هذا المبشر الإنجليزي أكد صحة كل المعلومات التي قدمها مونتزينجر^(٩).

ولم يكتف الأب فلاد بهذا القدر، فبعد وصوله إلى الحبشة، بعث بمعلومات إلى المستر فيفيان مفادها:

- ١- أن الملك رفض مقترحات الخديوى الودية.
- ٢- وأعلن أنه لن يُسلم الأتراك إلا إذا استعاد كل الأراضي التي كانت تمتلكها الحبشة فى الماضى، بما فيها ميناء "أمفيللا".
- ٣- وأنه مشغول حالياً بقمع التمرد الناشب فى "جودجام" ^(١١)؛ ولولا ذلك، لما تردّد فى مهاجمة المصريين لكى ينتزع منهم الولايات التى يحتلونها.

وانتظاراً لهذا الهجوم، استمر الملك يوحنا الثانى فى شن الغارات على أراضي الخديوي، وتبنّى موقفاً استفزازياً واضحاً، وأصبحت الحرب على الأبواب. وبتاريخ ٧ يونيو سنة ١٨٧٤، أصدرت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة لخصّت فيها المعلومات الواردة إليها من القاهرة، وجاء فيها ما يلى بالنص: "لقد أكّد الوالى نواياه السلمية للغاية، وهو يريد - فقط - أن يطمئن على حدوده؛ ولكنه أبدى استعداداًه لشن عمليات انتقامية إذا غزت الحبشة أراضيّه" ^(١٢).

وبتاريخ ١٨ يونيو سنة ١٨٧٤، أداّن الجنرال ستانتون - القنصل العمومى لإنجلترا فى مصر - الادعاءات المبالغ فيها التى يطالب بها الملك يوحنا الثانى: "إن هذه الادعاءات تتجلى بشكل أوضح فى الملاحظة التى أبداها الملك أثناء مناقشته مع الأب فلاد بخصوص مسألة حدود مملكته: فصاحب الجلالة قد ذكر أن أراضي أثيوبيا - فى الماضى - كانت تمتد حتى القدس، وأنه لن يتصالح مع الأتراك إلا بعد أن يصل إلى الحدود القديمة لإمبراطوريته" ^(١٣).

وكان قنصل الولايات المتحدة الأمريكية - المستر ر. بيردسلاى - يتفق مع فيفيان وستانتون على: "أن التحركات العسكرية على حدود الحبشة قد أثارت اهتماماً كبيراً فى مصر. إن احتلال مصر لولاية "بوجوس" منذ ثلاث سنوات ...

واستيلائها على ميناء زيلع - على البحر الأحمر - فى شهر يوليو الماضى، يبدو أنهما قد دفعا الملك يوحنا الثانى إلى شن عمليات هجومية، وأثارا لديه الحلم الطموح نفسه، أى الغزو، الذى حرك الملك تيودور من قبل وأدى إلى سقوطه نهائيا^(١٣).

وحتى ذلك التاريخ، كانت حكومتا إنجلترا وفرنسا تمنعان مصر من مهاجمة الحبشة، ولكنهما أصبحتا - الآن - تعلنان حياداً رسمياً، وتُحِكان - فى الوقت نفسه - مؤامرات سرية لتشجيع نشوب حرب بين البلدين: حرب تُعَجِّل بانتهاء الأوضاع.

وفى الواقع، فإن اللورد تينتردن (Tenterden) وديزرائيلى كتبوا مذكرتين - بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٤ - أرسلتهما وزارة الخارجية البريطانية إلى القنصل الإنجليزى فى مصر لتتصحه بأن "يبتعد تماماً - فى الفترة القادمة - عن المناقشات والدسائس الخاصة بالمشكلة المصرية/ الحبشية"^(١٤).

وهكذا طلبت الحكومة الإنجليزية من ممثليها الرسميين - الذين نددوا بسياسة الملك يوحنا المستفزة والحمقاء - عدم التدخل بتاتا لصالح مصر، وذلك لكى تترك الميدان خالياً أمام الجنرال كيركهام وغيره من المغامرين (الذين رشتهم الدبلوماسية السرية) لإحداث الصدام المشنوم بين مصر والحبشة.

أما الحكومة الفرنسية، فقد أرسلت مأمراً مُتميزاً - هو المسيو سارزك - إلى مُصَوِّع ليشغل منصب نائب القنصل. وكان قد سبق للمسيو سارزك وأن أُقيل من منصبه فى عهد حكومة الماريشال ماك - ماهون بعد أن اشتكاه الخديوى، وها هو يعود رغماً عن إرادة الخديوى ليبذل كل جهده - بمعاونة المبشرين الفرنسيين - لزيادة تصلب الملك يوحنا الثانى وتمسكه بمطالبه - غير المعقولة - وتشجيعه سرّاً ضد مصر.

ثانياً: حملتا الحبشة فى سنتى ١٨٧٥ و ١٨٧٦

وأسباب الهزيمة ونتائجها

فى الشهور الأخيرة لسنة ١٨٧٥، بدا النجاشى وكأنه يعتمد إهانة مصر رغماً عن عروض التحالف والسلام التى عرضها الخديوى عليه: فبتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٥، كتب حاكم مُصَوَّع الجديد - آركيل بك - رسالة إلى حامل أختام الخديوى جاء فيها: "أصدر النجاشى أوامره لجنوده باحتلال مَمَرى "جرارا" و"بت - جرجس". ويقع الممر الأول على الطريق من "مُصَوَّع" إلى "هاماسين" عند "جوهموت"، ويقع الممر الثانى على الطريق المباشر بين "مصوع" و"هاماسين" عند "آيلات"؛ ويبعد الممران ١٦ ساعة عن مُصَوَّع، وحوالى ١٠ ساعات عن حدود الأراضى المصرية..."

وأضاف الحاكم قائلاً: "إن قواتنا لم تقم بأية تحركات، ولم نتخذ - من جانبنا - أى وضع يهدد الحبشة، وذلك على الرغم من التحرشات التى تمارسها قوة مسلحة كثيفة العدد تابعة للحبشة... وهذه الإجراءات التى اتخذها النجاشى تتفق مع الهدف الذى يسعى إليه، أي:

١- إزعاج الحكومة المصرية.

٢- إجبارها على زيادة قوتها المسلحة فى شرق السودان.

٣- وإبقائها متوترة لأطول فترة ممكنة.

٤- إجبارها على تقديم تضحيات جَمَّة.

٥- وهذه التضحيات ستكون بلا فائدة لاستحالة قيام مصر بالهجوم على الحبشة، حسبما يعتقد الكثير من الأحباش".

وكان هذا الوضع غير مقبول، خصوصاً وأن مصر لم تكن تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي - إلى ما لا نهاية - أمام عدو وقح: فلو أُبْذِت مصر أية علامة

ضعف، أو صبرت أكثر من اللازم، فإن ذلك سيُشجع قبائل السودان والحبشة على التمرد؛ وبناءً عليه، فقد كان يجب على مصر الاختيار بين الحرب أو الثورة.

وبدون شك، فإن الحرب تكون غير مُستحبة مع وجود إمكانية حُسن التصرُّف؛ ولكن الخديوي اتخذ قرار الحرب للدفاع عن شرفه وعن حدوده. إذن، فمن المتفق عليه - حاليًا - أن حرب الحبشة لم تنشب - أساسًا - بسبب الأطماع الإقليمية لدى الخديوي، ولا بسبب دسائس مونترينجر ولا أراكيل بك، كما قيل من قبل، بل إنها نشبت بسبب أطماع الملك يوحنا الثاني ومؤامرات فرنسا وإنجلترا.

وعلىنا الآن أن نعرف بشكل جيد ما إذا كان إسماعيل قد أراد الحرب - في تلك اللحظة الحرجة - أم لا. إن واقع الحال يُخبرنا بأن الإدارة العسكرية أُصيبَت بالفوضى والارتباك اللذين عاثا فسادًا في كل الإدارات المصرية حينذاك، فأولاً: كان هناك صراع على السُلطة بين العناصر المصرية والعناصر الشركسية.

وثانيًا: كان هناك صراع بين هذه العناصر الشركسية نفسها والعناصر الأجنبية (من أمريكيين وأوروبيين) التي كلفها إسماعيل بأدق المهام. وهذه الإدارة المتنافرة يجب أن تؤدي إلى الارتباك والهزيمة.

وبتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥، عيّن إسماعيل سويديًا - هو الكولونيل آريندروب - في منصب قائد القوات المصرية في مديرتي "مصوع" و"سنايت". وأصدر إسماعيل تعليماته لهذا الضابط يأمره فيها "بالأ يطارد الأحباش إلى أبعد من حدود "هاماسين".

وأضاف الخديوي: "إن الملك يوحنا الثاني يهددنا من ناحية مُصَوِّع؛ وفي الوقت نفسه، يطالب - بغير حق - بفرض سلطته على بعض المناطق التابعة لنا في الجنوب/ الشرقي. إن العصابات لا تقوم من تلقاء نفسها بعمليات السلب والنهب: فالملك نفسه هو الذي أَمَرَ بذلك وهو الذي يُسيطر عليها. وعيّن الملك - أيضًا - الجنرال كيركهام في مناصبي حاكم "غنده" و"أسالي" حيث توجد المَلّاحات.

وبناءً على صلاحيات منصبه، فرض الجنرال كيركهام رسوماً وضرائب على سكان هاتين المنطقتين...

وتوجه الكولونيل آريندروب - بصحبة أراكيل بك - صوب الحبشة على رأس قوة قوامها حوالي ثلاثة آلاف جندي.

وفي الوقت نفسه، في أواخر شهر أكتوبر، غادر مونتزينجر القاهرة متوجهاً إلى مِصْوَع؛ ومن هناك، اتجه جنوباً إلى "تاجورا" ومنها إلى "شوا" لكي تنضم قواته إلى قوات الملك "مينيليك" الذي كان قد انشق عن الملك يوحنا وحاربه (١٨٦٩ - ١٨٧٨).

ولكن بتاريخ ١٦ نوفمبر، نصب أحد زعماء قبائل الدناقل كميناً لمونتزينجر وقتله غراً - بالقرب من بحيرة "أوسا" - قبل أن يدخل "شوا" وقتل أغلب الجنود المصريين في هذا الكمين^(١٥).

ولاقت حملة آريندروب مصير حملة مونتزينجر نفسه: ففي البداية، دخلت ولاية "هاماسين" بالقرب من "جونديت"، وعبرتها إلى "مارب"، واقتربت من "عدوة" حيث يقيم الملك يوحنا الثاني. وشعر الملك وحاشيته بالرعب، وفكروا في الانسحاب إلى "أجاميه"؛ لكن المسيو سارزك كان قد نظم جهازاً للتجسس يعمل لحساب النجاشي في "جيندا"، بل وأقام في المنزل الذي قدمه له الجنرال كيركهام؛ كما قضى عدة أسابيع في "عدوة"، وطمأن الملك وشجعه على مقاومة القوات المصرية وبين له أنها قليلة العدد.

ولم يلاق "آريندروب" أية مقاومة في أثناء تقدمه، فارتكب خطأ قاتلاً عندما وزع قواته وتقدم بمجموعة صغيرة جداً - حوالي ألف جندي فقط - إلى "جونديت"، على خط "مارب"، يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥. وفي "جونديت"، أفنى جيش النجاشي هذه القوة عن بكرة أبيها.

لقد بدأت حملة الحبشة بداية سيئة - بالنسبة لمصر - بهاتين الهزيمتين اللتين جعلتا الملك يوحنا يزداد ثقة بنفسه. وكان لا بد من أن يُعزَز الخديوى مكانة

جيشه بتنظيم حملة جديدة، ويمنع الحبشة من أن تُصبح عنصراً مخالفاً يعيق خطته في التوسع ونشر السلام في شرق أفريقيا. وفي الواقع، فإن الحملات كلها قد تمت في وقت واحد (سنة ١٨٧٥): حملة آريندروب في شمال الحبشة، وحملة مونترينجر في جنوبها، وحملة رؤوف باشا في هرر، وحملة ماك كيللوب في ممباسا وزنزابار؛ وكان هدفها واحداً.

وعلق الجنرال لورنج على هذه الحملات بقوله: "كان الانطباع العام عن هذه الحملات هو أنها تهدف إلى مد حدود مصر، وبسط نفوذها على تلك المنطقة الشاسعة التي تحيط بها: من مصب نهر "جوبا" - على المحيط الهندي - حتى "منطقة البحيرات العظمى"، على خط الاستواء. ومن المؤكد أن طموح إسماعيل كان يهدف إلى ضم كل هذه المنطقة - الواقعة على ساحلي البحر الأحمر والمحيط الهندي - إلى إمبراطوريته. ومع الوقت، كان سيستوعب الأهالي المتوحشين ويخضعهم داخل هذه الأراضي الشاسعة" (١٦).

وبناءً عليه، فإن الهزيمة أو النصر في حملة الحبشة كان سيزترتب عليهما انعكاسات وردود أفعال مهمة في السودان ومنطقة شرق أفريقيا؛ ولذلك، انهمك الخديوى - بلا كَلَل - في تجهيز حملة ثانية كبيرة على الحبشة منذ شهر سبتمبر سنة ١٨٧٥. وفي شهر يناير سنة ١٨٧٦، غادر جيش قوى - قوامه ٢٠ ألف جندي - مصر متوجهاً إلى مُصَوَّع تحت قيادة جنرال أميريكى (هو الجنرال لورنج) ولواء شركسى (هو راتب باشا)؛ ومن مصوع، توجه الجيش المصرى إلى "جورا" حيث بنى تحصينين قويتين.

وفي بداية شهر مارس، قاد الملك بنفسه جيشاً هائلاً مكوّن من ٣٠٠ ألف رجل وامرأة وطفل، وتقدّم إلى "جورا". ودارت المعركة طوال ثلاثة أيام (٦ و ٧ و ٨ مارس)؛ ولم يجد تكتيك الجيش المصرى نفعا أمام هذا العدد المهيول للمهاجمين، ووقعت الكارثة. وفي ٨ مارس اضطر المصريون للجوء إلى أحد الحصنين اللذين بنوهما، ونجحوا في صد هجمات الأحباش، وأوقعوا بهم خسائر فادحة.

وبعد مفاوضات سلام عقيمة دارت بين طرفي النزاع، سمحت الحبشة للمصريين بمغادرة أراضيها. وخسرت مصر في هذه الحملة حوالي ١٢ ألفاً من الجنود، و ٣٩ مدفعاً، و ١٥ ألف بندقية، و ٤٠ ألف جمل وبغل.

وتتلخص أسباب فشل الحملة فيما يلي:

أولاً: الشقاق الذي ساد في صفوف القيادة العليا للجيش المصري: فالمصريون كانوا يكرهون اللواء الشركسي، راتب باشا، بسبب عجرفته وجبله؛ وكان راتب باشا - بدوره - على خلاف دائم مع زميله لورنج باشا بسبب الخطة التي يجب تنفيذها.

وتسبب هذا النزاع في شيوع الفوضى بين صفوف القوات العاملة [المحاربة] في الجيش. وبالتالي، فإن عدم وجود قائد كفء يبعث على الثقة قد دمر الروح المعنوية للجندي المصري، ومنعه من إظهار كفاءته وخبرته وشجاعته في حرب الحبشة، وفي مناسبات عديدة أخرى في القرن التاسع عشر.

ومع ذلك، فالجيش المصري كانت به عناصر مرموقة من بين الجنود والضباط - أهل البلاد الأصليين - كان بمقدورها الانتصار لو أحسن استخدامها. إن شهادة الجنرال لورنج باشا وبعض النماذج التي ذكرها تؤكد هذه الحقيقة؛ وعندما تحدث عن الخدمات الطبية، أشار إلى أن "الدكتور بدرى أفندى قد تخرج من إيدنمبرج وقضى فيها ١٤ عاماً؛ وفور عودته، التحق بخدمة الأمير حسن الذي كان يرافق الحملة.

"وعندما وصل إلى الحبشة، أعاد - على الفور - تنظيم القسم الطبي بالكامل، وعاونه الدكتور ويلسون والدكتور جونسون وجراحون آخرون. لقد أدى بدرى أفندى أعظم وأفضل خدمة لبلاده، كما تعرض القسم الطبي لمعاناة رهيبة؛ فالدكتور بدرى أفندى كان يستطيع - بالكاد - أن يمشي بسبب الجروح التي أصيب بها؛ والدكتور ويلسون خرج من ساحة القتال؛ وأسرى الأعداء الدكتور جونسون؛ أما الجراح البارع الدكتور محمد علي باشا، فقد قُتل بقسوة" (١٧).

وبالإضافة إلى الضباط الأوروبيين والأمريكيين العظام، ضمت هيئة أركان حرب الجيش المصرى ضباطاً مصريين جديرين بالاحترام قال عنهم الجنرال لورنج ما يلي: "كانت هيئة أركان حربى تضم واحداً من أكثر الضباط فاعلية، وأعنى الضابط المصرى إبراهيم لطفى أفندى (وهو الآن برتبة كولونيل).

"لقد خدَمَ هذا الضابط مدة طويلة - قد تصل إلى عشر سنوات - تحت قيادتى بصفة معاون جنرال، فكان واحداً من أفضل الضباط وأنفعهم فى مصر لأنه كان متمكناً من اللغة الإنجليزية، ويعرف اللغتين الفرنسية والإيطالية معرفة كافية؛ وبالإضافة إلى ذلك، كان ضليعاً فى الثقافتين العربية والتركية. لقد قضى إبراهيم لطفى أفندى فى إدارتى فترات طويلة قضاها فى عمل شاق ومستمر، وكوّن علاقات طيبة مع جميع الضباط... وكسب حُب الجيش كله" (١٨).

وإذا كان الجنود المصريون - يوم ٨ مارس - قد استطاعوا أن يصدّوا موجات المهاجمين الأحباش المتتالية، وأن يقتلوا أعداداً كبيرة من هذا المد البشرى، فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى أن "عثمان بك نجيب - أشجع مصرى فى الجيش - كان هو قائد هذا الحصن" (١٩).

ثانياً: أمّا السبب الثانى فى هذه الهزيمة، فيرجع إلى خيانة بعض المُبشّرين والعلماء الإنجليز والفرنسيين خلال هذه الحملة.

وفى الواقع، فإن عميلين إنجليزين - هما ويليام هامبتون (William Hampton) و ألبرت براون (Albert Brown) - كانا قد رافقا قوات الكولونيل آريندروب وتلقيا منه مساعدة مالية؛ وقبل الهزيمة بيومين أو ثلاثة، استطاع هذان العميلان الإنجليزيان العبور إلى الحبشة، وحضرا المعركة من ذلك الجانب.

وعندما أسرت القوات المصرية الجنرال كيركهام - ومعه هذين العميلين - وجدت معهما أوراقاً تثبت أنهما يعملان لدى بنك "بيشو بهايم وجولدسميد" (Bisho pheim and Goldsmid) ويمثلهما تفويض بعقد قرض مالى مع

النجاشى بضمان تنازله عن أرض ولاية "زوللا" (وبذلك تدخل مدينة مُصنَّوع في نطاق الأرض التى سيتم التنازل عنها لإنجلترا)^(٢٠).

وهناك عملاء إنجليز آخرون، منهم "هوتن وبارلو" (Houghton and Barlow) اللذان تظاهرا بالتجارة مع الحبشة ولكنهما اشتهرا بتدبير المؤامرات ضد الخديوي^(٢١).

أمّا العملاء الفرنسيون، فمن الثابت أن نائب قنصل فرنسا فى مُصنَّوع - المسيو سارزك - كان يُعلن عداوته الصريحة لمصر، وكان يُصرِّح دائماً بأن كل خطوة تخطوها مصر للأمام تعنى خطوة للخلف بالنسبة لفرنسا. وانطلاقاً من هذا المبدأ، قام بتأجيج نيران عداوة الملك يوحنا ضد مصر، ونجح فى إقناعه بأنه [أى الملك] هو الحصن الحقيقى الذى يحمى الشعوب المسيحية فى مواجهة الاجتياح الإسلامى وهيمنته عليها.

وهناك أيضاً مبشر فرنسى كان يرافق الجنرال لورنج ونجح فى الانضمام إلى صفوف الأعداء قبل المعركة الحاسمة التى أيدت فيها الحملة الثانية^[١].

[١] إن المؤلف الدكتور محمد صبرى (السوربونى) يتهم - هنا - هذا المبشر الفرنسى بالخيانة؛ وهذا تطور جيد فى موقف المؤلف لأنه كان قد سبق له وأن نفى هذه التهمة عن هذا المبشر الفرنسى فى أطروحته لنيل رسالة الدكتوراه التى نشرها فى فرنسا سنة ١٩٢٤ - بعنوان "نشأة الروح القومية المصرية (١٨٦٣ - ١٨٨٢)"، والتى ترجمناها (المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومى للترجمة)، عدد ١٠٣٥، القاهرة، ٢٠٠٦) وقمنا بالتعليق على هذا رأى (راجع كتاب: نشأة الروح القومية المصرية، الفصل الثالث، ص ١٧٥، هامش المؤلف رقم ٣٠ وتعليقنا عليه). وعن خيانة هذا المبشر الفرنسى والدور الخسيس الذى لعبه الضباط الأمريكيون والأوروبيون فى إيداء هذه الحملة، برجاء مراجعة ما كتبه عنهم الزعيم أحمد عرابى - الذى كان يرافق هذه الحملة بصفة ضابط شئون إدارية - تحت عنوان "خيانة أركان الحرب الأمريكيين الموظفين فى الجيش المصرى"، فقد قال بالنص: "... واستعد جميع أركان الحرب الأوروبيين والأمريكيين للملحمة: فألقوا جانباً طرايبهم الرسمية، ولبسوا قبعاتهم، ثم ربطوا فى أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى أنهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر

وَيُسْتَحْسَن - الآن - معرفة الموقف الذى اتخذته الحكومة الإنجليزية طوال الفترة التى استغرقتها هذه الحملة. إننا نعرف أن إنجلترا - قبل نشوب الحرب - أمرت ممثليها فى مصر بعدم الاشتراك فى منازعات الدولتين أو التدخل فيها؛ وهذا الحياد - غير المألوف - من جانب إنجلترا يعنى أنها كانت تتمنى وقوع هذه الحرب التى خطط لها عملاؤها السريون منذ زمن طويل، مع أن ممثليها الرسميين فى مصر كانوا يؤيدون مصر بوضوح.

وكان من المنطقى أن تلتزم إنجلترا بحيادها المعلن طوال فترة هذه الحملة، ولكن ذلك لم يحدث؛ فأنجلترا أعلنت حيادها قبل نشوب الحرب لكى تنجح هذه الأزمة التى - حسب تقديراتها - ستُقرّر مصير مصر؛ ولكن عندما اندلعت الحرب، فإن فكرة انتصار مصر أجبرت إنجلترا على التخلّى عن حيادها لكى تعمل - مسبقاً - على تحجيم هذا الانتصار المحتمل. وكان قد سبق لإنجلترا وأن تبنت موقفاً مماثلاً ضد الحملتين اللتين شنهما محمد على على بلاد الشام فى سنتي ١٨٣١ و ١٨٣٩.

وبعد فشل الحملة الأولى ضد الحبشة - سنة ١٨٧٥ - علمت الحكومة الإنجليزية - سنة ١٨٧٦ - أن الخديوى إسماعيل بدأ فى إعداد حملة كبيرة ثانية بإمكانيات وتجهيزات قوية جداً، فسارعت ووجهت - بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٨٧٥ - تحذيرات للخديوى من مغبة شن حملة جديدة على الحبشة، ومن عواقب محاولة تنفيذ "أية نية للغزو أو الضم".

وعن هذه التحذيرات، ذكر القنصل الإنجليزي ما يلى: "كان الخديوى متفقاً تماماً معى على أن هذه الحملة تُعتبر ضرورة مؤسفة للغاية، خصوصاً فى

عند اختلاط الجيشين، على حسب الاتفاق مع القسيس السابق ذكره... ومازالوا (الأحباش) كذلك حتى أفنؤهم (الجنود المصريين) عن آخرهم إلا من كان على رأسه قبعة أو فى عنقه منديل من أركان الحرب..." (مذكرات عرابي، ج ١، ص ٣٦، ٣٧) [المترجم].

الظروف الراهنة التي تمر بها مصر؛ وكان يتصور أن تكاليفها لن تتجاوز مبلغ ٥٠٠ ألف جنيه. وحتى لو وصلت إلى مليون جنيه، ألا تستحق أملاكه في أفريقيا دفع هذا المبلغ؟ وذكر الخديوي لى أنه من المستحيل عليه أن يحافظ على وضعه وعلى هيئته في السودان إذا تصوّر الأهالي هناك أنه قد استسلم راضيا للهزيمة والإهانة التي ألحقها به الأحمش^(٢٢).

وكان إسماعيل مُحَقًا في رأيه ولكنه نسي أن إمكانياته كانت أقل من أفكاره وطموحاته. لقد تم تنفيذ الحملتين بشكل سيئ وتسببت الهزيمان في نتائج خطيرة على مصر:

- ففي الداخل: زاد الارتباك المالي والإدارى - من جهة - وتصاعدت حدة السخط ضد سياسة إسماعيل بين صفوف الجيش والمواطنين - من جهة ثانية - مما شجّع على التدخل الأوروبي في الشئون الداخلية لمصر، وشجّع أيضا على نشأة الروح القومية المصرية.

- وفي الخارج: أصيبت هيبة مصر ومكانتها بإهانة بالغة في أفريقيا: فاعتاد الأحمش والقبائل السودانية على الاستهانة بقوة مصر، خصوصا وأن عدد الأحمش الهائل وتسليحهم البدائي قد تغلبا على نظام المصريين وتسليحهم الحديث؛ كما أن نقطة ضعف مصر قد ظهرت واضحة للعيان: فلم تعد القبائل المتوحشة تخشى هذه القوة التي يُسيطر الأوروبيون عليها جهارًا نهارًا.

إذن، فحرب الحبشة قد احتوت - بين ثناياها - على الأسباب الكامنة والأساسية التي فجّرت تمرد السودان في سنة ١٨٨٢. إن سياسة صمويل بيكر أتاحت لهذا الشعور بالتمرد أن يُولد بين سنتي ١٨٧١ و ١٨٧٤، ونما خلال حرب الحبشة بين سنتي ١٨٧٥ و ١٨٧٦، ثم اشتد عودة تحت ظل "نظام الإرهاب" - الذي أقامه جوردون ضد النخاسة في أفريقيا - بين سنتي ١٨٧٧ و ١٨٧٩؛ وعندما

اختتمت أسباب السُّخط وتراكمت، اندلعت نيران التمرد بمجرد ظهور زعيم
استطاع أن يوحد كل القوى المترددة والمبعثرة في جميع مناطق السودان النائية.

هوامش الفصل الرابع عشر

- (١) راجع الفصل السادس: "العصر الذهبي للقناصل والمغامرين".
- (2) Archives françaises. A. E. Correspondance politique. Egypte. Vol. 35. Alexandrie, le 9 mai 1865.
- (٣) المرجع نفسه، تعليمات إلى المسيو أوتريه، مايو سنة ١٨٦٥.
- (٤) المرجع نفسه، تقرير من المسيو جارنييه إلى القنصل العمومي، من كسلا، يوم ٣ مارس سنة ١٨٦٥.
- (5) Ibid. Vol. 45. Le Caire, le 17 mars 1869.
- (٦) المرجع نفسه، رسالة من المسيو تريكو، من القاهرة، بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٦٩.
- (٧) تم تتويج الراس "كاساً" - زعيم منطقة "تيجري" - إمبراطوراً في سنة ١٨٧٢ وتلقب بـ "يوحنا الثاني" بمساندة الإنجليز. وكان الراس "كاساً" قد ساعدهم - في سنة ١٨٦٨ - في أثناء حملة "مجدلة" التي هُزم فيها "تيودور" وتسببت في وفاته.
- (8) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 2284.
- مذكرة معلومات من مونتزينجر بك بخصوص احترام وضع الحبشة والولايات التي تحكمها حكومة "مُصَوَّع". القاهرة، ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٣.
- (9) Ibid. Vol. 2342. Alexandrie, le 17 juin 1874.
- (10) Ibid. Vol. 2284. Alexandrie, le 30 octobre 1873.
- (11) Ibid. Vol. 2342. F.O. le 7 juin 1874.

(12) Ibid. Alexandrie, le 18 juin 1874.

(13) Archives américaines.

برقية رقم ٣٦٤ أرسلها المستر ر. بيردزلى إلى سكرتير الدولة فى واشنطن -المستر هاميلتون فيش - من القاهرة بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٧٥.

(14) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 2342. le 27 juin 1874.

(١٥) يعطينا الجنرال لورنج (W.W. Loring) - المفتش الأسبق للجيش المصرية - تفسيراً هاماً لحملة "مونترينجر" فى كتابه:

"A Confederate soldier in Egypt". New York, 1884.

"أبحر مونترينجر إلى خليج "أمفيللا" على البحر الأحمر فى ولاية "الدناقل"؛ ثم تَوَجَّه إلى منحدرات جبال "هرامات" ليستولى على مناجم الملح الصخرى التى تَزَوَّد الأحباش - والقبائل المجاورة - بحاجتهم منه؛ وبذلك، يكون مونترينجر قد أصاب الأحباش فى مقتل: فقد كانوا هم الهدف الأساسى للحملة. وللوصول إلى هذه المنطقة الرهيبة، كان يجب عليه اجتياز صحراوات حارقة يسكنها شعب "تالتال" الهمجى الشرس.

"وفضلاً عن الاستخدام المألوف للملح فى الطعام، فقد كان هو العملة السائدة فى الحبشة والمناطق الشاسعة المحيطة بها. والملح عنصر أساسى للحياة ولكنه نادر وثمين فى أفريقيا؛ واستخدمته الحبشة كنفود منذ أزمان سحيقة. وكان الأهالى يقومون بتقطيعه على هيئة كتل يلفونها فى قماش مصنوع من لحاء الأشجار لحفظه من الرطوبة. وكانت التجارة فى هذا المنتج الثمين مزدهرة للغاية وتاجر فيه الأحباش على نطاق واسع.

"ورصد الأحباش - وحلفاؤهم المتوحشون - حملة مونترينجر وهى تجتاز الصحراء فقضوا عليها تماماً".

(16) Ibid. Pp. 300, 301.

(17) Ibid. P. 430.

(18) Ibid. P. 363.

(19) Ibid. P. 425.

(20) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 2500. Le Caire, Le 15 janvier 1876.

(21) Ibid. Vol. 2504.

ذكر القنصل استنتاجات الوالى فى برقية بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٨٧٦.

(22) Ibid. Vol. 2405.

القاهرة، ٢٩ ديسمبر ١٨٧٥.

الفصل الخامس عشر

جوردون في وسط أفريقيا

(١٨٧٤ - ١٨٧٦)

١- مسألة النخاسة.

٢- صراع النفوذ بين مصر وإنجلترا حول منطقة "البحيرات"؛
جوردون يخون ثقة الخديوى فيه ويضحي بمصالح
مصر^[١].

[١] في الفهرس، جاء هذا العنوان الجانبى بإضافة عبارة: "لصالح بلاده" [المترجم].

جوردون فى وسط أفريقيا (١٨٧٤ - ١٨٧٦)

فى سنة ١٨٧٤، خَلَف جوردون - بطل الخرطوم المقبل - سَلَفه صمويل بيكر فى منصب "حاكم المديرىات الاستوائية". وطوال أربع سنوات قضاها بيكر فى الحكم، لم يستطع تحقيق أى هدف من الأهداف التى كلفه الخديوى بيا، على الرغم من الجيش - الذى كان تحت إمرته - وإسرافه فى تبديد الأموال. ووقع على عاتق جوردون أن يقوم بمهمة بسط النفوذ المصرى حتى منطقة "البحيرات العظمى" بواسطة:

- ١- إنشاء سلسلة من النقاط الحصينة المتصلة بالخرطوم على طول مجرى النيل.
- ٢- تنظيم إدارة المديرىات الاستوائية.
- ٣- وفى النهاية، إلغاء نظام العبودية والنخاسة والقضاء على قطاع الطرق الذين كانوا منتشرين فى تلك البقاع.

وبعبارة أخرى، فإن مهمة جوردون كانت تتلخص فى:

أولاً: توطيد سلطة الخديوى على أسس قوية.

ثانياً: تهدئة خواطر السكان المحليين والتصالح معهم باتباع سياسة ماهرة تدريجية بإحلال أنواع أخرى من التجارة أكثر ربحاً من النخاسة.

وفى الواقع، فقد كان المطلوب هو إلغاء السياسة التى اتبعتها بيكر، ويكون ذلك باستخدام الكياسة واللباقة مع مختلف زعماء القبائل والملوك المحليين الصغار.

ولكن، هل كان جوردون هو الرجل المناسب لتنفيذ هذه السياسة الجديدة؟ لقد كان جوردون موهوباً ولديه الطاقة اللازمة لتنفيذ هذا المشروع كما ينبغى أن يكون، هذا من ناحية؛ لكن - من ناحية أخرى - كان جوردون متسبباً بسلطانه لدرجة أنه كان يشعر بالقلق والشك بسبب وجود الحكام المصريين فى السودان،

حتى ولو كان المصريون مرؤوسين له. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان جوردون - مثل سلفه بيكر - رجلاً فظاً، لا يُمكن التعامل معه، ويفتقر إلى الحس السياسى واللباقة لمعالجة الأمور بمهارة، لدرجة أن مديرى وزارة الخارجية البريطانية كانوا ينعتونه بالجنون.

إن قراءة مقتطفات من يومياته التى اختارها ونشرها قريبه المستر هيل - بعنوان "Colonel Gordon in Central Africa" - تُظهر لنا نفسية دائمة القلق وغير مستقرة وغير متوازنة.

وبتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤، غادر جوردون القاهرة لأداء مهمته وكان يصحبه الكولونيل شايليه - لونج (Chaillé - Long) - وهو ضابط أمريكى دخل فى خدمة الخديوى - وإبراهيم فوزى (مهندس مصري) والملازم حسن واصف، ورومولوس جيسى (مهندس إيطالى) والمسيو أ. لينان (مهندس فرنسى) ومجموعة غيرهم من المهندسين والملازمين الإنجليز.

منذ البداية، ارتكب جوردون أول خطأ: فقد ضم أبو سعود إلى حملته. وأبو سعود هو النحاس الذى قبض بيكر عليه، وأرسله إلى القاهرة لكى يُحاكم هناك؛ وتَصَوَّر جوردون أن بيكر قد ظلم هذا الرجل. وكان من الواضح أيضاً أن الحكومة المصرية - حسب عاداتها - لم تكن قد سببت أى نوع من القلق لهذا الشخص الذى عاش حياة هادئة فى العاصمة المصرية. لكن، كان هناك خط أحمر لم يكن ينبغى تجاوزه: ألا وهو إشراكه فى هذه الحملة على الرغم من اعتراضات نوبار باشا وغيره من المسؤولين المصريين؛ وكان تجاوز هذا الخط الأحمر يدل على عدم الحصافة.

أولاً: مسألة النخاسة:

رست سفينة جوردون فى ميناء سواكن يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨٧٤، ووصل إلى الخرطوم يوم ١٣ مارس. وفى العاصمة السودانية، تَصَرَّف مثلما تَصَرَّف

بيكر من قبل: فلم يراع مكانة رئيسه الحاكم العام؛ وقبل مغادرته للخرطوم، قام بتوزيع المنشور التالي على السكان المحليين: "لقد كلفني صاحب السمو الخديوى بتولى منصب "حاكم المديرية الاستوائية"؛ ونظرًا لاستمرار ارتكاب المخالفات حتى الوقت الحالي، وبناءً على صلاحيات هذا المنصب الممنوحة لي، فقد أصدرت الأوامر التالية:

من الآن فصاعداً:

- ١- تحتكر الحكومة تجارة العاج.
 - ٢- يُمنع أى شخص من دخول المديرية الاستوائية بدون "تذكرة" (تصريح) من الحاكم العام فى سواكن. وهذه "التذكرة" لا تكون صالحة ونافذة المفعول إلا بعد الحصول على تأشيرة من السلطات المختصة فى "جوندوكورو" أو غيرها من المدن.
 - ٣- يُمنع استيراد الأسلحة النارية والبارود.
 - ٤- كل من يخالف هذه التعليمات سيُعاقب بشدة طبقاً للقانون العسكري".
- وهكذا، بدأ جوردون عهده بإصدار نوع من إعلان الحرب ضد التجار حتى قبل أن يفهم أوضاع المديرية التى سيحكمها، وقبل أن يغزوها ويكتشفها بواسطة هيئة أركان حربه (المشكلة أساساً لهذا الغرض)، وحتى قبل أن يصل إليها ويدرس مشكلة النخاسة على أرض الواقع.
- وكان الكولونيل شايليه - لونج يُرافق جوردون فذكر ما يلي: "إن هذا القرار يعنى إفلاس تجار العاج الذين أصابهم اليأس فلجأوا إليّ... وفى صباح اليوم التالي، عندما كنت مع جوردون، التفت إلى قائلاً: "إنك لم تقل شيئاً عن موضوع احتكار العاج.

فأجبت: لا

فقال لي: حسن! قل لي الآن رأيك فيه.

"قللتُ: في رأيي، أن القرار سيؤتي ثماره بعد خمس سنوات من الآن، لكنه مليء بالأخطار في الوقت الحالي.

"فرد جورديون قائلاً: إن إلغاء قرار احتكار العاج مستحيل"^(٢).

وفي الحقيقة، فإن هذا القرار كان غير حكيم وبدا وكأنه - ببساطة - يريد إلغاء التجارة في "المديريات الاستوائية"، وستكون عواقبه وخيمة وستضر برفاهية هذه المناطق.

وغادر جورديون الخرطوم يوم ٢٢ مارس، ووصل وحده - يوم ١٦ أبريل - إلى "جوندوكورو" بدون هيئة أركان حربه التي كانت ترافق القافلة؛ ولذلك، اضطر للسفر يوم ٢٠ أبريل لكي يجعل القافلة تحت السير، فوصل بعد ١١ يوماً إلى الخرطوم، ومنها لحق بالقافلة في بربرة - في حوالي منتصف مايو - وأعاد القافلة إلى العاصمة.

وتوجّه جورديون - مرة ثانية - إلى "جوندوكورو" وتوقف عند مصب نهر "السوبات" لكي يُقيم مركزاً حربيًا. وهناك، التقى لأول مرةً بحقيقة وضع النخاسة في تلك الأقاليم، وبدأ يدرك ضرورة استخدام وسائل وإجراءات أخرى غير الأوامر أو طلقات الرصاص لإلغاء هذه التجارة: لقد كان أهالي هذه المناطق مُعتادين تمامًا على بؤسهم ومتعاشين معه، خصوصًا مع نظام العبودية، لدرجة أنهم لم يفهموا ما يريده هذا الأجنبي.

وفي إحدى المرات، لاحظ جورديون أن إحدى الأمهات قد بادلت ابنتها مقابل بقرة، فسألها: "ألا تتحسرين على ابنتك؟!"

فردت المرأة عليه قائلة: "لا، فنحن نفضل البقرة".

فقال لها: "ولكنكم ستأكلون البقرة وستنتهي لذة الطعام!!"

فأكدت المرأة قولها: "لا يهيم، إننا نفضل البقرة".

وعلق جوردون بحزن قائلاً: "إن هذا حقيقي تماماً؛ واستنتج من ذلك الموقف، أن هؤلاء الناس أدنى مرتبة من الحيوانات التي تبكى شفقة على أبنائها^(٣).

ولكن أراؤه عن نظام العبودية قد تعدلت فجأة، فكتب ما يلي: "أعتقد أن الحروب التي يشنها النخاسون - لخطف الأسرى - لشيء بغيض؛ ولكن إذا كان أحد الأبوين هو الذي يرضى ببيع ابنه - أو ابنته - فلا أدري كيف ألومه. إن نظام العبودية لنمو وباء كان - وما يزال - هو السبب في إقفار مناطق بأكملها من السكان؛ وهناك - أيضاً - عدد كبير من الأفراد قتلهم الغزوات أو ماتوا بسببها؛ ولابد من مرور زمن طويل حتى يصبح الزوج متحضرين؛ ولكن المناخ يمنع ذلك: فلا يمكن أن تكون لديهم تجارة نظراً لأنه لا يوجد لديهم شيء يُبادلونه مقابل أصناف البضائع"^(٤).

وللأسف، فإن جوردون كان عاجزاً عن استخلاص درس ما من هذا الواقع؛ وبالتالي، فلم يعلن تخليه عن "سياسة العنف" التي مارسها بىكر لمحاربة النخاسة. وبعد فترة قصيرة - في يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧٤ - صادر سفينتين في نهر "السوبات" - قادمتين من "جوندوكورو" - وعلى متنها ٩٦ عبداً، وكمية من العاج تساوى حوالى ٢٠٠٠ جنيه. وعندما تصرف جوردون على هذا النحو، يبدو أنه كان خاضعاً لتأثير إرادة غريبة عنه ومناقفة نجحت في التسلل إلى إرادته الشخصية وتوحدت معها، بسبب اضطرابه النفسي، ووجدت نقطة ارتكازها في عناده الطبيعي.

ومن المفهوم - مثلاً - أن يحارب الغارات وسرقة الماشية والعبيد: فقد كانت هذه هي رغبة الخديوي، وما يتطلبه أمن الأهالي المحليين؛ ولكن اللجوء إلى القوة، والسلب الجماعي، وجعل تجارة العاج حكرًا على الحكومة (بحجة أن تجارة العاج تشجع على النخاسة)، ومصادرة العاج والعبيد (أى الصنفين الرئيسيين اللذين

تقوم عليهما المبادلات التجارية) قبل أن يخلق مصادر جديدة للدخل، وقبل أن يوفر لها تنظيمًا عقلانيًا قادرًا على زيادة سرعة التقدم الأخلاقي والمادي، فقد كان ذلك كله يعنى ضياع عنصر الوقت، وارتكاب عمل فى غاية الظلم، وغير سياسى بتاتا.

وكان قد سبق لنا التأكيد على أن النخاسة كانت - بشكل ما - جزءا لا يتجزأ، إن لم يكن جزءا أساسيا، من الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى السودان؛ لذلك، فإن المساس بها - بدون تمهيد لفترة انتقال ضرورية - كان يعنى تدمير أساس البناء الاجتماعى، والإضرار بالمصالح الثابتة والقوية للسكان، ودفعهم دفعا لكراهية الإدارة المصرية.

وذكر شفاينفورت أن نظام العبودية كان جزءا من الحياة اليومية ووصفه على النحو التالى: "علينا أن نعترف بأن التجارة المشروعة - فى السودان المصرى - لا تحقق أى ربح: فالناس هناك يعيشون مثل الحيوانات، وليست لديهم احتياجات ولا رغبات، وليست لديهم أية نفقات، وسعادتهم الوحيدة تكمن فى الاكتناز وعدم الإنفاق. وهم يجهلون كل شيء عن الرفاهية أو الراحة المنزلية حتى فى إطار الحدود الضيقة التى تعرفها حياة الشرق. وبالإضافة إلى ذلك، فإن العبيد هم الذين يؤدون كل الخدمات والأشغال التى يجب القيام بها.

"ولذلك، لا يوجد طلب ولا أسعار، ولا رأس مال متداول، ولا رهن حيازي؛ وتُسبب هذا الوضع فى أن هؤلاء الفقراء لا توجد لديهم وسائل للعيش، وأصبح العبد هو السلعة الوحيدة التى يمكن تقديمها للسوق. وتتغذى النخاسة على هذه الضرورة المزدوجة لحياة الفقراء وحياة الأغنياء؛ وهكذا فإن نظام العبودية يستمر من تلقاء ذاته".

ويضرب هذا العالم النمساوى مثلاً دامغا يوضح لنا هذه الحقيقة، فقد ذكر: "ما يزال المسلمون - فى هذا الجزء من أفريقيا - يستخدمون الرحاية، وهى تتكون من حجرين مختلفى الأبعاد: حجر صغير يتحرك يدويا وحجر أكبر وثابت.

و"الرحاية" هي السبب في استمرار الطلب على شراء الإماء، فهذه الوسيلة البدائية بطينة للغاية؛ وبعد يوم طويل من العمل الشاق، قد تستطيع الأمة طحن كمية من الحبوب تكفي لغذاء خمسة أو ستة أفواه فقط. ولا يستطيع المرء وُصف كم المعاناة الهائل الناتج عن هذا العمل اليومي الشاق، والمفروض بقسوة على هؤلاء الإماء...

"وفي الخرطوم، توجد طاحونة تديرها الثيران أنشأتها الحكومة لتزويد الجيش بالدقيق - وبإمكان الأفراد استخدامها بثمن زهيد للغاية - إلا أن جميع السكان يطحنون الذرة في منازلهم على الرحاية، ولم يُفكر أيًا منهم الاستفادة من هذه الخدمة المقدمة إليه. وطالما أنه لم يتم إلغاء هذا الإهدار للقوة البشرية بإدخال الطواحين الميكانيكية - أو بفرض ضريبة على استخدام الرحاية - فإن عدد الإماء لن ينقص".

ثم يعلق المؤلف قائلًا: "إن هذا المثل يكفي لتوضيح مدى الدأب والمثابرة، وكم التفاصيل والتدابير التي يجب اتخاذها لإلغاء نظام العبودية في مديريات السودان. ولا توجد أية إمكانية لإلغاء مؤسسة قديمة قبل إحلال مؤسسة جديدة مكانها تكون مزاياها أكبر من المؤسسة القديمة"^(٥).

وكانت النخاسة تشكّل - أيضًا - جزءًا من الحياة الدينية في السودان بمعنى أنها ليست جزءًا من الدين نفسه ولكنها جزء من ممارسات رجال الدين (الفقهاء) السودانيّين: فهم يعتبرون أن الإتجار في الزنوج شيء إضافي وعادي يستكملون به امتيازاتهم. وكان "الوكلاء المقيمين" في "الزرائب" (المخازن المحصنة) هم المساعدون الأساسيون لرجال الدين. ومن هذا المنطلق، فعندما تحارب الحكومة النخاسة، وتدمر "الزرائب"، فإنها - بذلك - تطلق العنان للجماهير المتعصبة في السودان.

وشكّلت النخاسة - أيضًا - جزءًا من الحياة الاقتصادية في السودان: فالنخاسون و"الجلّابة" كانوا كلهم تجارًا؛ وكانت "الزرائب" لا تحتوى على العاج

والعبيد فقط، بل كانت بها أيضًا: دواب للحمل والركوب، وأصناف كثيرة من البضائع مثل "زبدة البقارة" (وهي قبائل من النهابين الذين يتاجرون في العبيد وهم مشهورون برعى الأبقار ومن هنا جاء اسمهم: "البقارة")، والأقمشة القطنية، وريش النعام، والأسلحة النارية، والغلايين، والسجاجيد، إلخ إلخ.... وكان صغار التجار (الجلابة) يبيعون هذه البضائع بالتجزئة على ظهور حميرهم. إذن، فقد كانت محاربة النخاسين تعنى - بالضرورة - شن الحرب على التجارة ونشر الاضطرابات في الحياة الاقتصادية في كل ربوع السودان.

وبالإضافة إلى كل ما سبق، فعندما قرر جوردون احتكار الحكومة لتجارة العاج (بهدف إلغاء النخاسة)، فإنه لم يحقق الهدف "من هذه الإجراءات الطائشة" بل إنها أضعف المورد الأساسى لدخل الخزانة السودانية (أى العاج)؛ وفى الوقت نفسه، فإنه زاد من تكاليف حملته⁽¹⁾. لقد حرّم جوردون ميزانية السودان من المبالغ الطائلة التى كان النخاسون يوردونها سنويًا للحكومة، ومن المكاسب الهائلة التى كانت تأتيها من نمو تجارة العاج.

ونتج عن احتكار الحكومة لصيد الأفيال نقص محصول العاج بشكل ملحوظ فى المديرية الاستوائية الخاضعة لمصر: ففى البلاد الجنوبية (مثل: "أوغندا" و"أونيورو")، كانت تجارة العاج تأخذ طريقها الطبيعى فى اتجاه الشمال، ولكنها بدأت تتجه نحو الجنوب.

وذكر أمين باشا - حاكم "المديرية الاستوائية" المقبل - ما يلي: "ازدهرت تجارة نشطة فى المنطقة الواقعة بين "البحيرات". وكانت هذه التجارة قد نشأت نتيجة لتأثيرات خارجية، وازدادت بسبب الميل الطبيعى للأهالى لممارسة التجارة وتجلت العلاقات بين مختلف القبائل وبعضها البعض - وأيضًا بين هذه القبائل والتجار العرب - ف اتخذت شكل بذل جهود دائمة بهدف فتح طرق جديدة للتجارة، وخلق احتياجات جديدة والعمل على تلبيتها. وفى الوقت نفسه، ظلت الأراضي التابعة لمصر - فى الشمال - متأخرة فى هذا المجال.

"ومع أن احتلالنا للمنطقة الشمالية دام لسنوات طويلة، إلا أنه لم يحدث أى تقدم لأن نظام الحدود المحروسة جيداً، واحتكار التجارة ينظر إليهما - حتى الآن - على أنهما وسيلتا الحماية الوحيدتان ضد النخاسة؛ لكنهما لم يمنعا بيع العبيد وشرايئهم (إلا فى حالات قليلة للغاية). إن خطف الرجال والنساء والأطفال قد منع التطور الطبيعى لهذه المديرىات.

"وبينما كانت الحضارة تتقدم ببطء فى الجنوب، وبينما كانت المناطق تُفتح فى وجه التجارة واحدة تلو الأخرى، ظلت المناطق الجبلية الخصبة - التابعة لنا - غير مزروعة، ووقفنا ننظر - وأيدنا متشابكة فوق صدورنا - إلى تقدم التجارة وتوغلها من الشمال إلى الجنوب، فى حين أنه كان يجب علينا أن نبذل جهداً مستمراً لكى نفتح - بأنفسنا - طرقاً جديدة.

"ألم يكن من الأفضل لنا - إذن - أن نتخلص من النظام المثالى القديم؟ ألم يكن من الأفضل لنا أن نقول "وداعاً" لنزواتنا الخيرية/ الإنسانية، وأن نجعل إدارة هذه البلاد الخصبة تتناسب مع تطور مواردها وتلبى احتياجاتها؟"^(٧).

إن السياسة التى اتبعها جوردون - فى وسط أفريقيا - لم تشجع على إقامة إدارة ناجحة ومزدهرة، بل إنها - على العكس - تسببت فى زيادة غضب جموع الأهالى وزادت من عوامل التفكك والفوضى. ومن المؤكد أن جوردون قد بذل كل جهده - فى السنوات الأولى من حكمه - للتخفيف من حدة النتائج الكارثية التى تسببت فيها سياسة بيكر وعلاجها. ولكن، بما أن جوردون كان طفلاً كبيراً غريب الأطوار، فإنه لم يستكمل تنفيذ أفكاره وقراراته وارثاً أخطاء جسيمة.

وبعدما أقام عدة أشهر فى محطة مصب نهر "السوبات"، رجع إلى عاصمة الإقليم التى وصلها يوم ٨ سبتمبر. ووجد جوردون هناك خلافاً ناشباً بين الكولونيل رؤوف بك وأبو سعود - الذى كان يحظى برعاية الحاكم له - فقام بعزل رؤوف بك (لأنه كان يشك فى أنه يسعى ليخلفه فى منصبه)، وأبعده إلى الخرطوم. ولكن

الخدوي إسماعيل كان يعرف قَدْر رُؤوف بك: فأنعم عليه برتبة الباشاوية، وكلفه - بعد فترة قليلة - بغزو "هَرَر".

وبعد قليل، أدرك جوردون أن أبا سعود لم يكن جديرًا بثقته، وأنه كان يخونه، ويحاول تدبير الوسائل التي تُمكنه من استعادة نفوذه السابق على المديرية الاستوائية، فأسرع بالتخلص من "هذا الكذاب الأشر والمحتال الماكر".

ومع ذلك، ففي نهاية سنة ١٨٧٤ استطاع جوردون إنجاز نتائج أفضل من تلك التي أحرزها بيكر:

- ١- لقد نجح جوردون في التصالح مع قبائل "باري" التي كان بيكر قد أشعل نيران كراهيتها؛ فحرص جوردون على أن يرد لهم - على دفعات - ما أخذ منهم.
- ٢- وبدلاً من إنشاء ثلاث قلاع صغيرة، أنشأ ثمان محطات عسكرية حصينة تبدأ من نقطة التقاء نهر "السوبات" بالنيل الأبيض" حتى "قويرة".
- ٣- ونظرًا لأن "جوندوكورو" كانت مدينة غير صحية، فقد نقل العاصمة منها إلى مدينة "لادو".

ولسوء الحظ، فقد كان جوردون - مثلما كان بيكر - مصابًا بهُوس تحقير كل ما هو مصري: ففي كل مكان، كان لا يرى سوى الاختلاسات المالية التي يرتكبها الموظفون، والتواطؤ المريب بين الموظفين والتجار، والعراقيل المتوالية لإعاقة عمله. باختصار، لقد كان جوردون فريسة لنوع من جنون الاضطهاد جعله يتهم السلطات المصرية - وحدها - بالمسئولية الكاملة عن كل ما يحدث، فشعر الوالي بالضيق منه. وبالإضافة إلى ذلك، استمر جوردون في محاربة النخاسة مستخدمًا أساليب لا تتفق مع قناعاته الشخصية ولا مع مصالح مصر أو السكان المحليين في السودان.

ثانياً: صراع النفوذ بين مصر وإنجلترا حول منطقة "البحيرات"؛ جوردون يخون ثقة الخديوى فيه ويضحي بمصالح مصر.

يبدو التناقض حاداً بين مُعتقدات جوردون الخاصة - فى مسألة النخاسة - وبين تصرفاته حيالها وبين هذه المعتقدات الخاصة - نفسها - فى مسألة توسع مصر نحو خط الاستواء، وبين تصرفاته بخصوص هذا الموضوع. وهذا التناقض يزداد حِدَّةً وعمقاً بين ضميره وبين رغبته الطبيعية فى خدمة بلده - إنجلترا - التى كان يعرف مدى كرهها لهذا التوسع المصري. وهذا التناقض الحاد سبب لديه العديد من الاضطرابات، والتردد، والتغيير الحاد فى مواقفه، والغموض، والتخبط فى سياسته، وعدم القدرة على السير فى خط مستقيم.

ونشب أول صراع بين المصالح المصرية والمصالح الإنجليزية - فى وسط أفريقيا - حول "أوغندا" ومنطقة "البحيرات" الاستوائية؛ وفى الوقت نفسه، نشب صراع بين ضمير جوردون وبين رغبته فى خدمة إنجلترا.

وفى سنة ١٨٧٠، تم تعيين الكولونيل الأمريكى شايليه - لونج ضابطاً فى الجيش المصري؛ وفى سنة ١٨٧٤، عينه الخديوى إسماعيل فى منصب "رئيس أركان حرب" حملة جوردون؛ فسافرا معاً إلى "جوندوكورو" يوم ٢١ فبراير ووصلها يوم ١٧ أبريل.

وكان الخديوى إسماعيل قد كلف لونج بمهمة دبلوماسية سرية لدى ملك أوغندا قال عنها: "توقع والى مصر وصول حملة يقودها ستانلى (Stanley) إلى منطقة "البحيرات" الاستوائية لرفع الراية الإنجليزية عليها، وهذا ما حدث فعلاً - فيما بعد. ولكن عندما وصلت حملة ستانلى إلى هناك - يوم ١٥ أبريل سنة ١٨٧٥ - كنتُ قد سبقته ورفعتُ راية مصر على هذه المنطقة منذ تسعة أشهر مضت".

وكان لونج قد غادر "جوندوكورو" - بعد وصوله إليها - يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٧٤ متوجهاً إلى بحيرة "فيكتوريا" وعاصمة الملك "متيسا" (M' Tesa)، ملك

"أوغندا". وفي صباح يوم سفر لونج، كان جوردون يتوقع أنه سيرجع معه إلى الخرطوم: فبدأ على وجهه الضيق عندما قرر لونج البقاء، ولكن جوردون لم يلح عليه في السفر معه. وخلال رحلة جوردون ولونج إلى "جوندوكورو"، قال جوردون له: "إن ستانتون (القنصل العام الإنجليزي في مصر) كان يعارض تعيينك لأنه لا يحب الأمريكيين؛ ولكنني أحبهم: فقد عملنا سوياً في الصين. ولكن كن حذراً من اللورد ديربي^[٢] وستانتون".

وبعد سفر دام ٥٨ يوماً، وصل لونج - أخيراً - إلى عاصمة "أوغندا" يوم ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٤؛ وفيما بعد، كتب عن هذه الرحلة بعدما كانت إنجلترا قد نجحت في الاستيلاء على أوغندا: "كان تكلفي بمهمة دبلوماسية يفوق كل آمالي. وفي تقريرى الذى رفعته إلى الحكومة المصرية - بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ - ذكرتُ أنني قد عقدتُ معاهدة مع الملك "متيسا"، بمقتضاها وضع الملك مملكته تحت حماية مصر.

ثم رفعت هذه المعاهدة إلى صاحب السمو الخديوي؛ وبناءً عليها، كتبتُ مذكرة رسمية أعلنت مصر فيها ضم كل الأراضى الواقعة حول بحيرتى "فيكتوريا" و"ألبرت". ولكن هذه المعاهدة اختفت من دار المحفوظات بالقاهرة.

"وفيما بعد، تم تقسيم هذه المديرىات بين إنجلترا وألمانيا؛ وهذا ما يدل على أن اللورد سالسبورى قد استفاد من فرصة اختفاء هذه المعاهدة فادعى بأنه انتزع هذه الأراضى من أصحابها المتوحشين وليس من مصر نفسها كما حدث فى الواقع.

"وظلت هذه المعاهدة مفقودة تماماً على الرغم من المحاولات العديدة للبحث عنها. ومن المحتمل أن تكون قد دُمِرت مع جميع الوثائق الثمينة الأخرى والتقارير

[٢] "ديربي" (Derby): عائلة بريطانية عريقة عمل الكثير من أبنائها - لعدة أجيال - بالسياسة. يعيننا منهم هنا Edward Stanly De Derby (١٨٢٦ - ١٨٩٣) الذى كان سكرتيراً لوزارة الخارجية البريطانية [المترجم].

العلمية التي تُمثِّل ١٥ عامًا من الجهد المضنى الذى بذله زملائي من الفرنسيين والأمريكيين فى هيئة أركان حرب الجيش المصري". ويُقال إن المعاهدة مع الوثائق والتقارير العلمية قد أحرقها ضابط فى الجيش البريطانى يُشاع أنه أُصيب بالجنون بسبب تعاطيه الكحوليات^(٨).

وأكد الكولونيل شايليه - لونج أن المعاهدة قد تم التوقيع عليها بالفعل يوم ١٩ يوليو سنة ١٨٧٤.

ثم غادر الكولونيل لونج "أوغندا" فى يوم ١٩ يوليو نفسه، وأبحر هابطاً مع النيل من بحيرة "فيكتوريا" حتى بَلَغَ مدينتى "نيامبونجو" و"أوروندجاني"؛ ومن هناك، وصل إلى "مرولي" و"قويزه". وخلال رحلة العودة، اكتشف - فى شهر أغسطس - بحيرة "كيوجا" التى أطلق عليها اسم "بحيرة إبراهيم". وترجع أهمية هذا الاكتشاف إلى أنه حدّد مجرى نهر النيل فى تلك المنطقة، واستكمل ما بدأه سبيك (Speke) باكتشاف بحيرة "فيكتوريا" وبيكر باكتشاف بحيرة "ألبرت".

ودخل لونج مدينة "جوندوكورو" يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤، ثم غادرها إلى الخرطوم لى يستريح من المجهود الذى بذّله ويعالج من الحمى التى أرهقته بشدة. وفى نهاية سنة ١٨٧٤، انشغل جوردون بنقل العاصمة إلى مدينة "لادو". وبعد ذلك، بدأ يعمل على:

- ١- أن يكون النيل مُتصلاً بالبحيرات.
- ٢- وأن تُبحر السفن فوق مياه "بحيرة فيكتوريا".
- ٣- وأن يُخضع "كبا - ريجا" ملك "أونيورو"، الذى أثار بيكر غضبه وجعله يعادى مصر.

إن الأمر كان يعنى - باختصار - حل مشكلة النيل بشكل نهائي. وكان جوردون يُدرك صعوبة هذه المهمة؛ وتبادر الحل إلى خاطره، فكتب - بتاريخ ٢١

يناير سنة ١٨٧٥ - ما يلي: "اقترحتُ على الخديوى إرسال سفينة بخارية إلى خليج "مُمباسا" - الذى يقع على بُعد ٢٥٠ ميلاً شمال "زنزبار" - وإقامة محطة هناك، ثم التقدم حتى "متيسا". وإذا استطعت تنفيذ هذه الخطة، فسأقيم قاعدتى فى "مُمباسا"، وسأترك "الخرطوم" ومضايقات السفن البخارية.

وبهذا الحل، سيكون وسط أفريقيا مفتوحاً بطريقة أكثر إيجابية نظراً لأن الأجزاء الأكثر ثراءً - فى هذه المنطقة - هى الأراضي المرتفعة بالقرب من "متيسا"؛ فى حين أن البلاد الواقعة جنوب "لادو" و"الخرطوم" عبارة عن مستنقع كبير.

وبعد ذلك بأسبوع، يوم ٢٩ يناير، عاد جوردون مرة أخرى إلى فكرته المُفضَّلة، فذكر: "إننى أفضل تركيز جهودى فى الجنوب بالقرب من "كابا - ريجا"، وأن أقوم بالمحاولة الوحيدة التى ستفتح أفريقيا أى أن أهبط الساحل حتى أصل إلى "مُمباسا"، وهو خليج يقع فى شمال زنزبار. إن الملاحه من هنا حتى الخرطوم لهى عملية رهيبه، وبدأ الوقود ينفد وسيزداد نُذرة فى الأعوام المقبلة؛ وتوجد جروف رملية فى مجرى النهر، ولا نستطيع أن نطلب من الربانة العرب عمل مناورات صحيحة.

"ومن جهة أخرى، فإن السويس تبعد مسافة ٢٩٠٠ ميل عن ممباسا؛ ومن "ممباسا" إلى بلد "متيسا" ٤٠٠ ميل فقط، أى أن طول المسافة يبلغ ٣٣٠٠ ميل، منها ٣٠٠ ميل براً. ولقطع المسافة من القاهرة حتى الخرطوم، يجب اجتياز الصحراء والجنادل إلخ.. إلخ. وهذا الطريق طوله ١٥٠٠ ميل؛ ومن الخرطوم حتى "جوندوكورو" ١٠٨٠ ميل، ومن "جوندوكورو" حتى "متيسا" ٥٠٠ ميل أى أن إجمالى المسافة يبلغ ٣٠٨٠ ميل.

"إن بحيرة "فيكتوريا" عريضة، وبمقدورى اختصار الطريق البرى حتى "ممباسا". ولا يوجد أى اتجاه أفضل لكى أبدأ منه وأفتح طريقاً للبحر، وهى الوسيلة

الوحيدة لمساعدة هذه البلاد. إن كل الجزء الشمالى فى مديرتى عبارة عن مُستنقع قُفْر غير مفيد لأحد؛ أما الجزء الغنى، فيوجد فى منطقة "البحيرات"^(٩).

ووقع على عاتق الكولونيل لونج تحقيق الخطة التى وضعها الخديوى وجوردون لربط الأراضى المصرية - فى "البحيرات" الكبرى - بسواحل المحيط الهندي. وكان جوردون يُصر دائما على أن أغنى المناطق توجد فى جنوب "جوندوكورو"؛ أما البلاد الواقعة فى شمالها - حتى الخرطوم - فهى مُغطاة بالمستنقعات غير الصحية، ولن يكون لها - أبداً - قيمة ما بسبب مناخها. وكان على لونج أن يُسافر إلى القاهرة - فى شهر مارس - لإعداد الحملة التى ستمد نفوذ مصر إلى منطقة شرق النيل؛ وقبل سفره قام بحملة خرجت من "لادو" ونجح فى غزو البلد الذى يقع غرب النيل لحساب مصر؛ وهى بلد "ماكركا نيام نيام" فى شهر فبراير سنة ١٨٧٥.

وفى غضون ذلك، وصل إلى "لادو" إرنست لينان دى بيلفون (Ernest Linant de Bellfonds) - ابن لينان باشا وخريج كلية الهندسة فى باريس - فى شهر نوفمبر سنة ١٨٧٤؛ وفى الوقت نفسه، وصل مهندسان إنجليزيان كان جوردون قد طلب من الخديوى استدعائهما من إنجلترا لرسم الخرائط الجغرافية للنيل والبحيرة.

وفى بداية سنة ١٨٧٥، قُرّر جوردون إرسال إرنست لينان إلى الملك "متيسا" لاستمرار العلاقات التى بدأها لونج مع ملك "أوغندا" المحلي. ووصل لينان إلى هناك يوم ١٢ أبريل حيث التقى بستانلى الذى كان يبذل قُصارى جهده لإقناع الملك باعتناق المسيحية. وغادر لينان "أوغندا" يوم ١٥ يونيو حاملاً معه رسالة من ستانلى لحكومة إنجلترا يُطالبها فيها بضرورة الإسراع بإرسال مبشرين إلى "أوغندا"، وبعدم إضاعة فرصة عظيمة، مثل هذه، لفتح وسط أفريقيا أمام الديانة

المسيحية. ومنذ ذلك الحين، بدأ التدخل الإنجليزي المباشر في وسط أفريقيا يتم تحت غطاء الدين^[٣].

وتغير موقف جوردون منذ ذلك الحين: فأصبح يميل إلى جانب إنجلترا وانحدر إلى أدنى مستوى، وكان قد سبق له وأن مرَّ بفترة تردد بين تحقيق مصالح مصر أو مصالح إنجلترا في الصراع الكامن بينهما حول منطقة "البحيرات". / ولإدراك هذا التحوّل، سنتابع مراحل ما فعله في هذا الموضوع في سنة ١٨٧٦، وهي سنة مهمة بالنسبة لتقدّم السيطرة المصرية على منطقة أعالي النيل: وصل جوردون إلى "فاتيكو" يوم ٣ يناير سنة ١٨٧٦، وأقام هناك حتى يوم ٩؛ ووصل إلى "قويزة" يوم ١٣ بعد خمسة أيام من السير المضنى في بلد مليئة بالمستنقعات ومقفرة وكثيبة. وكانت لديه خطة محددة:

- ١- بعد ثلاثة أيام، التقدّم إلى "مرولي" ومداومتها وإنشاء محطة هناك؛ وهذه المدينة تقع على بعد ٣٠ ميلاً جنوب النهر.
- ٢- التقدّم في اتجاه "أوروندوجاني"، وإنشاء محطة هناك.
- ٣- إنشاء محطة أخرى عند شلالات "رييون" على بحيرة فيكتوريا.
- ٤- العودة إلى "قويزة" ومنها إلى "ماجونجو" ومحاولة إنشاء محطة هناك.
- ٥- وبعد ذلك، يهبط مع مجرى النيل حتى يصل إلى "دوفيله". وهناك ستنظره سفينة من نوع "النوجار" nuggar (وهي سفينة بخارية ذات نوعية خاصة) وقاربا إنقاذ وكلهم جاهزون لحمل المؤونة إلى "ماجونجو".
- ٦- وسيذهب جيسى إلى بحيرة "ألبرت" لاكتشافها.

[٣] عبّر الزعيم الكيني: جوموكينياتا عن هذه الفكرة نفسها - في عقد الستينيات من القرن العشرين - قائلا: "في البداية، كانت الأرض في حوزتنا والإنجيل في يد البيض؛ والآن، أصبح الإنجيل في يدا والأرض في حوزتهم" [المترجم].

وكان من المقرر أن يذهب جوردون إلى "ماكراكا" ثم إلى الخرطوم ومنها إلى القاهرة، وبعث برسالة جاء فيها: "سأكون قد رفعت راية الخديوى على البحيرتين"^(١٠). وبالفعل، كان جوردون قد كلف نائبه جيسى - منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٧٥ - بإعداد حملة لاكتشاف بحيرة "ألبرت نيانزا" بعدما فشل "واطسون" (Watson) وتشيبندول (Chippendall) فى تحقيق ذلك. ونجح جيسى فى مهمته ورفع الراية المصرية على شاطئ البحيرة بتاريخ ١٠ أبريل سنة ١٨٧٦؛ وتبقى اكتشاف بحيرة فيكتوريا، فأراد جوردون أن يحظى بهذا الشرف لنفسه.

وأراد جوردون تأكيد عزمه على إنهاء مهمته كما ينبغي، فكتب رسالة إلى الخديوى بتاريخ ١٦ يناير، جاء فيها: "وحتى لو امتلكتنا هذه البحيرات برفع رايتنا عليها، وبوضع قوات على شواطئها، فإننى أعتقد أن حقوقنا عليها ستسقط بعد فترة وجيزة إذا لم نسرع بزراعتها واستغلالها، ولهذا السبب فإننى أصر على ضرورة بناء سفن بخارية من نوع "توجار"^(١١).

وفى تلك الأثناء (بين شهرى سبتمبر وديسمبر سنة ١٨٧٥)، كانت حملة ماك كيللوب (Mackillop) - على ساحل المحيط الهندي - قد وصلت إلى نهر "جوبا" فى اتجاه "مباسا". وكان جوردون يحلم بوصول هذه الحملة لكى يُنسّق عمله معها وتساعده على أن يَشُق طريقاً إلى البحر لحساب مصر.

ومن المعروف أن إنجلترا كانت قد أجبرت الخديوى على إخلاء تلك المنطقة وإيقاف الحملة. وكتب نوبار باشا مذكرة عن هذا الموضوع - بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٥ - جاء فيها: "منذ أكثر من سنة، يضغط الكولونيل جوردون على الخديوى لكى يوصل ما بين "منطقة البحيرات" والمحيط الهندي.

"ووجد الخديوى أن فكرة الكولونيل جوردون ستفتح للتجارة طريق مواصلات أسهل إلى منطقة البحيرات؛ وفى الوقت نفسه، ستكون هذه الفكرة هى الوسيلة الوحيدة لسحق النخاسة إلى الأبد. ولتنفيذ هذا الهدف، أرسل سموه ماك كيللوب باشا على رأس حملة إلى ساحل المحيط.

وكان سموه يعرف أن إمام "زنبار" يدعى أن له حقوقاً على ساحل المحيط الهندي؛ ولكنه كان يعرف أيضاً أنها مجرد ادعاءات لا غير، وأن سلطة زنبار - على هذه المنطقة - لا وجود لها إلا في الخيال...

"إن إلغاء النخاسة - في المناطق الخاضعة لسمو الخديوى - قد كلف حكومته ثمناً باهظاً في الأرواح والأموال. ولكن فكرة تدمير نظام العبودية للأبد على الساحل لا يستطيع تنفيذها أحد سوى الخديوى فقط؛ فهو الوحيد الذى يملك الإمكانيات والقدرة والإرادة لفعل ذلك.

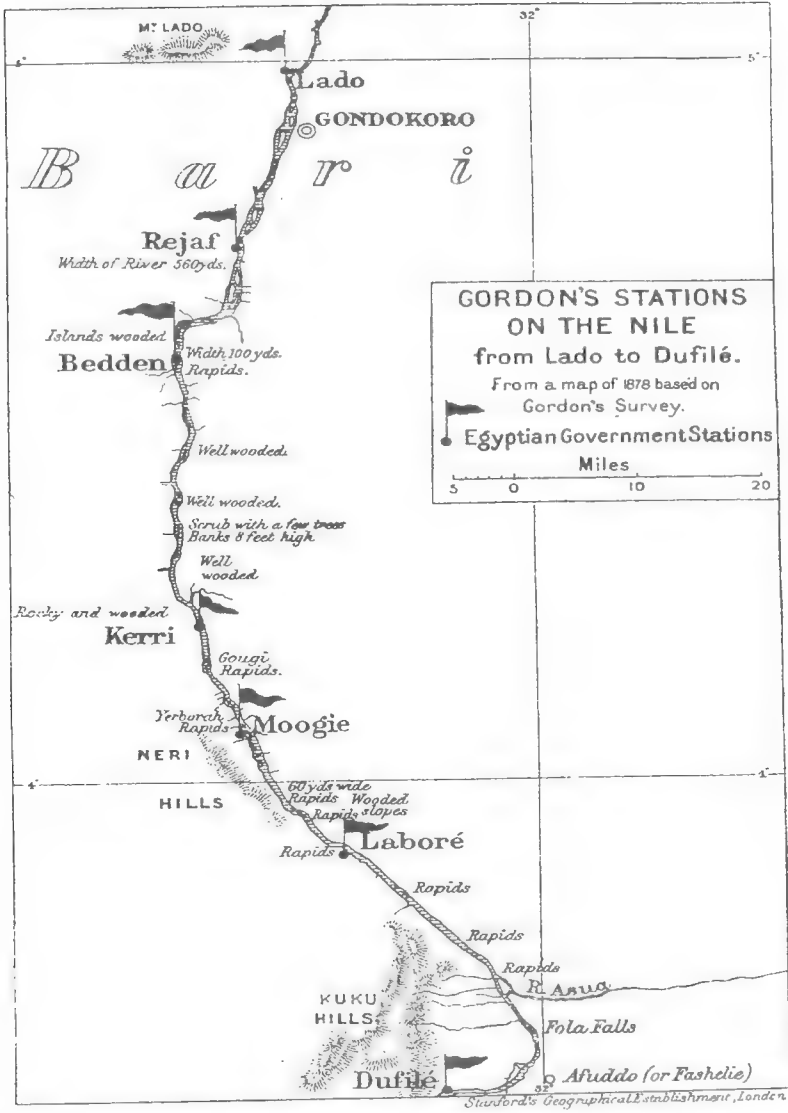
وأيضاً، فإن الخديوى - وحده - لديه الإمكانيات والقدرة والإرادة اللازمة لنشر الأمن فى تلك المنطقة؛ واستتباب الأمن سيفتح هذه المناطق الشاسعة والثرية أمام التجارة المزدهرة. وهذان السببان فقط (إلغاء النخاسة وتشجيع التجارة) هما اللذان جعلتا الخديوى يشعر بالحزن لرجوع ماك كيللوب إلى مصر بناءً على النصيحة التى قدمتها له حكومة صاحبة الجلالة الملكة"^(١٢).

وفى بداية شهر يناير سنة ١٨٧٦، وخلال مقابلة أجراها الكولونيل ستانتون مع الخديوى، تحدث الخديوى عن هذه الحملة:

- ١- فأصر على ضرورة حصوله على ميناء على المحيط الهندى لى يستطيع تنفيذ خطته لإلغاء النخاسة.
- ٢- وصرّح بأنه أنفق أكثر من مليون جنيه إسترليني لغزو المناطق الاستوائية فى وسط أفريقيا.
- ٣- كما صرّح - أيضاً - بأنه إذا لم يستطع الحصول على منفذ على ساحل المحيط، فإن هذا الغزو سيكون بلا فائدة.
- ٤- وأوضح أن إلغاء النخاسة - فى منطقة خط الاستواء - تسبّب فى نقص موارد السودان نقصاً خطيراً^(١٣).

وفى مثل هذه الحالة، كان من الأفضل - مائة مرة - لإسماعيل أن يُسجّل اعتراضاته باتخاذ موقف عملى حاسم [ولكنه لم يفعل]؛ وعندما علم جوردون بأن الخديوى سحب قواته بُناءً على أوامر الحكومة الإنجليزية، وصفه بأنه "أمير هندي"^(١٤).

وفى الواقع، فإن سلوك جوردون - فى هذه المسألة - كان مُبهماً: فمن المعروف أنه كان مطلوب منه الالتقاء بحملة ماك كيللوب؛ لكنه كتب بتاريخ ١٨-٢٠ يناير سنة ١٨٧٦، وهو متجه إلى "مرولي": "...أريد الوصول بسرعة إلى بحيرة فيكتوريا لكى أرفع راية مصر هناك وأساعد الخديوى فى إعلان حقوقه عليها... لقد تركتُ - تماماً - فكرة الذهاب إلى البحر بهذه القوات التى أقودها؛ وكنتُ قد اقترحتُ هذا المشروع على الخديوى فى شهر يناير سنة ١٨٧٥.



المحطات التي أنشأها جوردون على النيل من "لادو" حتى "دوفلية".
عن خريطة رُسمت سنة ١٨٧٨ بناءً على خرائط جوردون.
(الرايات تمثل المحطات التابعة للحكومة المصرية).

وكان هذا المشروع يقضى بأن يستولى الخديوى على "خليج فورموسا"، أو بالأحرى يستولى على نقطة تقع فى الشمال قليلاً حيث يصب نهر "دانا" ("تانا") أو "أوزتي" الذى يقول كرافت (Kraft) عنه أنه صالح للملاحة حتى جبال كينيا. لقد كنت أعتقد أن بحيرة "بارينجو" (أو "نجو") تتصل ببحيرة فيكتوريا، وهذا ما نفاه ستانلي. وحتى لو استولى الخديوى على مصب نهر "جوبا"، فإن ذلك لا يهمنى بالمرّة نظراً لأنه بعيد جداً: فهذا النهر يجرى من الشمال إلى الجنوب (وهو صالح للملاحة) بينما ساحل المحيط الهندى يوجد فى الشرق.

"وأرسل الخديوى ماك كيللوب ولونج إلى "جوبا" وطلب منهما انتظاري، وأعتقد أنهما سينتظرانى طويلاً: فأنا لن أخوض فى تلك العملية بهذه القوات البائسة غير المنظمة التى أقودها هنا..."

وبتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥، أخبر الخديوى جوردون بأنه أرسل إليه حملة ماك كيللوب حسبما طُلب فى شهر يناير سنة ١٨٧٥؛ لكن جوردون تحجج بسوء حالة قواته لكى يُبرّر رفضه المتأخر (فى يناير سنة ١٨٧٦) للتعاون مع الحملة التى وضعها الخديوى تحت قيادته: لكن هذه الذريعة الصبائية لا يقبلها سوى بعض المعلقين من الإنجليز فقط.

وعندما كان بيرتون (Burton) - المستكشف الإنجليزى المشهور - يشغل منصب قنصل إنجلترا فى ترييستا (Trieste)، تلقى رسالة من جوردون؛ وكانت هذه أول رسالة بين الرجلين اللذين لم يكونا قد تعارفا من قبل. وهذه الرسالة تعكس اهتمامات جوردون المنحازة لمصالح إنجلترا وتقدم لنا مفتاح اللغز. وكتب جوردون هذه الرسالة لبيرتون من مدينة "بيدن" بتاريخ ١٧ يوليو سنة ١٨٧٥، وجاء فيها: "... وسأتناول الآن مشكلة بحيرة "فيكتوريا - نيانزا"، وسأسمح لنفسى بأن أطرح عليكم بعض الأسئلة مثل:

١- ما هى الحدود الشمالية لزنزبار؟

٢- هل تُوجد مصالح ما لإنجلترا تتعارض مع امتلاك المصريين لمنفذ على البحر هناك؟

٣- إذا كان الساحل الواقع في شمال خط الاستواء لا يخضع لزنزبار، فلمن يخضع إذن؟

٤- هل العرب - في تلك المناطق - هم من الوهابيين القادمين من شبه الجزيرة العربية؟ إننى أطرح عليك هذا السؤال لأنهم إذا كانوا من الوهابيين، فسيكونون ألد أعداء مصر.

٥- وفى الداخل، إلى أى حد اعتاد الأهالى على الحضارة؟ وإلى أى حد تعاملوا مع أى جانب منها؟ وهل يمارسون التجارة مع الساحل؟ وبالتالي، هل هم معتادون على استخدام الأسلحة النارية؟

٦- هل أستطيع الاعتماد على القبائل المحلية البدائية التى تسكن بين بحيرة "بارينجو" وجبال كينيا؟ إن هذه القبائل ليست لها أية علاقة وثيقة بعرب الساحل.

"وتتلخص فكرتى فيما يلى: طالما أن قلب أفريقيا لم يُخترق من جهة الساحل، فلن يتم تحقيق سوى قدر ضئيل من التّقدم وسط هذه التجمعات السكانية المحلية غير المنظمة فى الداخل. وبالنسبة لى شخصياً، فأنا أتمنى رؤية طريق يربط الداخل بالبحر: فحكام المديرىات يُعطّلون - بشكل أو بآخر - الطريق الحالى. أمّا عن طريق البحر، فساكون حراً.

"وهذه الفكرة فكرتى بالكامل^(١٥). إنك تشغل منصب القنصل، وكذلك كنتُ أنا، فأرجوك ألا تُفصح عنها لأى شخص لأنك تعرف أن قنصلنا فى زنزبار سيكون فى غاية السعادة لو استطاع إعاقه تنفيذ مثل هذا المشروع؛ كما أن موقفه هذا سيُلفت الأنظار إليه، وسيعطيه الفرصة لى يكتب عنه لوزارة الخارجية.

"وأنا شخصيًا لا أريد التقدم إلى أبعد من بحيرة "بارينجو" (أو "نجو") في الشرق؛ وفي حالة السماح لمصر بالحصول على منفذ على الساحل أم لا، فيوسعى - في كلتا الحالتين - إرسال قوافلي إلى زنبار عبر الأراضي للترؤد بالمؤمن.

"وحسبما ذكر الدكتور كرافت، فإن نهر "دانا" يصب في البحر وهو صالح للملاحة من مصبه حتى جبال كينيا. وتُعتبر الأنهار بمثابة طرق مفتوحة لكل الدول. فإذا كانت معلومات الدكتور كرافت صحيحة، فإن رغبتى العارمة هي أن أمد حدودى - مؤقتًا - حتى جبال كينيا بدلاً من النزول مع النهر إلى المنطقة السفلى من البلاد"^(١٦).

ومن المؤكد أن بيرتون - فى رده على جوردون - لم يُثنيه عن تنفيذ مثل هذا المشروع الحيوى بالنسبة لمصر؛ ولكن كاتب سيرة بيرتون علق على هذه الرسالة قائلاً: "كان بيرتون يعرف حوض نهر النيل - والقبائل التى تسكنه - معرفة شخصية وعميقة؛ فرحب بالرد على رسالة جوردون، وأعطاه معلومات كاملة كما أخبره ببعض الحقائق المهمة فى كلمات مغطاة ذات معنى خاص".

هذا هو تفسير التغير الحاد فى موقف جوردون بخصوص فتح طريق إلى البحر لصالح مصر فى وسط أفريقيا. ولكن، هل كانت مصر تستطيع تعويض هذا الفشل؟ وهل كانت - على الأقل - قادرة على تأكيد حقوقها على منطقة "البحيرات الاستوائية" والبلاد المجاورة لها ("أوينورو" و"أوغندا")؟

وفى يوم ٢٢ يناير، توجّه جوردون إلى بحيرة فيكتوريا؛ وعندما وصل إلى مدينة "مرولي"، هرب الزعيم "كابا - ريجا ملك "أوينورو" الذى عزله بيكر، إلى مدينة "ماسيندي".

وبعد ذلك، فإننا لا نعرف السبب الوجيه الذى دفع جوردون إلى أن يُدير ظهره - فجأةً - إلى بحيرة فيكتوريا بدلاً من استكمال تنفيذ خطته الأصلي: فنزل فى "نيل فيكتوريا"؛ وفى يوم ٢٤، رحل إلى "فويرة". وعندما علم الملك "كابا -

ريجا" بمداهمة جوردون الوشيكة لـ "قُوَيْرَة"، غادر عاصمته "ماسيندي" يوم ٢٠ يناير حاملاً معه عرشه السحري، وهو عبارة عن تميمة سحرية يُبجلها الأهالي.

وأوحى هروب هذا الملك الزنجي المحلي لجوردون بالأفكار التالية عن "أونيورو": "إنها بلاد جدباء ومرهقة بناموسها وحشائشها وغاباتها وشعبها؛ وسكانها لن يُغيروا عاداتهم أبداً، فلا يقدّر أى دافع على تمدين هذه المجموعات العديدة من الشعوب" (١٧).

ويشعر المرء بأن جوردون كان يريد - رغماً عنه - احتلال البلاد الواقعة على ضفتي "نيل فيكتوريا" لحساب مصر؛ ومن هنا، جاء تردده الدائم وحركته المستمرة في التقدم والتأخر التي تشبه حركة المد والجزر. وبتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٧٦، وجّه رسالة إلى السير هنري راو لينسون (Henry Rowlinson) جاء فيها: "لدينا خريطة للنهر بمقياس نصف بوصة لكل ميل من "الخرطوم" حتى "دوفيله"، ومن "قُوَيْرَة" حتى "مزولي"؛ وآمل في أن أرفع بنفسى - أو بواسطة غيرى - مقاييس المنطقة الواقعة بين "دوفيله" و"شلالات مورشيسون"؛ وبذلك لن يتبقى سوى ثلاث مناطق:

١- المنطقة من "كوسيتيزا" حتى "مزولي".

٢- والمنطقة من "قُوَيْرَة" حتى "شلالات مورشيسون".

٣- و"بحيرة ألبرت".

"ولكننى لن أرفع مقاييس أى من هذه القطاعات الثلاثة للأسباب التالية: فالقوات - التي أرسلت إلى المحطات - ينقصها كل شيء وليس من حقى التوضيحية بموارد يمكن استخدامها للإعاشة من أجل الاستكشاف؛ فلقوات احتياجات قُوَيْرَة بينما يمكن للاستكشاف أن ينتظر. وأنا أعرف تماماً كم هو مُحزن أن نترك هذه "الفجوات"، أو المناطق التي لم تُكتشف بعد (رقما ١ و ٢)؛ وكذلك، فإننى مُغرم بالطوبوغرافيا لدرجة أننى أدركُ جيداً كيف سيكون عملى ناقصاً بدونها".

وَقَدْ يَتَّصِرُ الْبَعْضُ - مِثْلَمَا اعْتَقَدَ بَعْضُ كُتَّابِ سِيرَةِ جُورْدُون - أَنَّ ضَمِيرَهُ اعْتَبَرَ الْوَقْتَ وَالْمَوَارِدَ الْمَخْصَصِينَ لِلْاِسْتِكْشَافِ قَدْ اخْتَلَسُوا الْوَقْتَ وَالْمَوَارِدَ الْمَخْصَصِينَ لِنْتَظِيمِ الْبِلَادِ وَرَاحَةِ الْقَوَاتِ^(١٨).

لَكِنْ الْأَمْرُ لَمْ يَكُنْ يَتَعَلَّقُ بِمَجْرَدِ اسْتِكْشَافِ مَنطَقَةِ "نِيلِ فَيْكَتُورِيَا" فَقَطْ، بَلْ كَانَ يَتَعَلَّقُ بِعَمَلٍ سِيَاسِي رَفِيعٍ كَانَ جُورْدُونُ يَدْرِكُ تَمَامًا مَدَى أَهْمِيَّتِهِ وَضُرُورَةَ سُرْعَةِ تَنْفِيزِهِ؛ فَعِنْدَمَا كَانَ فِي "دُوفِيلِه"، كَتَبَ رِسَالَةً إِلَى الْخَدِيوِي - فِي شَهْرِ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ١٨٧٦ - قَالَ فِيهَا: "يَجِبُ عَلَى مِصْرَ أَنْ تَرَاقِبَ شَيْئًا وَاحِدًا بِدَقَّةٍ شَدِيدَةٍ أَلَّا وَهُوَ وَجُودُ بَوَاخِرِ تَابِعَةِ لِقَوَى أُخْرَى - غَيْرِ مِصْرِي - فِي مِيَاهِ بَحِيرَةِ فَيْكَتُورِيَا.

"لَقَدْ سَبَقَ لِي وَأَنْ كَتَبْتُ لِمَمُوكَم أَنَّ بَعْدَ رَفْعِ الرِّايَةِ الْمِصْرِيَّةِ (الَّذِي سَيَكُونُ أَمْرًا وَاقِعًا عَمَّا قَرِيبَ)، يَجِبُ عَلَى مِصْرَ أَنْ تُؤَكِّدَ مَلِكِيَّتَهَا لِبَحِيرَةِ فَيْكَتُورِيَا، وَأَنْ تَمْنَعَ السَّفْنَ مِنَ الْمَلَاخَةِ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْحَصُولِ عَلَى تَصْرِيحٍ مُسَبِّقٍ مِنَ السُّلْطَاتِ الْمِصْرِيَّةِ"^(١٩).

وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنْ جُورْدُونُ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي كَتَبَ لِأَخْتِهِ رِسَالَةً مِنْ "دُوفِيلِه" - بِتَارِيخِ ٢٠ فَبْرَايِرِ - قَالَ فِيهَا: "إِنَّكَ تَفْهَمِينَ حَزَنِي لِأَنَّنِي لَمْ أَمْلَأِ الْفَرَاقَاتِ - الْمَوْجُودَةَ حَتَّى الْآنَ - فِي خَرَائِطِ مَنطَقَةِ نِيلِ فَيْكَتُورِيَا. وَأَنَا لَا أَعْرِفُ بَعْدَ مَا إِذَا كُنْتُ سَاقِفٌ ذَلِكَ أَمْ لَا، وَأَنَا أَخْشَى بِشَدَّةٍ أَعَالَى هَذَا الْبَلَدِ، فَهِيَ أَرْضُ النَّامُوسِ وَالْغَابَاتِ وَالْمُسْتَقْعَاتِ وَالْبُؤْسِ. إِنَّنِي لِأَتَسَاءَلَ لِمَاذَا أَضْحَيْتُ بِنَفْسِي إِرْضَاءً لِلْجُغْرَافِيِّينَ؟ فَلَوْ كُنْتُ بِصَحَّةٍ جَيِّدَةٍ، لَكُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ؛ وَلَكِنَّنِي أَعَانَى مِنْ آلَامِ مَرَضِ الْكَبِدِ الْمَتَزَايِدَةِ"^(٢٠).

وَبَدَأَ جُورْدُونُ يَتَقَهَّقِرُ: فَغَادَرَ "دُوفِيلِه" يَوْمَ ٧ مَارِسَ، وَوَصَلَ إِلَى "لَابُورِيَّة" يَوْمَ ٩ وَمِنْهَا كَتَبَ الرِّسَالَةَ التَّالِيَةَ: "مَعَ الْبَرِيدِ الْوَارِدِ مِنْ "فُؤَيْرَه"، تَسَلَّمْنَا مَظْرُوفًا مَكْتُوبَ عَلَيْهِ "مِنْ سِتَانَلِي، لِعَنَايَةِ الْمَسْتَرِ إِ. مَارْتَسُون". وَهَذَا الْمَظْرُوفُ وَصَلَ مِنْ "مَتِيْسَا" - وَعَلَيْهِ كِتَابَةٌ تُشَبِّهُ "الْخَرْبُشَةَ" - وَأَرْسَلَهُ إِلَيْكَ بِدُونِ أَيْ تَعْلِيْقٍ. لَقَدْ وَقَعَ "مَتِيْسَا" فَرِيْسَةً لِقَلْقٍ هَائِلٍ، وَهُوَ يَقْسِمُ بِأَنَّهُ مُخْلِصٌ لِمِصْرٍ...

"أما "كابا - ريجا"، فقد هُزِبَ ومعه عرشه المسحور إلى الجنوب وترك كل الجهة الشمالية من مملكته. وأنا أجهل كل شيء عن ستانلي وفريقه، ويبدو أن بعض رفاقه قد مرُّوا هناك (عند "متيسا") يوم ٦ فبراير بدليل كتابة هذه الرسالة".

وفي رسالة ٦ فبراير، التي أشار إليها جوردون - أبدي "متيسا" خوفه من خبر وصول جوردون "ومعه سفينتين مسلحتين!!" ويرجوه ألا يحاربه؛ وبدلاً من حربه، يرجوه "أن يضع السفينتين في النيل، ويستولى على الشمال والغرب تاركاً له الشرق والجنوب، وأن يتحد معه لمحاربة قبائل "أونيورو". لقد كانت هذه المقترحات كفيلة بأن تفتح لمصر أبواب "أوغندا" و "أونيورو"، ولكن جوردون قرَّر ألا يهتم بها بتاتاً لأن ستانلي كان هناك ومعه ظل إنجلترا.

واستمر جوردون في تقفير: فوصل إلى "لادو" يوم ٢٣ مارس حيث تعافى من مرضه، ثم توجه - مُجدداً - إلى الجنوب، فوصل "بيدن" يوم ٧ أبريل وبقي فيها حتى يوم ١٠؛ وبعدها، توجَّه إلى "كيرري" يوم ١٢ حيث التقى بجيسى يوم ٢٩ أبريل. وكان جيسى قد طاف بحراً حول بحيرة "ألبرت - نيانزا"^(٢١). وغادر جوردون "كيرري"، ولكنه لم يتقدَّم بل عاد - مرة أخرى - إلى "لادو" (يوم ٢٧ مايو)؛ وفي ٣١ مايو، وصلت السفينة البخارية "الخدوي"، وقرَّر جوردون - أخيراً - أن يصعد في النيل حتى بحيرة فيكتوريا.

وفي ٤ يوليو، كتَبَ من "لابوريه" ما يلي: "اخفَى - الآن - كل قلقي على صحتي. وفي الوقت الحالي، فإنني أستعد لتفكيك السفينة البخارية "الخدوي"، وسأعيد تركيبها ثم أجعلها تُبحر فوق مياه بحيرة فيكتوريا، وسيتم ذلك كله - بمشيئة الله - في شهر أبريل، كما سيتم تأكيد ملكية الخديوى للبحيرة".

وفي ٨ يوليو، وصل جوردون إلى "دوفيله"، وغادرها يوم ٢٠ مع السفينة البخارية وقاربى إنقاذ. ويوم ٢٨، وصل إلى ماجونجو حيث يصبُ نيل "فيكتوريا" في بحيرة "ألبرت"، وكتب ما يلي: "العبد في التفكير والرب في التدبير: ففي نيّتي

التَّوجُّه من هنا إلى "فَوَيْزَة"، ثم إلى "مَرْوَلِي" و "أُوروندوجاني" و "كوسيتزا" (شلالات رييون)؛ وسأرفع راية مصر على بحيرة "فيكتوريا"، ثم أرسم مخططاً لنهر "كوسيتزا" في منطقتي "أُوروندوجاني" و "مَرْوَلِي".

"وتبلغ المسافة من "كوسيتزا" إلى "أُوروندوجاني" ٤٠ ميلاً بطريق البر، والنهر فيها غير صالح للملاحة؛ ولكنه صالح للملاحة من "أُوروندوجاني" حتى "مَرْوَلِي". لقد رسمت خريطة الجزء الواقع ما بين "مَرْوَلِي" و "فَوَيْزَة"، ثم نزلت مع النهر لكي أحضر قاربى الإنقاذ الآخرين".

إذن، فبتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٨٧٦، عاد جوردون إلى خطته الأصلية بعد سبعة أشهر من التَّردُّد والتمزق - والتَّثَقُّل المتوتر بين "لادو" و "فَوَيْزَة" - كما لو كان خاضعاً لإرادة غير مرئية تُسيطر عليه وتُسيِّره. وكانت الخطة تتلخص فى تنفيذ المهمة السياسية - فى المقام الأول - برفع الراية المصرية على بحيرة فيكتوريا ثم الاستكشاف بعد ذلك. وكان جوردون قد حدَّد هذا البرنامج نفسه عندما كان فى "فَوَيْزَة" يوم ١٣ يناير:

١- فى خلال ثلاثة أيام، يجب مدهامة "مرولي" التى تقع على بُعد ٣٠ ميلاً جنوب النهر، وإنشاء محطة هناك.

٢- التَّوجُّه إلى "أُوروندوجاني"، وإنشاء محطة.

٣- إنشاء محطة أخرى عند "رييون" (على بحيرة فيكتوريا).

٤- العودة إلى "فَوَيْزَة".

٥- التَّوجُّه إلى "ماجونجو" للنزول مع النهر حتى "دوفيله".

٦- فى "دوفيله"، سيكون فى انتظارى سفينة بخارية (من طراز نوجَّار) - مع قاربى إنقاذ - جاهزين لنقل المون إلى "ماجونجو".

٧- بعد ذلك، التَّوجُّه إلى "ماكراكا" ثم إلى "الخرطوم" ومنها إلى القاهرة بعد رفع راية الخديوى على البحيرتين.

ولكن هاتين الخطئتين - أو بالأحرى الخطئة الواحدة - لاقتا المصير نفسه الذي لاقاه مشروع فتح طريق للبحر: فقد استولت إنجلترا على الخطئة المصرية في وسط أفريقيا، وعملت على إخضاع الساحل و"أوغنده" ومنطقة "البحيرات" لنفوذها، وبذل ستانلي والمبشرون الإنجليز كل ما في وسعهم في هذا الاتجاه، ولم يجرؤ جوردون على المساس بمملكة "متيسا".

وللحفاظ على المظاهر، أرسل جوردون إلى بلاط الملك "متيسا" شخصية مصرية^[٤]: إدوارد شنيترز (Edouard Schnitzer) وهو يهودى ألماني اشتهر باسم "أمين". وكان شنيترز قد وصل إلى السودان بعد حياة حافلة بالمغامرات، فدعا جوردون للمجيء إلى "المديرية الاستوائية" التي وصلها يوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦، وعيّن في منصب طبيب المديرية. واعتنق أمين الدين الإسلامى وكاد أن يصبح تركياً تماماً. وكلفه جوردون بأن يستكمل ما بدأه شاليليه - لونج وإرنست بيلفون في "أوغندا": فوصل "أمين" إلى بلاط الملك "متيسا" بالقرب من بحيرة فيكتوريا - يوم ٢٨ يوليو - وهو اليوم نفسه الذى وصل فيه جوردون إلى بحيرة "ألبرت".

وكانت هذه الحملة بلا فاعلية بالمرّة؛ ولهذا السبب، كان "أمين" مجرد مراقب أو شاهد سلبي على بعض الأحداث التي كانت مهمة بالنسبة لهيمنة مصر على هذا البلد. وفي الواقع، قبل أن يغادر جوردون "مرولي" - يوم ٢٥ يناير - كان قد أعطى للضابط المصرى "تونيهر أغا" تعليمات محددة: "اسأل "متيسا" عما إذا كان يريد قوات فى "أوروندوجاني"؛ فإذا أجاب بـ "نعم"، اذهب لزيارته؛ أمّا إذا رد بـ "لا"، فاذهب إلى "تيام يونجو": فهذه المحطة كانت تابعة لـ "كابا - ريجا"، لكنها أصبحت - الآن - تابعة لنا بعدما استولينا على مرولي"^(٢٢).

[٤] كذا فى الأصل !!! [المترجم].

وكانت هذه هي أفضل طريقة للتعامل مع هذا الملك الزنجي الصغير: فـ"متيسا" كان واثقا من أن جوردون ينوى به شرا، فتملكه الرعب، وتشهد على ذلك الرسالة المكتوبة بتاريخ ٦ فبراير والتي لم يرد جوردون عليها.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد أرسل "تويهر أغا" رسالة إلى جوردون في "ماجونجو" بتاريخ ٢ أغسطس أخبره فيها بأن "متيسا" عثر للضابط المصري عن رغبته في نقل المحطة العسكرية المقامة في "أوروندوجاني" إلى عاصمته "دوباجا" نفسها، فجاراه الضابط في هذا الموضوع، فرد عليه جوردون بقوله: "بما أنها رغبة الملك نفسه، فسأترك الـ ١٦٠ جندي هناك. إن الملك متيسا مخطئ في هذا التصرف: لقد كنت أريد له أن يحافظ على استقلاله؛ ولذلك، فقد اخترت طريق النيل - "أوروندوجاني" و"كوسيتزا" - (شلالات "ريون") - أما الآن، فتوجد حامية مصرية في عاصمته، وهذا العدد الصغير من الجنود كاف لحماية هذه الأماكن: فأنا أفكر في سجنه إن لم يظل هادئا. وفي نيّتي - أيضا - الاستيلاء على كل تجارة "زنبار". وفي الواقع، لقد فقد "متيسا" استقلاله المفترض" (٢٣).

ومع ذلك، فقد بذل جوردون كل جهده لكي لا تتحوّل هذه التبعية المفترضة إلى تبعية حقيقية لمصر، فبدلاً من استكمال مسيرته من "قويرة" - في شهر يناير - والتوجّه جنوباً إلى بحيرة فيكتوريا وعاصمة "متيسا" - بالقرب من البحيرة - وبدلاً من مساعدة الضابط التابع له، سلك جوردون طريق الشمال.

وفعل جوردون ما هو أسوأ: ففي ٨ مارس، تسلّم الرسالة المشهورة - التي أرسلها له الملك "متيسا" بتاريخ ٦ فبراير - وهي الرسالة التي تُعتبر تكريسا أو تصديقا لاتفاقية الحماية المعقودة مع لونج بتاريخ ١٩ يوليو سنة ١٨٧٤؛ لكن جوردون اكتفى باعتبارها مجرد "شخبة"، وترك - بذلك - المجال مفتوحاً أمام الإنجليز - الموجودين في "زنبار" و"أوغندا" - لتهديّة الملك، كما جعلّ تضحيات مصر - منذ سنة ١٨٧٠ - للسيطرة على حوض نهر النيل تذهب أدراج الرياح.

إن سياسة الخيانة التي اتبعها جوردون كانت لها نتيجة فورية: فعندما وصل إلى "قويرة" - يوم ١٣ أغسطس - التقى بمرووسه الضابط "تويهر أغا"، ولنترك

الكلمة لجوردون: "عرفتُ أنه (أى الضابط) عندما وَصَلَ إلى بلاط الملك "متيسا"، صَرَفَ حَمَّالِيه، ووعده الملك بأنه سيوفر له حَمَّالين غيرهم. ولكن متيسا أخذ يماطله ويُسوِّف كل يوم حتى شَعُرَ الضابط باليأس، ووافق على ترك قواته في "دوباجا".

"وكان الضابط قد أنشأ محطة عسكرية هناك، لكن الجنود كانوا فعلاً أُسرى فيها لأنهم لا يستطيعون مغادرتها. إننا - في الواقع - موجودون في الوضع نفسه الذي كان فيه بيكر في "ماسيندي". وعلمتُ أن "متيسا" يشتري الآن كميات كبيرة من البارود من "زنزبار"، وهو - بالتأكيد - يُدَبِّرُ شيئاً ما.

"والآن، يجب على أن أذهب عنده لإخراج رجالى من هذا المأزق، وأُسحبهم من هناك، وأتابع تنفيذ خطتى الأصلية بوضع المحطة العسكرية في "تيام مُونجو" التى تقع على بُعد تسعة أميال شمال "أوروندوجاني". ومن هذا المكان - "قويرة" - فإن النهر صالح للملاحة حتى "أوروندوجاني" وهناك سأنتظر تطورات الأحداث، وسأعمل على إحضار سفينة بخارية لأستكشف هذا الجزء من النهر.

"ويوجد شخص عربى من "زنزبار" فى بلاط "متيسا"، وهذا الشخص يكتب اللغة الإنجليزية، وكانت "الإرسالية" ("البعثة التبشيرية" التابعة للكنيسة الإنجليزية) هى التى أوصلته إلى هناك. وكتبَ هذا الشخص لى - باسم الملك "متيسا" - رسالة جاء فيها أنه "ملك أوغندا"... إلخ وأنه أعظم ملك فى أفريقيا. لقد ضمَّ "متيسا" جنودى إليه ولم يضمه جنودى إليهم".

وأبلغ جوردون الخديوى بهذه الأخبار المشوَّشة، والمبالغات المحسوبة لاستعدادات "متيسا"، ومأزق الحامية المصرية؛ وهذه الحكاية غير المحبوبة جيداً تكشف نوايا جوردون السيئة والمضطربة: فكل كلمة فيها تُظهِر رغبته فى الجلاء عن "أوغندا" التى كانت مصر قد ضمتها فعلاً.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن المستر بوجلر (Bouglar) - الصديق الشخصى لجوردون وكاتب سيرته - يحكى لنا، هو أيضاً، رواية مُبهِمة وغير حقيقية عن

هذه الواقعة فيقول: "عندما تسلّم جوردون طلب الملك "متيسا" باحتلال "دوباجا"، أقام فعلاً محطة عسكرية على بحيرة فيكتوريا، وبعث ببرقية للخدوي يخبره فيها عمّا فعله، فسارَعَ الخدوي وأنعم عليه بنيشان "المجيدية". وحينما وصل هذا الخبر إلى جوردون، كان قد سبق له وأن قرّر أنه لن يكون من حُسْن السياسة تلبية رغبة الملك، ونَجَحَ - بالكاد - في إنقاذ قوة مصرية من وضع خطر كانت واقعة فيه" (٢٤).

وفيما بعد، سيروى جوردون هذه الأحداث بشكل مُغاير: ففي رسالة وجّهها إلى السير صمويل بيكر -يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٧٨ - ذكر ما يلي: "إن رجال الملك "متيسا" لم يكن بمقدورهم - أبداً - محاربة رجال "وانيورو": فهم جُبناء وأنذال، ويستطيع ثلاثمائة جندي أن يقضوا عليه وعلى مملكته. فهل تعرفون أننى استطعتُ احتلال عاصمته بمائتى جندي فقط فى سنة ١٨٧٦، ولمدة أربعة أشهر؟ وبعد ذلك، سحبتهُم متذرعاً بأن مناخها غير صحي" (٢٥).

إن الأمر واضح تماماً، ولا يوجد به أى شك: لقد أجلى جوردون قواته عن "أوغندا"، وكان مَرُوسه - الضابط المصرى - قد بادر باحتلالها لعدة أشهر بناءً على طلب من ملكها - الملك "متيسا" - الذى أصيب بالرعب لدى اقتراب المصريين بأسلحتهم منه ...

وعندما وصل جوردون إلى "مُرُولي" يوم ١٨ أغسطس، قرّر - أولاً وقبل كل شيء - ألا يذهب بنفسه إلى "دوباجا" تجنباً لحدوث تعقيدات فى الوضع، واكتفى بإرسال "تُوِيهر أغا" إلى هناك ومعه ٩٠ جندياً "سيكُونون" قوة كافية مع الـ ١٤٠ جندياً الآخرين من جنود الحامية.

وبتاريخ ٢٣ أغسطس، كَتَبَ ما يلي: "وَضَعْتُ الخطة التالية بعد تفكير عميق: بعد رجوع القوات من "دوباجا"، سأنتقم على رأس مائة رجل حتى "نياميونجو" و"أوروندوجاني"، وسأرسم مخططاً للنهر والبلد فى المنطقة المحصورة بين "مُرُولي" وهَذَيْن المَكَانَيْنِ... ويجب على أن أترك هذا القطاع الصغير من نهر

النيل - بين "أوروندوجاني" و"بحيرة فيكتوريا"؛ فأنا أتجنب إتمام هذا العمل خوفاً من التعقيدات التي لم نستعد لها. ولكم أن تتخيلوا شعورى فيما يتعلق بهذا القطاع الصغير من النيل لأنه هو القطاع الوحيد الذى لم أرفع مقاييسه من "بربرة" حتى "بحيرة فيكتوريا".

وفى الوقت نفسه، أعلن جوردون عن عزمه على إخلاء هذا الإقليم "لكى أكون فى الخرطوم فى حوالى منتصف أكتوبر، ثم فى القاهرة فى شهر يناير، وبعدها فى إنجلترا فى الخامس من فبراير تقريناً"^(٢٦). إذن، فجوردون لم يكن يريد الذهاب إلى "بحيرة فيكتوريا".

وحسبما ذكر آخر من كتبوا سيرته، فإن جوردون قد رفض الذهاب إلى هذا القطاع الصغير - الذى يُغطى آخر ٦٠ ميل من "نيل فيكتوريا" - "ونفذ سياسة حكيمة وماهرة لأنه امتنع عن شق طريق إلى "بحيرة فيكتوريا" احتراماً لرغبة أقوى عامل محلى (!!). ومع أن الخديوى كان يريد بسط نفوذه حتى هذه البحيرة، إلا أن جوردون لم يكن يتصور أبداً أنه قد تطوَّع فى حملة للغزو... إلخ"^(٢٧).

ولم يجرؤ جوردون على التحدُّج بهذه الذرائع التى لا تصمد أمام الحقيقة: فلقد سبقَ لنا وأن ذكرنا وأثبتنا - بشكل حاسم - أنه كان يريد أن يحتفظ لبريطانيا العظمى بالحق فى غزو "أوغندا" و"بحيرة فيكتوريا"، المورد الأساسى لنهر النيل. لقد أفسد سلوك جوردون ما أنجزه لونج فى "أوغندا"، كما تجنَّب إطلاق السفينة "الخديوي" لكى تُبحر على مياه "بحيرة فيكتوريا" رغماً عن عودته المتكررة الصريحة والدقيقة؛ علماً بأن لونج كان قد رفعَ - فعلاً - الراية المصرية عليها، وكان أول رجل أبيض يُبحر فوق مياهها بينما كان "سبيك" قد رآها من بعيد.

وفى النهاية، وتتويجاً لما قام به فى "أوغندا"، أرسل جوردون الضابط "تويهر أغا" إلى الملك "متيسا" ومعه "معاهدة يعترف فيها باستقلال الملك، ويقترح عليه إرسال سفراء إلى القاهرة" (!!)، لكن "متيسا" - بدوره - لم يتكرم بالرد على "شخبطة" جوردون.

وفى تلك الفترة نفسها، بدأ الإنجليز - منذ سنة ١٨٧٦ - يفكرون فى إنشاء إمبراطورية مترامية الأطراف - فى وسط أفريقيا - على حساب مصر، وبشرط أن تكون هذه الإمبراطورية متصلة بالساحل: ففى جلسة عقدتها "غرفة تجارة جلاسجو" - بتاريخ ٩ نوفمبر - قرّر المجتمعون رفع عريضة لوزارة الخارجية البريطانية لفتح طريق يصل بين "البحيرات" والساحل.

وشعرت القاهرة بالقلق من بدء غزو إنجلترا للإمبراطورية المصرية من جهة الجنوب، ومن موقف جوردون الغامض؛ فأطلقت "هيئة أركان حرب الجيش المصري" صيحة تحذير حقيقية على شكل مذكرة رفعها رئيسها - الكولونيل ستون باشا (Stone) - إلى الخديوي^(٢٨) جاء فيها: "قرأت بعناية شديدة الرسائل التى كتبها صاحب السعادة الجنرال جوردون باشا من "فويزه" بتاريخ ١٣ أغسطس سنة ١٨٧٦.

"وحسبما جاء فى هذه الرسائل، وبناءً على المعلومات الواردة من أوروبا - بخصوص نوايا الإنجليز (وغيرهم) تجاه بلاد وسط أفريقيا - فإن وضع الجنرال جوردون يبدو لى خطيراً للغاية، وأعتقد بأن مصلحة مصر الحيوية - فى هذه المناطق - تستلزم إجراء عمل فورى وفَعَال.

"إن ترك الوقت يمر لفترة طويلة سيضر بالسيطرة المصرية على مديريات خط الاستواء: فجزيرة زنبار - الواقعة تحت الحماية الإنجليزية - تبذل أقصى جهودها للحفاظ على أن تكون المواصلات مفتوحة بينهما وبين الملك "متيسا".

"وهذه الجزيرة تُقدّم حالياً - وستُقدّم فى المستقبل - المزيد من التضحيات لتدعيم نفوذها لدى هذا الملك الأسود، كما تحاول الإساءة للعلاقات الطيبة التى تربطه بمصر.

"ويوجد مبشرون إنجليز يتوجهون - حالياً - إلى بلد "رومانيك" انطلاقاً من "زنبار"؛ وهدفهم المعلن هو:

- ١- مباشرة الملاحة بالسفن البخارية فى "بحيرة فيكتوريا".
 - ٢- وإنشاء مستعمرات على الضفاف الغربية لهذه البحيرة لكى يؤثروا روحياً - أولاً - ثم مادياً على شعب "أوغندا".
 - ٣- وعمل اتصالات تجارية بين إنجلترا وشعبى "رومانىكا" و"متيسا".
- "وفى الوقت نفسه، فإن ملك بلجيكا يرأس منظمة لاستكشاف واستعمار بلاد وسط أفريقيا. وستبدأ هذه المنظمة نشاطها بإقامة محطة دائمة فى "باجامويا" - على شاطئ المحيط الهندى مقابل جزيرة "زنبار" - ثم ستقيم محطتين دائمتين: الأولى على شواطئ بحيرة "تتجانيقا"، والثانية فى جنوب "بحيرة فيكتوريا".
- "وفور إقامة هذه المحطات البلجيكية - مع محطات المبشرين الإنجليز - فسيتم افتتاح طريق آمن للتجارة، وستحتكر زنبار (أى إنجلترا) كل تجارة هذه المناطق بأكملها إذا لم تسبقها مصر فى تنفيذ هذا المشروع. وهذا الأمر سينكر فى جميع البلاد التى تقع حول بحيرتى فيكتوريا وألبرت إلا إذا بادرت مصر وأكدت سلطتها ودعمتها فى بلاد "متيسا" و"رومانىكا" ومملكة "ريونجا" الواقعة بين "نيل فيكتوريا" و"بحيرة ألبرت".
- "إن بحيرة "فيكتوريا" يجب أن تصبح بحيرة مصرية فى أسرع وقت، بالضبط كما حدث فى "بحيرة ألبرت": فحالياً، تم افتتاح الملاحة البخارية - فعلاً - هناك وهى ترفع راية مصر. وإذا لم يتم تنفيذ ذلك، فإن هذه البحيرة ستصبح، عما قريب، بحيرة إنجليزية. إن المبشرين الإنجليز - الذين يتوجهون الآن إلى بحيرة فيكتوريا - يحملون معهم سفينة بخارية، كما يحظون بدعم كنيسة إنجلترا الحكومية^[٥] التى تدمهم بالمال والأفراد اللازمين لإنجاز هذا المشروع.

[5] "الكنيسة الأنجليكانية" تمثل المذهب الرسمى لإنجلترا (المذهب الأنجليكاني) وهو مزج ما بين تعاليم المذهب الكاثولىكى ومذهب كالفن البروتستانتى. نشأ هذا المذهب بعد

"لقد كان "متيسا" موالينا لنا في بادئ الأمر، ولكنه بدأ - حاليا - يتلقى كميات كبيرة من الأسلحة النارية والبارود من "زنبار"، فبدأ عداؤه لمصر يظهر، حسبما جاء في رسائل الجنرال جوردون نفسه. إذن، فإن مصر لا يجب أن تُضَيَّع يوما واحدا إذا كانت تريد الحفاظ على نفوذها وتدعيمه في منطقة منابع نهر النيل.

"إننى أشعر بالقلق على مستقبل مصر إذا خسرت مديرياتها في منطقة خط الاستواء، وإذا لم تدفع بحدودها الحالية إلى أبعد مما هي عليه فى الوقت الحالى. إن الحفاظ على هذا النفوذ يتطلب اتخاذ قرار وتنفيذ إجراء بشكل سريع وفَعَّال. واقترحُ أن يتم ذلك على النحو التالي:

- ١- مساندة جهود الجنرال جوردون بهدف تدعيم كل ما تم الحصول عليه.
- ٢- غزو بلاد الملك "متيسا" واحتلالها.
- ٣- احتلال بحيرة فيكتوريا احتلالاً تاماً بافتتاح الملاحة الشراعية والبخارية فيها - فوراً - تحت الراية المصرية.
- ٤- احتلال "رومانيك" فيما بعد.
- ٥- فتح طريق بين "هَرَر" وضايف بحيرة فيكتوريا لمساعدة قوات جوردون، وفتح طريق اتصال سهل للتجارة بين 'بحيرة فيكتوريا' وساحل البحر عند "زِيلَع" و"بربره".
- ٦- احتلال الجبال الواقعة بين "بحيرة فيكتوريا" والمحيط الهندي لفتح منفذ - فيما بعد - على مينائى "كيسمايو" و"دومفور" وغيرهما إلخ...
- "وفى رأيي، فإن الأمة القوية التى ستمتلك منابع النيل هى التى ستمتلك - دوماً - مفتاح الدلتا فى مصر".

انشقاق الملك هنرى الثامن عن الكنيسة الكاثوليكية (١٥٣٤م). ويرأس ملك (أو ملكة) إنجلترا هذه الكنيسة [المترجم].

وفى واقع الأمر، فإن جوردون قد وَجَدَ نفسه فى موقف الكاذب تجاه مصر (وهذا أقل ما يُمكن أن يُوصف به): فبعدما خان ثقة الخديوى فيه، وبعدما خدَعَه بالوعود، وحاول كَسْبُ الوقت - بانتحال كافة الأعذار - لم يعد يُفكر إلا فى العودة إلى بلده. ومع ذلك، فإنه قد حرص - قبل كل شيء - على أن يُوَضِّحَ لمواطنيه الإنجليز - المقيمين فى أوغندا - كيفية خدمة المصالح الإنجليزية: فبتاريخ ٢ سبتمبر، كَتَبَ من "مزولي" ما يلي: "لقد كَتَبْتُ للإرسالية التبشيرية - فى "أوغندا" - مذكرة عن السياسة التى يجب على المبشرين اتباعها إذا أرادوا أن يستفيد "متيسا" بشكل دائم.

"لقد بدأ المصريون يكرهون الإنجليز، وأنا واثق بأنهم لن يتحملوا - من الآن فصاعداً - إملاء إرادتنا عليهم؛ كما أن كل حدث يمكن له أن يزيد من هذه الكراهية مثل: تدخلنا فى زنبار والحبشة، ووجود هذه الإرسالية التبشيرية حالياً التى - بحكم تشكيلها - تُعْتَبَرُ إرسالية دنيوية أكثر من كونها إرسالية روحية. وإذا لم نتصرف الإرسالية بذكاء، فإنها ستتسبب فى تدمير الملك "متيسا".

"وكنْتُ قد كَتَبْتُ مُنْبهًا إلى أنه إذا أراد المبشرون تقديم النفع له - بدلاً من الإضرار به - فيجب عليهم تقوية التحالف بينه وبين مصر - بقدر المستطاع - لأن أى موقف معاد سيتخذ ضدها سيكون بمثابة الكارثة بالنسبة له: فمهما كان رجاله منظمين أو مسلحين، فإن مصر تستطيع بسهولة الاستيلاء على "أوغندا"... وأنتم طبعاً تدركون بأننى أشير إلى الجانب الدنيوى فى مهمة هذه الإرسالية وليس إلى الجانب الروحى فيها.

"فالـى أى جانب - من هذين الجانبين - سيميل اهتمام "متيسا"؟ إلى تسليح رجاله أم إلى التقاهم والتصالح؟ إن مَنْ يستخدم السيف يمت بالسيف، وأنا مؤمن تماماً بأن الله يفضل الجانب الروحى؛ لكن عندما يستخدم الإنسان الوسائل الدنيوية، فإنه قد يصطدم بمقاومة دنيوية"^(٢٩).

ومن الواضح أن جوردون كان يستطيع - بسهولة - تنفيذ تعليمات الخديوى له بضم "بحيرة فيكتوريا" و"أوغندا" رسمياً إلى مصر؛ لكن تواجد هذه الإرسالية

الإنجليزية - ذات التوجه السياسى أكثر من التوجه الدينى - فى تلك المنطقة قد ساهم فى إيقاف هذا المشروع إلى حد كبير.

وفى نهاية الأمر، رجعت القوات المصرية من بلد الملك "متيسا" - بتاريخ ٩ سبتمبر - ومعها الدكتور أمين (إدوارد شنيتر) الذى يُنسب إليه أنه هو الذى تفاوض على انسحابها من هناك. واستفاد جوردون من تلك العودة لتنفيذ ما انتواه: ففى اليوم نفسه الذى غادر فيه "مُرُولي" (١١ سبتمبر)، بعث برسالة إلى أخته ذكر فيها ما يلي:

"كنتُ قد أرسلتُ إليك بمذكرة عن زيارة قام بها أحد ضباطى للملك "متيسا"، وكانت زيادة مسلية للغاية؛ فمن بين أشياء عديدة، كان الملك مرعوبًا عندما علم بوصول أخيك المسكين إلى "ماجونجو" مع السفينة البخارية، فاخفت معتقده الدينية (الإسلامية والمسيحية)، واستدعى السُحرة وعقدَ اجتماعًا معهم دام خمس ساعات. لكن هذه الاستشارة لم تُطمئننه بالمرة: فاستدعى مندوبى لديه وعُبرَ له عن حبه لي... ووجه إليه العديد من الأسئلة عن أسباب مجيئى إلى بلده.

"إن رأى الذى كونه عنه لم يتغير منذ سنة ١٨٧٣ (كذا !!)، أى منذ وصولي: فهو مجرد "عبد" (أبيب) مثل باقى السكان المحليين.

"ونصف الأسلحة النارية لديه عبارة عن بنادق بدائية، وليس لديه رصاص بل إنه يصنع المقذوفات من الحديد؛ كما أن لديه خمسة مدافع من البرونز ولكن بدون حوامل ولا أية قنابل لهذه المدافع (التي تشبه المدافع التي تستخدمها اليخوت فى التحية). وهذا الملك لا يثق فى أى شخص ويُغيّر موظفيه (الـ "متيانجول") باستمرار، ولا يوجد لديه شخصية مرموقة لقيادة جيشه؛ ولديه أيضا ٨٠٠ بندقية من مختلف الأنواع.

"وكنْتُ أخشى أن يكون قد تعلم - من جنودى - طريقة صنع السياج باستخدام الأوتاد الخشبية، لكن يبدو أنه لم يتعلم: فقد هدم ما بنيناه. وبلد الملك

"متيسا" مفتوحة تماما أمام أى غاز: فلا توجد بها الحشائش الكثيفة التى كانت تمثل الصعوبة الأساسية مع باقى الزعماء الذين لم يتم إخضاعهم. لقد هرب الملك إلى داخل البلاد بعيدًا عن البحيرة...^(٣٠).

لقد كانت مسألة "أوغندا" و"أونيورو" و"البحيرات" مسألة محسومة ومنتهية بالنسبة لجوردون: ففي يوم ١٥ سبتمبر، وصل إلى "نيامبونجو" - التى كانت تعتبر نظريًا آخر حدود ممتلكات مصر فى الجنوب - ومن هناك، أسرع بالسفر إلى القاهرة يوم ١٧ سبتمبر.

وعندما وصل إلى "الخرطوم"، كتب رسالة - بتاريخ ٢٩ أكتوبر - تنعكس فيها اهتماماته الدينية والسياسية؛ وفى الوقت نفسه، تظهر فيها اضطرابات ضميره المتأرجح والمشوّش. ويرسم جوردون لنفسه - وبنفسه - صورته على النحو التالى: "أرسلتُ برقية إلى القاهرة لأخبرهم بأننى أنوى النزول بها لبرهة من الزمن، لكننى لم أقل لهم أى شيء بعد عن نيتى فى الرجوع إلى إنجلترا لأننى أريد أن أدرس الموقف بوضوح.

"إن الرفاهية المادية تقول لى: "أنتَ بصحة جيدة ويكفيك ما حققته؛ عدُ إلى بلدك واستقر هناك، ولا تعرض نفسك للأخطار".

"أما العقل فينصحنى قائلاً: "ما جدوى غزو بلاد جيدة لحساب حكومة ما؟ إن البلاد أكثر بكثير ممن يستطيعون حكمها. عليك - إذن - أن تتسحب وتتجنب المشاكل المثارة مع "متيسا" و"الإرسالية الإنجليزية".

"ولكن شخص ما (لا أعرف مَنْ هو) يرد قائلاً: "أغمض عينيك عما يجب أن يحدث. ثق بالله، وأفعل ما يوسعك أن تفعله لكى تفتح البلد تمامًا حتى منطقة البحيرات. افعل ذلك ليس لحساب صاحب السمو ولا لحساب حكومته، بل افعله بإيمان مطلق". ويوجد عرّاف يقول لى: "دع قرارك يخضع لتعليمات الخديوي، فإذا بدا لك أنه غير مكرر، لا تتردد واذهب نهائياً"^(٣١).

وقبل مغادرة جوردون للخرطوم، عَهِدَ للكولونيل الأمريكي براوت (Prout) بقيادة الجيش في "المديرية الاستوائية"، ثم وصل إلى القاهرة، وسافر منها إلى لندن في شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦. وهكذا انتهت مهمة جوردون بصفته حاكمًا على وسط إفريقيا.

لقد نجح جوردون في إنشاء محطات عسكرية، وفي تخطيط الغزوات المصرية، وفي اكتشاف بعض مناطق "البحيرات العظمى" (بمساعدة لونج وجيسي)؛ لكنه - من الناحية السياسية - تعمد القضاء على المصالح العليا لمصر - المتمركزة حول البحيرات - لصالح بلاده، إنجلترا: فترك "أوغندا" و"أونيورو" تسقطان في قبضة النفوذ البريطاني، مع أن هذين البلدين كانا - فعليًا وقانونيًا - تحت حماية مصر.

هوامش الفصل الخامس عشر

(1) Emile Bujac: "Les Egyptiens dans l' Afrique Equatoriale".

(2) Colonel Chaillé – Long: "My life in four Continents: T.I, P. 80.

وفى كتاب آخر عنوانه: Egypte et ses Provinces perdues. يقول الكولونيل شالليه – لونج: "كانت الخرطوم هى مقر حكم جوردون – وتقع على طريق "جوندوكورو" – ومن مقر حكمه أصدر، قرار احتكار تجارة العاج. وهذا القرار يُوصف بأنه جنون تام لأنه أثار عداة التجار فى الخرطوم، وهم سلاطين السودان الفعلين الذين استثمروا كل أموالهم فى تجارة العاج. ولتنفيذ هذا القرار فى داخل أفريقيا، كان لابد من إقامة محطات كثيرة، وتكوين جيش صغير به ٢٥٠٠ "دنجلاوي" – أى جنود غير نظاميين – وهم الذين شكّلوا نواة جيش المهدي فيما بعد. إن هذا القرار ظالم وغير مُوفّق، ويُعتبر بمثابة بذرة التمرد الذى سيندلع فيما بعد والذى سيفتخر جوردون – فى كتابه – بأنه هو الذى صنعه".

(3) G.-B.Hill: "Colonel Gorden in central Africa", Lettre du 26 juin 1874.

(4) Ibid. Lettre du 3 août 1874.

(5) G. Schweinfurth: "Au coeur de l' Afrique (1868 - 1871)." Vol. II, chap. XXII.

(٦) قال رومولو جيسى – الذى كان نائب جوردون – ما يلى: "بسبب قرار جوردون، أصبح إجبارنا على زعماء "الزرائب" – المقامة على طول نهري "بحر الزراف" و"النيل الأبيض" – أن يخلوا هذه المنشآت خلال ثمانية أشهر؛ وبعد انتهاء هذه الميلة، ستصادر الحكومة العاج.

"لقد اتخذ الكولونيل جوردون هذه الإجراءات لكي يجعل التجار يطيعون أوامر الحكومة بسهولة، وبدون أن يخسروا خسائر فادحة؛ ولكنها تسببت في أن الحكومة خسرت الضرائب عن سنة كاملة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الضرائب كانت مراكز طبيعية للتموين؛ وعندما ألغاه جوردون، زادت نفقات حملتنا زيادة هائلة في ذلك البلد الشاسع الأرجاء والبعيد عن أى مركز تجاري.

"إن النقود لم تكن لها قيمة في هذا البلد لأن أهله لا يستخدمونها، فكان لابد من إحضار كميات لانهاية من البضائع والأشياء لمبادلتها معهم بما نحتاجه منهم. وكانت هذه البضائع تشكل حمولات كاملة لكثير من السفن البخارية بسبب وزنها وحجمها. وبالإضافة لهذه البضائع، كان لابد من التزوّد بالغذاء والملابس والمعدات العسكرية. وكل هذه الكميات من البضائع كانت تتلف بسهولة وفي وقت قصير: فكان لابد من تجديدها من وقت لآخر بسبب عدم وجود المخازن الملائمة، واستمرار هطول الأمطار الغزيرة، والخسائر التي تسببها حشرة النمل الأبيض". (Romolo Gessi : "Sette anni nel Sudan Egiziano")

- (7) "Emin Pacha in Central Africa, being a collection of his letters and journals", Edited and annotated by: Prof. G. Schweinfurth, Prof. F. Ratzel, Dr R. W. Felkin, and Dr. Hartlaub, London 1888.

وراجع أيضًا مذكرة بعنوان:

"On trade and commerce among The Waganda and Wanyoro".

ومع أن من علقوا على هذه المذكرة أوضحوا أن هذه الدراسة ظهرت في Ausland سنة ١٨٨٣، إلا أنها قد كتبت في تاريخ سابق، حوالى سنة ١٨٧٨.

- (8) Colonel Chaillé – Long: "L' Egypte et ses Provinces perdues".

- (9) G. B. Hill: Ibid. . ١٨٧٥ سنة يناير ٢٩ رسالة بتاريخ

- (10) G. B. Hill: Ibid. ١٨٧٦ سنة يناير ١٣ رسالة من "قويزة" بتاريخ
- (١١) رسالة من جوردون إلى خيرى باشا مكتوبة فى "قويزة" بتاريخ ١٦ يناير سنة ١٨٧٦، الوثائق المصرية. ذكرها Pierre Crabites فى كتابه:
- "Gordon in Sudan and Slavery, Londres, 1933.
- (12) Archives anglaises, F.O. 78, Vol. 3188.
- مذكرة من نوبار باشا. القاهرة، ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥.
- (13) Ibid. Vol. 3189. ١٨٧٦ سنة يناير ٩ القاهرة فى
- (14) G. B. Hill: Ibid.
- راجع جزء من رسالة بتاريخ ٩ مارس سنة ١٨٧٦ ذكرها هيل فى أسفل صفحة ١٥١.
- (١٥) كان جوردون يريد أن ينسب هذه الفكرة لنفسه على أمل أن الإنجليز سيقبلونها بسهولة، ولكن الخديوى كان هو صاحب هذا المشروع منذ سنة ١٨٧١.
- (16) W. H. Wilkins: "The Romance of Isabel Lady Burton," Vol. II, Pp. 646 - 650.
- (17) G. B. Hill: Ibid.
- رسالة من "فاتيكو" بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٧٦، صفحة ١٥٤.
- (18) Achille Biovès: "Gordon Pacha," Paris, 1907.
- (19) P. Crabites: Ibid. P. 70.
- (20) G. B. Hill: Ibid. Pp. 154 - 155.

(٢١) كتب Gessi في مذكراته ما يلي: "عندما كان ستانلي في "أوجندا"، كنت في "أورينورو" وكنت أرفع الراية المصرية في "ماجونجو"، وكنت قد استوليت على "مووتا - نزيجا" آخر حوض نهر النيل باسم حكومتي. وكان "متاسا" حذراً ويخشى من أن تقوم قواتنا بالتقدم شرقاً وتغزو مملكته: فوضع نفسه تحت إمرة ستانلي، وقدم له كافة الإمكانيات اللازمة للقيام بحملته الاستكشافية الكبرى"

("ette anni nel Sudan Egiziano")

(22) G. B. Hill: Ibid. P. 180.

(23) Ibid.

رسالة من "ماجونجو" بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦، صفحة ٧٨.

(24) Demetrius C. Bougler: "The life of Gordon," London. 1896.

(25) Douglas Murray & SilvaWhite: "Sir SamuelBaker, A memoir," Pp. 254 - 255.

(26) G. B. Hill: Ibid. P. 182.

(27) Bernard M. Allen: "Gordon and The Sudan", London. 1931. Pp. 75 - 76.

(٢٨) المحفوظات المصرية، قصر عابدين. مذكرة سرية مرفوعة لصاحب السمو الخديوي. مديريات خط الاستواء. القاهرة بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٦.

(29) G. B. Hill: Ibid.

(30) Ibid. Pp. 185 - 186.

(31) Ibid. Pp. 197 - 198.

الفصل السادس عشر

جوردون في السودان

(١٨٧٧ - ١٨٧٩)

- ١- مهمة جوردون الجديدة.
- ٢- مشكلة الموصلات.
- ٣- موقف إنجلترا من التوسّع المصرى حول "البحيرات".
- جوردون يخلّى الممتلكات المصرية فى وسط أفريقيا.
- ٤- جوردون إداريًا.
- ٥- الحرب الفاشلة ضد النخاسة والنخاسين^[١].

[1] أ- يوجد هنا خطأ إملائي فى النص الفرنسى: فالمكتوب فى هذا العنوان الفرعى (le traité) والصحيح هو : (la traite).

ب- فى الفهرس العام، جاء هذا العنوان بإضافة جملة: "... وأصول الحركة المهدية" [المترجم].

جوردون فى السودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩)

أولاً: مهمة جوردون الجديدة:

رجع جوردون إلى لندن وهو فاقد الاتزان لأنه كان قد وقع فريسة لتأنيب ضميره، ولأنه لم يكن حراً فى تصرفاته، فلم يستطع التقدم بل إنه كان يتراجع؛ فأراد أن يغطى هذا التراجع، ويضرب عصفورين بحجر واحد: فأرجع سبب فشله إلى إسماعيل باشا أيوب (الحاكم العام للسودان)، وأخذ يردد - فى لندن - أنه (أى جوردون): "استطاع أن يلغى النخاسة فى المديرية التى كانت تابعة له، لكنه لم يستطع إلغائها فى باقى أرجاء السودان الشاسعة حيث تُعتبر الخرطوم بمثابة القاعدة الأساسية لنظام العبودية".

لقد كان جوردون يردد النغمة السائدة آنذاك: فباسم محاربة النخاسة، عيّنت الحكومة الإنجليزية "مالكوم" فى ولايات البحر الأحمر؛ وعيّنت بيكر وجوردون فى وسط أفريقيا؛ ولعبت سفنها دور الشرطة البحرية فى المياه الإقليمية المصرية؛ وأصبحت ممارسة العنف جزءاً من النظام.

وكان بيكر قد ادعى بأنه قضى على النخاسة؛ ولذلك، فعندما يتحجج جوردون بها، فإنه كان يهدف - فقط - إلى تدعيم سلطته فى الخرطوم التى كانت القاعدة الأساسية لنظام العبودية، ولكنها كانت أيضاً - وعلى وجه الخصوص - القاعدة الأساسية لحكومة عموم السودان.

وذكر كاتب سيرته - المستر هيل - أنه بعد وصوله إلى لندن بوقت قصير "أخبره رجال مسئولون بأنهم يرون ضرورة رجوعه [إلى أفريقيا] من جديد لأسباب لا داعى لشرحها". ورجع جوردون إلى القاهرة وهو يعرف - بالطبع - أن

الحكومة المصرية ستجعله مسئولاً عن كل شئون مديريات السودان. وبالتأكيد، فقد رَحِبَت الحكومة الإنجليزية تماماً بهذه الفكرة التي ستتيح لها تنفيذ سياستها العامة هناك وبالطريقة التي تريدها.

وفُور رجوع جوردون إلى القاهرة، وَجَّه إلى حكومة الخديوى - بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٨٧٧ - "إنذاراً" (حسب تعبيره) قال فيه: "اعطونى السودان وإلا فلن أسافر".

وبتاريخ ١١ فبراير، التقى الخديوى بالمستر فيفيان - القنصل العمومى لإنجلترا فى مصر - وبعد هذه المقابلة، وافق إسماعيل على طلب جوردون: فمنحه - يوم ١٧ - لقب "الحاكم العام"، مع كل السلطات الإدارية والقضائية كاملة ليحكم بها:

- كل أراضي السودان.

- والمديريات الاستوائية.

- وولايات البحر الأحمر.

- وشرق السودان.

وبذلك، أصبح جوردون حاكماً على مساحة تساوى مجموع مساحة الجزر البريطانية، والبرتغال، وأسبانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وألمانيا، والنمسا معاً.

وفى التاريخ نفسه، حَدَّد الخديوى لجوردون هدف حملته الجديدة:

"١- السعي - بقدر الإمكان - لإلغاء النخاسة إلغاء تاماً.

٢- الإنجاز الفورى للطرق التي ستجعل اتصالات السودان بمصر أسرع وأسهل".

وفى الواقع، فإن هذين الهدفين الرئيسيين كانا مُرتبطَيْن تماماً ببعضهما البعض لدرجة أنه يُمكن اعتبارهما هدفاً واحداً، لكن الحكومة البريطانية لم تكن مُهتمة إلا بتحقيق أهداف سياستها الخاصة.

وبتاريخ ٩ مارس سنة ١٨٧٧، أُرسلت وزارة الخارجية البريطانية تهانيها للخديوى بمناسبة هذا التعيين "المفروض عليه، وتكررت: "أنها تجد فى هذا الإجراء "الطوعى" (كذا!!!) رغبة صادقة - من جانب سموه - فى القضاء على النخاسة، وإلغاء حملات صيد الإنسان؛ تلك الحملات التى كانت تُنظَّم على نطاق واسع داخل الأراضى المصرية، طبعاً بالمخالفة لأوامر سموه".

وعلىنا أن نُذكر القارئ بأن هذا التعيين "الطوعى" لجوردون قد حدث بعدما نفَّذ المستر فيفيان تعليمات اللورد ديربي، ووجه تحذيراً للخديوى بأن "سموه لن يجد، فى إنجلترا، أى تعاطف معه - فى موضوع تَوْسُع أراضيه فى وسط أفريقيا- طالما أن صيد العبيد والمتاجرة بهم ما يزالا قائمين فى الولايات التى يضمها سموه باستمرار إلى حكمه^(١)". لكن عندما عيّن إسماعيل أحد الإنجليز على رأس الحكومة العمومية للإمبراطورية السودانية، فقد أصبح من حقه أن يتوقع تأييد إنجلترا لتوسعه فى وسط أفريقيا.

وبعبارة أخرى، فإن الموافقة على تعيين جوردون قد تَمَّت مع أنها تُخالف الالتزام بالخط الذى حدَّده الخديوى مرة ثانية، أى الربط الوثيق بين مشكلة النخاسة ومشكلة المواصلات. وكان اللورد ريندل (Rendel) يرافق المهندس البريطانى "قويلر" فى مصر، وذكر ما يلى عن إسماعيل: "إنه ذكى للغاية لأنه طلب تأييد الإنجليز لمشاريعه فى السودان مُتَحججاً بأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على النخاسة هناك تكمن فى إدخال صناعة تكون أكثر ربحية منها^(٢)".

إن هذا الحكم يُعتَبَر بمثابة تحية لأراء الخديوى السديدة. ولكى ندرك قيمة هذا الحكم، علينا أن نتذكر أن مشكلة الاتصالات كانت تشتمل على مرحلتين متلازمتين:

المرحلة الأولى: بسط السيادة المصرية على حوض نهر النيل بأكمله؛ ويكون ذلك باستكشاف مجرى النهر حتى بحيرة فيكتوريا، واحتلال "أوغندا"، وشق طريق إلى البحر.

المرحلة الثانية: إنجاز مد خط السكة الحديد من القاهرة حتى الخرطوم لتجنب مصاعب الملاحة في نهر النيل.

ثانياً مشكلة المواصلات

في سنة ١٨٧٧، كانت مشكلة المواصلات ما تزال مطروحة قيد البحث؛ وكان تقدم المصريين - على ضفاف بحيرة فيكتوريا - ومد خط السكة الحديد قد توفقا بسبب سوء الوضع الاقتصادي والسياسي لمصر. لكن في تلك الأثناء، كانت لدى جوردون سلطات غير محدودة، فكان لزاماً عليه أن يقوم بتنفيذ هذا الجزء الأساسي من البرنامج الذي وضعته مصر.

وكان إنشاء طرق مواصلات سريعة، في تلك البلاد الشاسعة سيضمن:

١- تواجُد رجال الشرطة.

٢- وبالتالي، سيجعل إلغاء النخاسة سهلاً.

٣- وسيُشجع على إيجاد أصناف بضائع أخرى غير العاج والعبيد.

٤- وسيخلق موارد واحتياجات جديدة يتم التعامل فيها بالنقود.

باختصار، لقد كان إنشاء طرق مواصلات سريعة سيؤدي إلى وفاة النخاسة وفاة طبيعية وذلك نتيجة لحدوث تحوّل بطيء في المؤسسات القائمة بالفعل: فمشكلة المواصلات كانت هي أساس مشكلة النخاسة والإدارة العامة في السودان.

إذن، فقد تم تكليف جوردون بحل عدة مشاكل ملّحة، منها مشكلة مد خط السكة الحديد: فالخديوى كان قد وقّع عقوداً، وأنفق ١٢ مليون ونصف المليون فرنك. ومع ذلك، فإن خط السكة الحديد لم يتجاوز جنوب "وادي حلفا" إلا بحوالى ٥٠ أو ٦٠ كم فقط، فى حين أن خطة الخديوى كان تقضى بإنشاء خط سكة حديد (واحد على الأقل) يسير بمحاذاة النيل غنر الصحراء، ويبدأ بعد الجنادل من "وادي حلفا" حتى "هينيك". وقدّر جوردون أن الجزء الباقي سيتكلف حوالى ٤٠ مليون فرنك.

ومن المؤكد أن تنفيذ مد خط السكة الحديد يُعتبر عملاً حضارياً وخيرياً عظيماً، وكان سيتم فعلاً فى عهد إسماعيل لولا وجود عائقين أوقفاه:

أ- فإدارة جوردون المالية كانت عبارة عن تبديد حقيقى للموارد (تماماً مثل إدارة بيكر).

ب- لم تكن إنجلترا تريد - حقيقة - إلغاء النخاسة باستخدام وسائل فعّالة مُبرأة من أيّة نوايا سياسية.

لكن فى شهر يونيو سنة ١٨٧٨ - أى بعد مرور أكثر من عام من الانتظار - وجدّ جوردون أن أفضل حل لهذه المشكلة هو تقديم اقتراح به قدّر من التحايل:

١- بما أن نهر النيل صالح للملاحة فى جميع أجزاءه - ما عدا المناطق التى تُوجد بها الجنادل - فيُمكن الاستفادة من مواسم الفيضان بأن تبحر فيه سفن بخارية صغيرة (تُصنّع فى إنجلترا).

٢- وللتغلب على مشكلة الجنادل، يتم استخدام عربات كهربائية (تراموايات) تسير بمحاذاة النهر، وتتجاوز الجنادل، وترتبط القطاعات الصالحة للملاحة ببعضها البعض.

وقدّر جوردون أن تكلفة هذا الحل لن تتجاوز مبلغ المليون و ٨٠٠ ألف فرنك فقط. وبالطبع، فقد رفض الخديوى هذه الخطة "المُرْتَجلة" والتي يظهر مدى "ارتجالها" عندما نقارنها بخطة مُماثلة وضعتها حملة الأميرال ولسلى (Wolseley). لكن هذه الحملة جاءت فى سنة ١٨٨٥، أى بعد فترات الأوان.

وسينجح الإنجليز - لاحقاً - فى إثارة التمرد فى السودان بسبب خطة العنف- التى فرضوا على مصر استخدامها- بحجة أنها الوسيلة الوحيدة لإلغاء النخاسة؛ وبالتالي، فقد كان عليهم أن يبحثوا عن إمكانية حماية هذه الإمبراطورية بأنفسهم. وعندئذ فقط، كانوا أول من تبنّى خطة إسماعيل لإلغاء النخاسة، وهى الخطة نفسها التى رفضوها بالأمس القريب.

وفى سنة ١٨٨٣، كتبَ الكولونيل ستوارت (Stewart) تقريراً عن السودان ذكر فيه ما يلى: "لكى أنجح فى القضاء على النخاسة، فإننى سأعتمد على فتح البلاد ونشر التجارة المشروعة. ولذلك، وبدلاً من الاعتماد على عقد معاهدات شديدة الصرامة، فإن هاتين الوسيلتين المذكورتين يُعتبران أكثر فاعلية. إن خط السكة الحديد سيختصر المسافة التى تفصل الخرطوم عن البحر، وأعتقد أن هذه الوسيلة فى غاية الفاعلية للوصول إلى الهدف المطلوب".

وفى التقرير الذى كتبه اللورد دوفرين (Dufferin) - "مصر فى سنة ١٨٨٤" - ذكر ما يلى: "لو كان قد تم تنفيذ خط السكة الحديد- من "سواكن" إلى "بربرة"- لكان قد قضى على النخاسة بفاعلية أكثر من أى إجراء آخر: فهذا الخط سيجعل "لادو" على مسيرة ٣٠ يوماً فقط من البحر الأحمر، وسيجعل "بحر الغزال" على مسافة ٢٠ يوماً فقط منه؛ ومن هاتين النقطتين ستتنتشر التجارة فى جميع الاتجاهات".

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد: ففى سنة ١٨٨٧، اقترح الإنجليزى فرانسيس فوكس (Francis W. Fox) تكوين شركة تحصل على امتياز إنشاء مستعمرات على ساحل البحر الأحمر وتكون مثل الشركات الإنجليزية الأخرى

التي تنشئ المستعمرات في "جنوب أفريقيا" والنيجر وشرق أفريقيا. واقترح - أيضا - إنشاء وكالات تجارية (Factories) في شمال "سواكن" وجنوبها. وفي الوقت نفسه، تمد هذه الشركة خطا للسكك الحديدية بين "سواكن" و"بربرة" ليتم فتح السودان أمام التجارة الأوروبية.

وفي عدد جريدة "التايمز" - الصادر في ٣ يونيو سنة ١٨٨٧ - عُدَّ المقال الافتتاحي موارد السودان الوفيرة ثم قال: "وبعد ذكر هذه المزايا الطبيعية، نعتقد أن السكان سيتعرفون على منتجات الحضارة [الأوروبية] ومواردها، وسيعتادون بسرعة على الأشياء التي كانوا يجهلون حتى الآن، أو التي كانوا يعرفونها ويعتبرونها رفاهية لا يستطيعون الوصول إليها. وهكذا ستتوالى الأحداث وستسير في مجراها الطبيعي.

"إن الاحتياجات ستخلق العمل الذي سيُنهي الخلافات الداخلية - بين القبائل وبعضها البعض - والحروب الخارجية. والعمل سيزيد - بسرعة - من الطلب على التعليم. وبالتالي، فإن النخاسة وصيد البشر - بمكاسيها القليلة ومخاطرها الكثيرة - سينهاران أمام الأعمال التي ستوفر للسكان فرصا أسهل وأسرع لجنى الثروة. إن الإنسان بفطرته يميل إلى الراحة والرفاهية، وهذان الدافعان القويان سيُساهمان في ترقّيته أخلاقيا وماديا".

وفي جلاسجو، ألقى المركيز دى ساليسبورى (De Salisbury) خطبةً بليغة تأييدا لمشروع المستر فوكس، وذكر هذا السياسى الكبير شركة مماثلة أنشأها السير ويليام ماكينون (William Mackinon) في شرق أفريقيا بعد سنة ١٨٨٥: "إن هذه الشركة تمتلك أرضا تبدأ من نقطة في مواجهة جزيرة "يمبا" (التي تقع في شمال زنبار بالضبط) وتصل حتى "بحيرة فيكتوريا - نيانزا". وهي تمتلك - أيضا - وادى النيل من البحيرة حتى حدود مصر. ومن البديهي أنه لابد من مرور وقت طويل حتى يتم تنفيذ الاستيطان في هذه الأراضي... وأعتقد أن هدف الشركة اعظم هو توجيه صرّة قاضية للنخاسة..."

"والنخاسة موجودة - حالياً - فى البحر على الشاطئ الشرقى لأفريقيا وعلى سواحل البحر الأحمر فقط. لقد اتخذ سلطان زنبار إجراءات حاسمة للغاية لمكافحة النخاسة فى "زنبار" و"مبا"، تحت إشراف السير تشارلز إ. سميث والمستر پورتال. لكن المنطقة التى تمر القوافل بها- والتى يجب منعها- هى المنطقة المحصورة بين بحيرة "فيكتوريا - نيانزا" و"مومباسا" (على الساحل الشرقى لأفريقيا).

"وإذا وُجدَ خط سكة حديد بين البحيرة والساحل، فلن تُستخدَم القوافل - بنفس القدر الحالى- لنقل العاج وغيره من منتجات الداخل أو الساحل. ويعرف الجميع أن هذه القوافل هى التى تنقل جموع العبيد، وأن تكاليف النقل بواسطتها أغلى مائة أو مائتين أو ثلاثمائة مرّة من تكاليف النقل بالسكة الحديد. وحالما يتم تنفيذ مشروع السكة الحديد، فإن القوافل ستصبح أثرًا بعد عين".

وأنهى المركز ساليسبورى خطبته بذكر الخسائر التى تكبدتها إنجلترا فى الأرواح والأموال لكى تقضى على النخاسة، لكن هذه الخسائر لا تُساوى شيئاً بالنسبة لما خسرت مصر: ففى هذه العملية، كانت مصر تُخاطر بخسارة وجودها ذاته. وقال المركز: "إننا- فى الوقت الحالى- نُنفق أموالاً جَمَّة على السفن والمراكب لكى نقضى على هذه التجارة الملعونة؛ ولقد أحرزنا- بالتأكيد - نجاحاً ملحوظاً لكنه كَبَدَ خزانة الدولة الكثير، وخسرنا - أيضاً - الكثير من أرواح البحارة وصحتهم: فقد كانوا يبذلون جُهْداً مُضنياً تحت الشمس الحارقة.

"وبدلاً من هذه الوسيلة المكلفة والصعبة، يجب علينا مهاجمة الشر فى مكمّنه واستئصاله من جذوره؛ وبذلك نُنقذ الجنس البشرى من هذا الدَّسّ الكريه مع المحافظة على أرواح بحارتنا الشجعان".

واستخدم المركز كل سلطاته لمساندة مشروع المستر فوكس، لكن الحكومة الإنجليزية ستُفضل - بكل تأكيد - تنفيذ مشروع الاحتلال المباشر الذي سيُحقق الهدف المنشود نفسه.

ومن المفيد - في هذا الصدد - أن نُذكر بأن جوردون - في سنة ١٨٧٩ - كانت لديه بعض الأفكار التي تؤنّبه بسببمُجمل ما فعله: فكل ما فعله كان عبارة عن سلسلة من التصرفات الجنونية والحروب إزاء النخاسين. وقدّر جوردون الخسائر البشرية - منذ سنة ١٨٧٥ - على النحو التالي:

١ - في "دارفور": ١٦ ألف مصري و ٥٠ ألف من الأهالي.

٢ - في "بحر الغزال": ١٥ ألف شخص ماتوا مَيِّتَةً عنيفة.

وهذه الأرقام لا تشمل أعداد العبيد الذين لاقوا حتفهم بسبب الإرهاق على الطُرُق الطويلة والشاقة التي كان النخاسون يسلكونها هرباً من رقابة السلطات. ويمكننا تقدير أن عدّد هؤلاء العبيد المتوفين يتراوح من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف عبد. لقد تمت التضحية بأرواح ١٨٠ ألف إنسان بسبب النخاسة. وإذا اعتمدنا هذا التقدير - الذي قدّمه جوردون - فهل يمكننا تقدير الخسائر الرهيبة التي لحقت بأرواح البشر والأموال منذ حملة بيكر؟

إن كل هذه الخسائر المفزعة نتجت عن تلك السياسة الطائشة التي اتبعها جوردون لإلغاء النخاسة في السودان، أي اللجوء للحرب بدلاً من ممارسة السياسة البناءة التي سبق للخديوى وأن نصّح بها.

ثالثًا: موقف إنجلترا من التوسع المصرى حول البحيرات.
جوردون يخلى الممتلكات المصرية فى وسط أفريقيا.
كان غزو "بحيرة فيكتوريا" يهدف إلى:

- ١- حل مشكلة الملاحة فى نهر النيل حلًا نهائيًا باعتبار أنه طريق مواصلات.
- ٢- تسهيل إلغاء النخاسة المنتشرة فى تلك المناطق.
- ٣- وأخيرًا، تأكيد حيازة مصر لمفاتيح النهر الذى تتوقف حياتها عليه.

لكن هذا المشروع اصطدم بالأهداف الخفية لإنجلترا رغما عن وعود وزارة الخارجية البريطانية التى قطعتها لمصر- مع تعيين جوردون - بتشجيع توسع مصر حول البحيرات. وفى الواقع، فإن إنجلترا- شعبًا وحكومة- كانت تعتبر أن الانطلاقة المصرية فى أفريقيا بمثابة كابوس يؤرق مضجعها.

وفى هذا الصدد، كتب المستكشف المشهور ج.أ.جرانت (J-A. Grant) رسالة نُشرت فى جريدة "تايمز" - بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٧٧- جاء فيها ما يلى: "إن السبب الأساسى لرجوعه (أى جوردون) هو العمل على ضم بحيرة فيكتوريا- نيانزا. وعند هذه النقطة، اعترضت بشدة ضد احتلال الخديوى للبحيرة لأن هذا الغزو المصرى الجديد سيكون كالشوكة فى جنبات الحضارة وسيزيد من صعوبة إلغاء النخاسة (كذا!!)"

"لقد اكتشفنا - سبيك وأنا- هذه البحيرة، ودارسنالى حول ضفافها دورة كاملة. إن مساحتها تبلغ ٤ آلاف ميل مربع، وضايفها غنية وخصبة وكثيرة السُكان.... وفى الحقيقة، فإن "متيسا"- ملك "أوغندا"- وضباطه هم أناس أكثر تحضرًا من تلك الحكومة التى تدعى بأنها تحمل الحضارة إليهم. وتهدف الجهود النبيلة- التى يبذلها المجتمع المسيحى- إلى ترقية هذا الجنس الذى يعيش فى وسط أفريقيا؛ ويجب على هذه الجهود النبيلة أن تُقيم حاجزًا ضد اجتياح العنصر الإسلامى."

أما وزارة الخارجية البريطانية، فقد سارعت، من جانبها، بالاستفادة من وكيلها- جوردون- ليس بغرض تشجيع التوسع المصرى فى تلك المناطق بل لإيقافه: ففي ٢٩ مارس سنة ١٨٧٧، وجه وزير الخارجية البريطانى تعليمات للقنصل العام فيفيان جاء فيها ما يلى: "أرسل لك طيه نسخة من شكوتين تلقيتهما: الأولى من مجموعة من الشخصيات ذوات النفوذ المهمة بصالح وسط أفريقيا، والثانية من "جمعية محاربة العبودية".

"والشكوتان تطلبان من حكومة صاحبة الجلالة استخدام نفوذها لدى الحكومة المصرية لمنع الخديوى من مد سيادته على مناطق وسط أفريقيا، وحول بحيرتى "فيكتوريا" و"ألبرت - نيانزا". وحسبما ذكر مقدمو الشكوتين فإن مثل هذا التصرف - لو تم - سيثير العداء بين المصريين والملك "متيسا"؛ وبُناء على ذلك، يجب علينا أن نتحاشى وقوع مثل هذا التصرف.

"وقبل الرد على هاتين الشكوتين يُسعدنى معرفة ما إذا كانت هذه الإشاعات (التي تقول بأن الخديوى يفكر فى الاستحواز على الأراضى المذكورة) لها أساس من الصحة أم لا^(٢)".

والشكوى الأولى كانت بتاريخ ١٣ مارس وقدمتها "جمعية الكنيسة التبشيرية" (Church Missionary Society)؛ أما الشكوى الثانية، فمقدمة من "جمعية مكافحة العبودية" (Anti-Slavery Society) و"جمعية حماية السكان الأصليين" (Aboriginal Protection Society) معاً. ومن المؤكد أن الحكومة البريطانية هى التى حرّضت على تقديم هاتين الشكوتين: فمن المعروف أن "جمعية مكافحة العبودية" - فى لندن - و"الإرسالية التبشيرية" - فى أوغندا - كانت ميولهما السياسية تتغلب على مواقفهما الإنسانية.

وكان المستر فيفيان يعرف جيداً أغراض حكومته: فساند جوردون فى هذا الموضوع قبل سفره إلى السودان يوم ١٨ فبراير. وبتاريخ ٩ أبريل سنة ١٨٧٧،

وَجَّهَ مذكرة إلى وزير خارجيته تحدث فيها عن نتائج لقائه مع جوردون، "الحاكم العام الجديد": "التقيتُ بالكولونيل جوردون قبل مغادرته القاهرة، وتحدثنا عن موضوع" التوسُّع المتوقَّع للسيادة المصرية في وسط أفريقيا"، وعن علاقاته بالأمراء المحليين وذولهم.

"وأخبرني جوردون أن سبيك - في سنة ١٨٦٢ - وصَّفَ "أوسوجا" بأنها دولة شبه مستقلة عن "أوغندا"، وقال إن هناك حروباً دائمة تتدلع بين الدولتين. وفي سنة ١٨٧٦، عندما كان على حدود "أوغندا"، أعلن الأهالي أن "أوسوجا" ليست تابعة لأوغندا. ومع ذلك، فإن الملك "متيسا" ينتحل - بدون وجه حق - لقب "ملك أوغندا وأوسوجا".

"كما أن الـ أوننيورو" هي مملكة الملك "كابا- ريجا"؛ وبهذه الصفة، ونتيجة لتصرف بيكر في سنة ١٨٧٢، فقد ضُمَّت إلى مصر. لكن "متيسا" استفاد من ضعف "كابا- ريجا" فضم بعض أجزاء "أوننيورو" - التي لم تكن مصر قد احتلتها - إلا أنه كان من المعروف أنها جزء من الأراضي المصرية.

"وكان لدى الكولونيل جوردون شعور مُسبق بأن مهمته في "أوغندا" ستتطلب أن تُعلن وزارة الخارجية البريطانية ضمان حياد" بحيرة فيكتوريا"، واستقلال "متيسا". ولم يكن يعتقد بأن مصر سترفض - على سبيل التنازل - الموافقة على هاتين النقطتين، لكنه كان يؤمن بأن رد مصر - على أية ملاحظة مماثلة - يجب أن يُصاغ على النحو التالي: هل ستضمن حكومة صاحبة الجلالة أن يسلك متيسا سلوك حاكم صديق ويكف عن مساعدة "كابا- ريجا" ضد مصر؟ وهل ستضمن أنه سيتصرف بصدق ويُعيد الجنود الفارين؟ إلخ...

"وكان الكولونيل يشك في أن مصر ستؤقف مسيرتها في اتجاه "بحيرة فيكتوريا" بعد كل التضحيات والمصاريف التي تكبدتها في وسط أفريقيا. إن تعليمات الخديوى له تطلب منه التقدم في هذه المنطقة وتسيير سفينة بخارية على

مياه تلك البحيرة بأسرع ما يمكن. لكنه كان واثقاً من أن مصر - بعد انتهاء هذه المهمة - سيكون يوسعها إعلان حياد البحيرة، خصوصاً وأنها لن تستطيع - أبداً - اجتذاب تجارة هذه المنطقة نحو النيل، فهذه التجارة يجب أن تسير في طريقها الطبيعي أى إلى الساحل الشرقى...

"وباختصار، فإن تقدير الكولونيل جوردون يرى أن مصر عليها التقدم حتى بحيرة فيكتوريا- نيانزا" بشرط أن تعلن- فى وقت لاحق - حيادها وتعترف - فى الوقت نفسه- باستقلال متيسر بناءً على شروط عادلة^(٤).

وهكذا، فإن جوردون أراد أن يقدم لمصر تنازلاً "شكلياً" (التقدم حتى بحيرة فيكتوريا)؛ وفى الوقت نفسه، يُقدّم تنازلاً "حقيقياً" لإنجلترا (إعلان حياد البحيرة، والاعتراف باستقلال متيسر، الذى كان قد قَبِل إعلان حماية مصر عليه ثم أخذ يَكيد لها فى مملكة كابا - ريجا).

وهذا التمهيد - الذى طالب به جوردون كضرورة حتمية - كان سيعطى بحيرة فيكتوريا لإنجلترا إلا أنه - فى نهاية الأمر - لا يمنع مصر من إمكانية ضم المناطق الموجودة على ضفاف البحيرة. ومن جهة ثانية، فقد لَمَح جوردون إلى أن "أونيورو" كانت مصرية ويجب أن تظل كذلك.

وفى كلتا الحالتين، فإنه لم ينس التضحيات الهائلة التى قدمتها مصر هناك. لكن وزارة الخارجية البريطانية كانت تريد بسط سيطرة إنجلترا على البحيرات (منابع نهر النيل) وكل المناطق المجاورة بما فيها "أوغندا" و"أونيورو" و"أوسوجا".

وتُوجد مذكرة صادرة عن وزارة الخارجية البريطانية - ضاع نصفها- تُوضِّح هذه النقطة بشكل فريد - وهى بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٧٧- وكانت تحتوى على التعليمات التى كان يجب على فيفيان وجوردون تنفيذها لإعاقعة السياسة المصرية فى وسط أفريقيا: "... وعليه أن يستخدم نفوذه - بقدر ما يستطيع

- بطريقة مناسبة لإنهاء الهجمات المصرية على أطراف بحيرات "ألبرت" و"فيكتوريا - نيانزا" و"تجانيقا"^(٤).

وكان يجب على جوردون أن ينصاع لأوامر حكومته رغماً عنه، وأن يبتعد - من الآن فصاعداً - عن "بحيرة فيكتوريا" بالرغم من وعوده التي قطعها على نفسه للخدوي حتى سنة ١٨٧٨.

ولكى نكون مُنصفين، يجب علينا أن نشهد بأن جوردون لم يكن من نوعية الرجال أمثال بيكر ومالكوم، أى أنه لم يُنفذ - أبداً - دفعة واحدة أو بملء إرادته السياسة التي تُملها وزارة خارجيته. وحتى في مشكلة النخاسة، فهو قد تجنّب - بقدر الإمكان - تنفيذ "سياسة العنف" حتى سنة ١٨٧٨، وفعل الشيء نفسه في مشكلة الأراضي؛ وإذا كان قد رضخ - في نهاية الأمر - لجميع رغبات دولته (إنجلترا)، فإنه قد رضخ على مراحل وبعد مراوغات.

وهكذا، سنجد - في سنة ١٨٧٤ - يترك لونج يُنفذ مهمته في "أوغندا" ثم ينصح بضممان استقلال "متيسا". وفي سنة ١٨٧٥، اتفق مع الخديوي على شق طريق للبحر؛ لكن بيرتون نصحه - فيما بعد - بالأفعل ذلك: فتخلّى عن حملة ماك كيلوب وتركها تلاقى مصيرها المحتوم. وفي سنة ١٨٧٦، اقترح ضم "بحيرة فيكتوريا" لمصر، ووصل إلى بُعد ٦٠ ميل منها، لكنه - فجأة - رجع على أعقابهِ.

وفي سنة ١٨٧٧، حاول جوردون إقناع وزارة الخارجية البريطانية بعقد صفقة مع مصر بمقتضاها تترك مصر "بحيرة فيكتوريا"، لكنها تحتفظ بسيادتها على "أونيورو"، و"بحيرة ألبرت"، و"أوسوجا" (وهي مملكة صغيرة تقع على ضفاف بحيرة فيكتوريا). لكن إنجلترا أصرت على إجلاء مصر من كل الأراضي الواقعة على ضفاف البحيرات.

وفي سنة ١٨٧٨، قرّر جوردون أن يمد حدود مصر إلى أبعد من "بحيرة ألبرت" - تنفيذاً لإرادة الخديوي. وأخير صديقه - سميريل بيكر بذلك، وكتب له رسالة

- بتاريخ ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٧٨ - جاء فيها ما يلي: "لم أتسلم أى شيء من خط الاستواء منذ عدة أشهر. وفي نيّتي الجلاء بقواتي عن "مرولى" و"قويره" و"ماسيندى" و"لاتوكا" و"روهل" و"ماكراكا" فكلها مناطق لا تستحق مجرد حراستها؛ كما أن "روهل" و"ماكراكا" موطنان للنخاسين (كذا!!)

"... ولدى هنا سفن بخارية مخصصة للإبحار فى "نيل فيكتوريا" - فى المناطق الواقعة بين: "قويره" و"مرولى" و"أوروندوجانى" و"سلالات ريبون" - لكننى أنوى استخدامها بطريقة أخرى. وفى ظل الأوضاع الحالية، سيكون من الأفضل لى تركيز جهودى على "بحيرة ألبرت" فى الجنوب والشرق والغرب^(٦)."

وقد يتصور البعض أن جوردون كان يريد الاحتفاظ "ببحيرة ألبرت" لمصر. أبدا. فالمطلوب كان ضرورة إبعاد المصريين:

١- عن "أوغندا" وملحقاتها فى بحيرة فيكتوريا.

٢- وعن "أونيورو" وملحقاتها فى بحيرة ألبرت.

وكان المبشرون الإنجليز المقيمون لدى "متيسا"- بيرسون (Pierson) وليتفيلد (Litenfield) ودكتور فيلكن (Felken) - يعملون فى هذا الاتجاه: فقاموا بزيارة الدكتور أمين بك فى أكتوبر سنة ١٨٧٨ (وكان يتولى منصب حاكم" المديرية الاستوائية")؛ وتزامنت هذه الزيارة مع وقوع اضطرابات فى الجزء الجنوبى للمديرية، فانتهمز جوردون هذه الفرصة وأمرَ أمين بك بالجلاء عن المحطات التالية: "مرولى" و"قويره" و"ماجونجو" و"كيروتو" و"قاديبك" و"ماسيندى" (عاصمة "أونيورو") بحيث أصبحت محطة "دوفيله" (التي تقع على بُعد ١٠٠ ميل فقط من "ماجونجو" و"بحيرة ألبرت") هى آخر حدود الأراضى المصرية.

وفى يوميات أمين بك - بتاريخ ٨ نوفمبر - اشتكى من تصرفات جوردون بقوله: "وهكذا، فإن العمل الشاق الذى بذلته قد ذهب أدراج الرياح!! ففى "كيسوجا"، رفض رجال "كابا- ريجا" استلام رسائله الموجهة إليه: فالملك قد قطع كل علاقاته بنا، وبدأ يهدد - مجدداً - وجود محطاتنا فى الجنوب، مع أن أوامرى لقادة المحطات الحدودية كانت تقضى بعدم مهاجمته. إن يدى مغلوله بسبب الأمر الأحمق الذى أصدره جوردون بعدم التقدم إلى أبعد من 'دوفيله"، ويبدو أنه لا لزوم لى هنا بالمرّة".

وحسبما يقول أحد كاتبى سيرة أمين بك، فإنه لم يُنصَح - دائماً - لأوامر جوردون. وبالتأكيد، فإنه قد تأثر لأن هذه المحطات أصبحت تُدر عوائد مُجزية جداً للحكومة المصرية بعدما صرّفت مبالغ ضخمة لإنشائها^(٧).

ويقول "فيتا حسان"^(٨) (Vita Hassan) ^(٨) إن أمين كان يريد التملّص من تنفيذ هذا الأمر: فبدلاً من الجلاء عن تلك المحطات، اقترح - على العكس - أن تتوسّع هذه المديرية إلى أبعد من "بحيرة ألبرت". لكن جوردون تمسك بقراره، وكلف جيسى باشا (الذى كان متواجداً فى "بحر الغزال") بالذهاب إلى مديرية "خط الاستواء"، وتنفيذ إجلاء القوات المصرية من هناك. وبعد أن ترك جوردون الخدمة فى السودان، بادر أمين بك - فوراً - وأعاد احتلال تلك المحطات التى أخليت. وفيما بعد، زادت قيمتها زيادة عظيمة.

[2] توجد صعوبة فى نطق لقب هذا الشخص باللغة الفرنسية: فكتابته بالحروف اللاتينية (Hassan) يمكن نطقها "حسن" أو "حسان". لكننا فضلنا النطق "حسان" لأن هذا الشخص - كما سيرد بعد ذلك - كان يهودياً تونسياً أو مالطياً، وكان أبوه أحد مترجمى القنصلية الإيطالية فى تونس. واستبعدنا النطق "حسن" لأنه من الأسماء الإسلامية الخالصة التى لا يتسمى غير المسلمين بها [المترجم].

وَقَرَّرَ جوردون معاقبة أمين بك بسبب عدم تنفيذ الأوامر: فعينه في منصب حاكم "سواكن" (وهي مديرية صغيرة على البحر الأحمر). لكن في سنة ١٨٧٩، بعد رحيل جوردون، ألغى خَلْفَهُ - رؤوف باشا - هذا القرار وأعاد أمين إلى منصبه الذي كان يشغله.

وفي سنة ١٨٨٢، بعد احتلال إنجلترا لمصر، أخذت إنجلترا تمارس بجرأة سياسة سرقة الأراضي المصرية في أفريقيا ونهبها، لكن هذه السياسة كانت قد بدأت - بالفعل - قبل ذلك التاريخ تحت حكم جوردون عندما أُجبرت مصر على التخلي قسراً عن "أوغندا" و"أنغورو" و"البحيرات".

وكما هي عادة جوردون، فقد حاول إرضاء ضميره المضطرب، وتبرير خيانتة لمصالح مصر - التي ائتمنَ عليها - فألقى باللوم على كاهل المصريين. ويتاريخ ١١ أبريل سنة ١٨٧٩، كَتَبَ ما يلي: "في تلك الأصقاع البعيدة للغاية، كانت حكومة المصريين أسوأ شكل من أشكال اللصوصية، وبلغت من السوء درجة انعدام الأمل في إصلاحها. ولذلك، فقد فعلت الشيء الوحيد الممكن فعله وهو "الجلاء عن تلك الأماكن".

"إنني حتى لم أوجّه اللوم للحكام: فلا جدوى من ذلك وقمتُ بارسالهم إلى القاهرة. وهناك شيء واحد مؤكد: هو أن المصري لا يجب أن يخرج - أبداً - من بلده. وأنتم تعرفون بأنني قُمتُ بالجلاء عن أكثر من نصف البلد الذي كان تحت سيادة مصر - في "المديرية الاستوائية" - وأن ٣٠٠ ميل أصبحت تفصلنا الآن عن متيسا^(٩)".

وفي الحقيقة، إذا كان مصير كيان مصر نفسه قد تَقَرَّرَ على ضفَّتَي "قناة السويس"، فإن مصير إمبراطوريتها بالكامل قد تَقَرَّرَ حول ضفاف "البحيرات": فمنذ سنة ١٨٧٥ حتى سنة ١٨٧٨، ضَمَّنَت إنجلترا نفسها السيادة على "وادي النيل" كله - من الشمال حتى الجنوب - عندما سيطرت على القاهرة والخرطوم، وقناة السويس ومنابع نهر النيل.

وهناك مسئولية جسيمة تقع على عاتق جوردون في تلك المرحلة شديدة القسوة. ونظرًا لأن نفسية هذا الإنجليزى العظيم كانت بالغة التركيب، فلم يكن سهلاً على المؤلفين أن يحددوا - بدقة - مسئوليته، فاكتفى أغلبهم بإصدار أحكام في غاية التطرّف عليه: إن جوردون لم يكن ذلك "الفارس الناثه" أو "أحد الحواريين" (كما قال عنه بيوفيس Biovès) لكنه لم يكن ذلك "الكذاب" (كما نعتّه شايليه - لونج Chaillé - Long).

لقد كان جوردون مزيجًا من "الفارس" و"الكذاب" معًا، وكان يقف دائمًا على الحدود المتأرجحة - وغير المحددة - بين: الأمانة وسوء النية، والطمع والنزاهة، والنزق المجنون والحكمة القوية، والقدرية والواقعية، والسذاجة والسخرية، والنفاق والصراحة، والتكشف الشديد وحب الحياة، والاندفاع والاتزان، والفظاظة واللباقة، والصلف والتواضع، والحلم والعمل.

إن عدم ثباته على موقف واحد، والقفز من النقيض إلى النقيض، والتعاقب السريع لانفعالاته النفسية المختلفة كانت كلها عوامل زادت من تعقيد شخصيته المركبة أكثر فأكثر.

وبعض هذه الصفات المتناقضة - التي ذكرناها - في شخصيته قد تبدو أوضح من غيرها: فمثلاً، سنجد - بالتأكيد - أن النزق المجنون والاندفاع والقدرية قد سيطروا غالبًا على طبعه. إن بعض المؤلفين يُعرّفون الإنسان بإبراز جانب واحد فقط من شخصيته المتعددة الجوانب، فيجعلونه - بذلك - إمّا ملاكًا وإمّا شيطانًا فقط؛ وبهذه الطريقة، يجعلون شخصيته أكثر غموضًا وأصعب على الفهم.

ولم يلعب جوردون - أبدًا - الدور النمطى للدبلوماسى الإنجليزى المشهور بأنه يُنفذ سياسة ما - مقررّة سلفًا - بأعصاب باردة وبمنهجية: فجوردون كان ذا شخصية مستقلة للغاية؛ ولذلك، فإنه لم يخضع لنظام ما؛ وكان ذا كبرياء عظيم يدفعه لاتخاذ مواقف رافضة على الدوام. لقد كان دبلوماسيًا بمعنى أنه كان يحرص على

مصالحه الخاصة - أو المصالح العليا لبلاده - ويحاول التكيّف مع الأوضاع التي لا يمكنه تجنبها.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد كان يكفي فقط أن تتمرد شخصيته وتقاوم لإثبات وجودها حتى يخرج من بين إهابها "بروتوس"^[٣] أو أى بطل آخر. لكن هذا البطل يبدو كمغامر كان يسير بلا هدف، ثم اعتنق فكرة ما فتحوّل إلى متعصب لفكرته.

وأيا كان الأمر، فإذا جرّدنا جوردون من الأساطير التي تحاك حول شخصيته، فسنجد أن جوردون الحقيقي لم يكن محارباً عظيماً ولا إدارياً جيداً ولا ديبلوماسياً كفناً.



رابعاً: جوردون إدارياً:

عندما تحدث شايليه - لونج عن إدارة جوردون في السودان، ذكر ما يلي: "كانت إدارته عبارة عن ارتباك يُثير الرثاء سواء فيما يتعلّق باختياره لمعاونيه أو باختياره للرجال الذين أوكل إليهم إدارة الشئون المالية بدون ممارسة أية رقابة عليهم. لقد كان السودان ينعم بالسلام والرخاء عندما وصل جوردون إليه. وعندما غادره - في سنة ١٨٧٩ - كان بلداً مديوناً وعلى شفا اندلاع التمرد.

"وفي إنجلترا، ما تزال موضة إطراء إدارة جوردون - الطيبة والعاقلة للسودان - سارية مع أنها كَبَّدَت مصر تكاليف هائلة، وعلى المعجبين بإدارة

[3] "ماركوس يونيوس بروتوس" (٨٥ - ٤٢ ق.م) سياسي روماني تبناه يوليوس قيصر وولاد عدة مناصب رفيعة، إلا أنه اشترك في مؤامرة اغتيال قيصر. وقبيل وفاة قيصر، قال عبارته المشهورة: "حتى أنت يا بروتوس!!" ("Et te, Brute!!"). انتحر بعد هزيمته على يد مارك أنطونيوس وأكتافيو. والمؤلف يقصد أن تتصرّف شخصية ما تصرفاً غير متوقع صدوره عنها [المترجم].

جوردون أن يقرأوا سجلات هذه الحكومة أو فليسالوا السير إيفلنج بيرنج [اللورد كرومر] نفسه عن هذا الموضوع".

إن التاريخ قد أكد وصَدَّق على صحة الحكم الذى أصدره شايليه - لونج. والتاريخ الذى نقصد ليس هو التاريخ الرسمى (الذى ما يزال يؤثر على المؤلفين) بل إننا نقصد التاريخ الحقيقى النزيه والمنصف. ومع ذلك، فإننا نختلف تمامًا مع شايليه - لونج عندما أضاف قوله: "وهناك بعض الشك فى أن تكون بريطانيا العظمى قد تَعَمَّدَت اختيار جوردون لتنفيذ عملية نشر الفوضى فى السودان تمهيدًا للاستيلاء عليه بعد فصله عن مصر (١٠)".

ويوجد هنا فارق دقيق ينبغى تحديده وتوضيحه: إن جوردون لم يتم اختياره خصيصًا لإتمام عملية نشر الفوضى فى السودان؛ لأن الحكومة الإنجليزية فرضت عليه تنفيذ سياسة مُحدَّدة لإلغاء النخاسة هناك. والحكومة الإنجليزية هى المسئول الأساسى عن إدارة جوردون السيئة، وعن التمرد الذى اندلع بسببها نظرًا لأن السياسة الإنجليزية هى التى تَسَبَّبت فى تبديد موارد مصر (فى الأرواح والأموال) ونشرت الفوضى والاضطرابات فى ربوع السودان.

ولو كانت السياسة البريطانية قد تَرَكَّت جوردون يتصرف من تلقاء ذاته، لما كان قد اتبع هذه السياسة فضلًا عن تبنّيها بحماس جارف يشبه حماس مَنْ اعتنق دينًا جديدًا. لكن فيما يتعلّق بالقرارات الإدارية البحتة، فإننا نرى أن إنجلترا قد أحسنت الاختيار، وأن الظروف قد خدمتها: فجوردون بطبيعته كان مهيبًا لأن يكون أداة طيعة لتنفيذ خطة نشر الفوضى فى السودان. إذن، ففيما يتعلّق بموضوع الإدارة البحتة، فإن جوردون كان هو المسئول الوحيد - إن لم يكن المسئول الأساسى - عما حَدَثَ.

وفى الواقع، فإن جوردون كان يفتقر إلى كل الصفات المطلوب توافرها فيمن يُدير ويحكم فى بلد واسع الأطراف مثل السودان، بل إنه كان لا يصلح حتى لإدارة شركة خاصة صغيرة: فقد كان طبعه لا يُحتمل، وكان يسىء معاملة

مرؤوسيه ويزعجهم، وكان واطسون وشيبندال دائمي الشكوى منه؛ وقال عنه ستانلى لين- بول (Stanley Lane - Pool) ما يلى: "كانت لديه صفات عظيمة، لكن لا يوجد أحد يعتقد- للحظة واحدة- بأنه كان هادئاً ومتوازناً فى قراراته. لقد كان رئيساً متقلب الطباع ومن الصعب إطاعة أوامره"^(١١).

واعترف جوردون نفسه بأنه ذو طبيعة مُركّبة بشكل فريد، وفى رسالة إلى أخته، ذكر لها: "من الصعب الحديث عن طبيعة مزدوجة!! فما بالك وأنا عندى مئات من الطباع؟ ولا توجد منها واحدة تفكر مثل الأخرى، وكل طبيعة منها تريد السيطرة على الأخريات"^(١٢).

وكانت طبيعة جوردون القلقة والمتغيرة تَمَقَّت المشاغل الإدارية: فكان يُحيلها غالباً إلى أناس استطاعوا أن يكسبوا ثقته. وبدلاً من الإقامة فى الخرطوم، فإنه كان يسافر باستمرار، ويجوب جميع أرجاء السودان وملحقاته ممتطياً سنام جَمَله. ومثلما كان سعيد باشا- والى مصر- فإن جوردون كان مصاباً "بهُوس التنقل": فكان يمتطى دوماً ظهر مطيته لكى يكسر الملل الذى يشعر به ويتخلص من المشاكل التى تُضايقه.

وفور وصول جوردون للخرطوم لكى يمارس منها مهام منصبه، بصفته الحاكم العام للسودان، كَتَب رسالة- بتاريخ ٤ مايو- جاء فيها ما يلى: "أمل أن أقطع ٥ آلاف ميل فى هذه السنة. إننى وحيد تماماً لكننى أحب الوحدة، وأصبحت قَدَرِيَا كما يقول الناس وأعتقد بأن الله سيخلصنى من هذه المشكلة. وفى الصحراء، فإن عَظْمَةَ الوحدة تجعلنا نشعر بمدى تفاهة جُهد الإنسان. وهذا الشعور يُخَفِّف من الملل الذى أشعر به، ويجعلنى أعتبر الموت بمثابة مُحَرَّر لى من الملل عندما تكون هذه هى إرادة الله. وأحياناً تكون حرارة الجو رهيبية. وأصبحت الآن معتاداً على امتطاء سنام الجَمَل، إنه مخلوق رائع ومريح للغاية بخطواته الصامتة والناعمة كما لو كان يسير على وسادة"^(١٣).

وخلال سنة ١٨٧٧ وحدها، قطع جوردون ٦١٨٠ كم ممتطياً أسنمة الجمال؛ ومن سنة ١٨٧٧ حتى سنة ١٨٨٠، قطع ١٣٧٠٠ كم راكباً الجمال والبغال!! وكانت الصحراء تساعد على التأملات الصوفية والدينية. ومثل أى متصوف، كان جوردون يلجأ إلى الله دوماً؛ لكن أخطر ما فى الأمر، هو أنه كان يتصرف مثل أى إنسان قذرى حقيقى: فكان يلقى على الله بكل مسؤولياته الإدارية عندما لا يستطيع أن يلقبها على عاتق المصريين.

"يجب علينا التنويه بأن جوردون كان لا يبالى بنتائج أى تصرف يمليه عليه ضميره؛ وكان يتحمل كل المخاطر - أيا كانت - بصدر رحب معتمداً على أنه يلقى بمسؤولياته الشخصية على "العناية الإلهية" التى اعتبرها بمثابة الحاكم العام الفعلى للسودان، فذكر لأخته: "لا أستطيع أن أصف لك الراحة التى أشعر بها منذ أن اعترفت بها [العناية الإلهية] كحاكم عام"^(١٤).

"واتصف جوردون بالفظافة: فقد كان يهرب من الناس والاختلاط بهم، ويبحث عن الوحدة. وكُرُس كل وقت فراغه للاهتمامات الدينية: فقد كان لا يقرأ تقريباً سوى "الكتاب المقدس"، لكنه كان يقرأه - ويعيد قراءته - بفضول لا يرتوى ولا يكل؛ وأمن تماماً بأنه يجب البحث عن أية حقيقة فى الكتاب المقدس لا غير.

"وكان إيمانه مزيجاً من التصوف والقدرية، ولم يهتم مطلقاً بالعقيدة فى حد ذاتها: فعلى الرغم من إيمانه بالكتاب المقدس، إلا أن إيمانه كان يبتعد - أحياناً - عن المفاهيم المسيحية؛ ولذلك، سنجده يؤمن بتناسخ الأرواح. ويمكننا تلخيص عقيدته فى المبادئ التالية: الاستسلام التام لإرادة الله فى كل شىء، واعتبار أن العالم باطل وزائل، ورفض كل لذة دنيوية: فكان بداخله ناسك ومتصوف"^(١٥).

وقال عنه المستر بلنت (Blunt) ما يلى: "كانت شخصية جوردون بها - على الأقل - سمتين متعارضتين تماماً:

- السمة الأولى: شخصية الرجل النشيط الذى يحتاج بشدة للحركة الجادة والعملية.

- السمة الثانية: شخصية المتصوف الدينى الذى لا يهتم بتأتا بهذا العالم الأرضى بل إن جل اهتمامه ينصب على القوى الروحية الموجودة فى العالم غير المرئى؛ ولذلك فإنه كان دائم القلق، وكان نبيا للشك المستمر فيما يتعلق بإرادة الله تجاهه [أى تجاه جوردون]. لقد كان جوردون قذرياً ولا يؤمن بحرية الاختيار. ولذلك كان يُغيّر خطه فجأة، كما لو كان يبحث عن النبوءة والوحي^(١٦).

وكان جون آدى (John Adye) ضابطاً سابقاً فى سلاح المدفعية وعُرف جوردون عن قرب، فقال عنه: "كان رجلاً بدائياً؛ ولم يكن مجرد شخص غريب الأطوار بل كان - أيضاً- رجلاً فريذاً من نوعه... وكانت لديه "ردّة وراثية"^(١٧) تجعله نسخة من بعض شخصيات "العهد القديم". وبالتأكيد، فقد كان هذا شيئاً جميلاً لكنه كان غير مناسب بالمرّة للحياة الحديثة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد لوحظ عليه أن شخصيته كانت بها "لمحة شرقية" مع نوع من التعصّب. وفى جميع الأحوال، كانت شخصيته تنصف بغياب العقل السليم.

وكان جوردون يحب ممارسة السحر الأسود والبحث عما كان يعتقد بأنه الوحي الإلهي: فقد كان يضع إصبعه - بالصدفة - على آية ما من آيات الكتاب المقدس ثم يفسرها تفسيراً خاصاً به وحده^(١٧).

وبتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٧، كتب جوردون بنفسه من "أومشانجا"- فى "دارفور"- ما يلي: "بمقدورى أن أقول بأنكم ستندهبون إذا عرفتم كيف أستطيع الخروج من المشكلة بدون وجود مترجم معى وبدون معرفة اللغة العربية. إننى لا أؤمن بحرية الإنسان فى الاختيار؛ ولذلك، فأنا أؤمن بأن كل شيء يأتى من عند

[4] "الردة الوراثية" (atavisme): هى العودة إلى طباع وتصرفات وأفكار الأسلاف التى ابتعدت عنها الأجيال التالية [المترجم].

الله، وأن كل شيء مَقْدَرٌ سَلَفًا، وأن قراراتي وأحكامي مَقْدَرٌ لها أن تكون على الصورة التي قَرَرْتُها بالضبط، أيًا كانت الظروف^(١٨)."

لكن لا يجب الثقة بتأكيدات جوردون: فَقَدَرِيَّتُهُ الشَّرْقِيَّةُ تخفى خلفها- غالبًا- عجزه الواضح عن اتخاذ قرارات عاقلة ومناسبة. وربما كانت نتائج رعونته- وأخطائه الإدارية- ستكون أقل خطورة لو كان قد عرف- على الأقل- كيف يختار معاونيه وموظفيه المباشرين. لكن ذلك لم يحدث لأنه لم يكن خبيرًا بالرجال، وكانت أحكامه عليهم تتأثر- غالبًا- بتقلبات مزاجه في لحظة معينة.

وكتب دى مالورتي عنه قائلًا: "يقول الفرنسيون عنه إنه انطباعي (كذا!!!) وسياسي انتهازي لأنه يَخْضَعُ دائمًا لإيحاءات مختلفة. وَذَكَرَ لى واحد من أشد المعجبين به، وهو باشا مصرى عجوز: "إن جوردون العظيم لهُو رجل أمين ومجنون تمامًا: فمع كل نواياه الطيبة، إلا أنه لم يَجُرْ علينا سوى المصائب". وهذا الرأى قد يبدو ظالم ومبالغ فيه، لكننا لا نستطيع إنكار أن جوردون قد أخطأ في حق نفسه وفي حق الآخرين بسبب طبيعته المندفعة...

"وغالبًا ما كان يضع ثقته فى أى شخص، وسمعتُ من الخديوى السابق - إسماعيل باشا - الطُرفة التالية؛ فقد قال لى سموه: "التعامل مستحيل مع جوردون. وعلى سبيل المثال، فقد تلقيتُ - ذات يوم - برقية من الخرطوم مليئة بالمديح فى شخص أحد البكوات السابقين^(١٩). وقال لى جوردون عنه إنه أفضل الموظفين وأكثرهم إخلاصًا فى عمله وأكثرهم بذلاً للجهد من بين كل الذين قابلهم فى مصر. وبعدما أطراه ورفعته إلى عنان السماء، طلب منى الإنعام عليه برتبة "الباشوية" وبالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى.

"ولبيتُ رغبة جوردون رغم أن رأيتُ فى هذا الشخص لم يكن جيدًا. وَكَرَّرَ جوردون أن هذا الشخص هو الوحيد الجدير بأن يخلفه فى منصبه إلخ إلخ... فاضطررتُ لقبول اقتراحه وأبلغته بذلك برقية. لكن قبل وصول برقيتى إلى

الخرطوم، تلقيتُ منه بريقة أخرى يرجونى فيها بالأفعل أى شىء لأن هذا الرجل فاسق ومُنحط، وبرّر لى مدحه السابق له بأنه كان قد خُدع فيه، وقال لى إنه قد ألقي القبض عليه وسجنه!! إن هذه القفزة الهائلة - من أعلى إلى أسفل - قد تَمَّت خلال ٤٨ ساعة فقط!!

"وأضاف الخديوى قائلاً: "ونظرًا لأننى أعرفُ تصرفات جوردون الغربية والشاذة، فإننى لم أفأجأ. وكل هذه التصرفات تظهر مدى غرابة صديقنا وقابليته للتأثر: فاندفاعه وحماسه تجاه شىء أو شخص ما لا يجعله يتريث أبدًا للتأكد من الانطباع الأولى؛ مع أنه - بعد ذلك- يشعر بالندم المرير بسبب تسرّعه وثقته المفرطة بنفسه وللخطأ فى أحكامه: إنه رجل غريب الأطوار^(٢٠)".

إن هذا التقييم لشخصية جوردون- الصادر عن الخديوى والبارون دى مالورتي- قد أكّده وأبرزه مؤلف واسع الاطلاع هو "فيتا حسان". وفيتا حسان "يهودى تونسي" - حسب رأى جيفسون (Jephson)^(٢١)- أو "مالطى"، حسب رأى شابليه- لونج^(٢٢). وأيًا كان الأمر، فقد كان فيتا حسان ابن أحد مترجمى القنصلية الإيطالية فى مدينة تونس، وأقام زمنًا طويلًا فى مصر منذ عهد عباس باشا، وعمل عطارًا. وفى سنة ١٨٨٠، عُيِّن فى حكومة الخرطوم ثم نُقل منها إلى "المديرية الاستوائية". وألّف كتابًا بالألمانية عنوانه: "Die Wahrheit uber Amin Pasha".

وفى هذا الكتاب، يرصد فيتا حسان عدم منطقية تصرفات جوردون واضطرابها فيذكر: "إن عدم منطقية سلوك جوردون فى السودان تظهر فى حالات كثيرة لا تُعد ولا تُحصى سنذكر بعضها هنا:

- "كان إبراهيم فوزى (فوزى باشا فيما بعد) مجرد صف ضابط يعمل فى إدارة حسابات مصنع الذخيرة فى الخرطوم، لكن مزاج جوردون المتقلب شاء له أن يرقّيه خلال بضعة أشهر فقط: فحصل على رتبة مقدم ومنصب "حاكم المديرية الاستوائية".

- "تُهايمى جلال الدين كان سكرتير جوردون الخاص (وهو "دنجلاوى") وكان مجرد كاتب بسيط فى الخرطوم، لكن جوردون رَفَّاه ترفّيات سريعة: فأصبح باشا وسكرتير خاص له. ونعم تُهايمى بهذا المنصب لعدة أشهر فقط حتى غضب عليه جوردون فجأة: فعزله وعاد مجرد "أفندى" كما كان سابقاً.
- "وبعده، أصبح "بساطى مدنى" هو سكرتير جوردون الخاص: فارتفع راتبه الشهري فجأة من ٢٥٠ قرشاً إلى ٣ آلاف قرش، وحصل على رتبة "مقدم" ولقب "بك" مع منصب "مدير مالية السودان".

"لقد كان مزاج جوردون المتقلب هو الذى يتحكم فى كل تصرفاته: فإذا كان مزاجه رائقاً، فسيرفع أول شخص يقابله إلى عنان السماء؛ أما إذا كان مزاجه متعكراً، فسيُسقط جوردون عنه حقوقه المدنية...

"وكان الكاتب "باسيلى" يعمل فى "المديرية الاستوائية" وحكى لى أن جوردون- عندما كان يشغل منصب حاكم هذه المديرية - أرسل إلى أحد موظفى مدينة "لادو" فى يوم واحد، وبدون أى سبب مقبول ١١ قراراً بترقيته وعزله، وكانت كل هذه الأوامر تحمل التاريخ نفسه لدرجة أن "سكرتارية المحاسبات" (التي كانت موجودة حينذاك فى الخرطوم) لم تعرف أى قرار يجب عليها تنفيذه، فألغتها كلها. ولن يكفينا كتابة مجلد كامل عن كل التصرفات الغريبة التى تنسب إلى جوردون سواء بالحق أم بالباطل".

لقد عيّن جوردون اثنين على التوالى فى وظيفة السكرتير الخاص له، وكان أولهما هو "تُهايمى بك" الذى كتب عنه جوردون - بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٧٧- "عندى سكرتير من الدرجة الأولى". لكن جوردون اقتنع بأن سكرتيره تلقى أكثر من ٧٥ ألف جنيه بصفة رشاو: فأرسله إلى الخرطوم ليحاكم هناك فى شهر أغسطس وعيّن "بساطى بك" مكانه.

وشرح إبراهيم فوزى - فى كتابه "السودان فى عهدى جوردون وكيثشنر" (باللغة العربية) ما ارتكبه تهاى بك: "نظراً لجهد جوردون باللغة العربية، فقد كان يترك نفسه منقاداً لسكرتيره الخاص - "تهاى بك" - الذى كان ظالماً للغاية وبدرجة لا تحتمل، بل إنه كان أكثر ظلماً من إسماعيل باشا أيوب نفسه. وكان دائماً ما يخفى الحقيقة عن جوردون باشا ويُجمل له ارتكاب المظالم".

وغالباً ما كان جوردون يضم إلى حاشيته أسوأ المغامرين الذين كانوا يستطيعون ارتكاب كافة أنواع الشرور وتلقى الرشاوى بدون أن ينالوا أى عقاب.

وبعد عزل تهاى بك عن منصبه، وضع جوردون ثقته فى بساطى بك؛ وفى مذكره كتبها جوردون بنفسه، ذكر أن بساطى قد تعلّم فى مدرسة الخرطوم على يد كاتب مشهور، وتلقى تعليمًا يعادل - بالتأكيد - أفضل تعليم فى أوروبا بصفة عامة. وهو يعرف نظام حكم البلاد وضرائها وتاريخها بشكل مدّهِش.

وذكر أيضاً أن بساطى كان صديقه الحميم لمدة ثلاث سنوات، وأنه (أى جوردون) يدين له بالكثير فى كل شيء لأنه (بساطى) كان يقدم له نصائحه بأمانة "لصالح الشعب". وفى نهاية المذكرة، علق جوردون بقوله: "إن بضعة رجال مثل بساطى بك يستطيعون تجديد قوى مصر، لكنهم نادرون للغاية"^(٢٣). وبساطى بك (أو "برزاتى") كان يبلغ من العمر ٢٩ سنة فقط لكنه فرّض شخصيته على الحاكم العام للسودان!!

ولم تكن حالة بساطى بك هى الحالة الوحيدة فى هذا المجال: ففى رسالة^(٢٤) وجهها جوردون - من "سواكن" - إلى باروت بك (سكرتير الخديوى) بتاريخ ١١ يناير سنة ١٨٧٨ كتب يرجو صاحب السمو الخديوى تعيين عثمان باشا فى منصبى وكيل السودان وقائد الجيش لأنه "يجب تعيين عربى فى هذين المنصبين لتجنب حدوث الكثير من المظالم"، وأكد - أيضاً - أن "عثمان باشا يُعتبر بمثابة كنز حقيقى لسمود".

لكن جوردون - فى شهر يونيو من العام نفسه- أرسل من بربرة برقية بها قرار بعزل عثمان باشا متهمًا بإياد بأنه انتَهز فرصة غياب جوردون فجمع ثروة ضخمة بطرق غير مشروعة. وفى البرقية نفسها، ذكر جوردون أن المسيو جيسى لم يكن أمينًا بالمرّة طوال الفترة التى شغل فيها منصب وكيله (أى وكيل جوردون) فى الخرطوم، لكن جوردون غيّر رأيه فيه بعد فترة قصيرة.

ومن المؤكّد أنه كان هناك موظفون مصريون وأوروبيون ممتازون، لكن- لسوء حظ السودان- لم يكن جوردون يعرف كيف يختارهم ولا كيف يحتفظ بهم؛ فقد كان يغير منهم غالبًا أو يُصدّق الوشائيات والأكاذيب التى كانت تُطلقها حاشيته وأصدقائه المحليين ضدهم.

وعندما كتّب جوردون - يوم ١١ أبريل سنة ١٨٧٩- أن " حكومة المصريين فى تلك الأصقاع البعيدة ليست سوى أسوأ نوع من أنواع اللصوصية"^(٢٠)، فإنه لم يكن يشكّ فى أنه يؤكّد الحكم الذى أصدره التاريخ على إدارته هو للسودان. وفى الواقع، فإن الفساد والظلم والمحسوبية وعجز الميزانية قد سادوا فى السودان - فى عهد جوردون - بشكل لم يسبق له مثيل. وفى الوقت نفسه، فإن الإدارة المصرية الخالصة - فى هرّ وساحل بلاد الصومال - كانت هى الوحيدة التى نجت من هذا الفساد.

وفى هذا الصدد، يجب علينا أن نفصل ما بين حكومة جوردون وحكومة المصريين: فهناك مؤرخون وديپلوماسيون إنجليز يبذلون قصارى جهدهم لكى يخلطوا الأوراق بهدف إلقاء مسئولية الإدارة السيئة فى السودان على عاتق المصريين. لقد كان الدين وإلغاء النخاسة هما العاملان المباشرين لاندلاع التمرد فى السودان؛ بينما كانت الإدارة السيئة هى أحد الأسباب الرئيسية - غير المباشرة - لهذا التمرد.

وكانت إدارة جوردون للسودان هى أقلّ الإدارات مصرية بل إنها كانت - عمليًا- إدارة معادية لمصر: لقد استفاد جوردون من الدعم المعنوى (الذى قدمته له

الحكومة الإنجليزية) ومن السلطة التقديرية (التي منحها الخديوى له) لكى يضع قاعدة سلوكية طبقها باستمرار، ألا وهى:

١- تجاهل سلطة الخديوى.

٢- ورقتُ الموظفين المصريين، واستبدلهم بموظفين أوروبيين وموظفين سودانيين على وجه التحديد.

وينسب البعض إلى جوردون أنه قد فكّر فى فصل السودان تمامًا عن مصر لصالح إنجلترا. ومن المؤكد أنه كان يعتقد بأن سياسته ستجعله يحظى بشعبية هائلة فى السودان؛ فبتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٧٧، كتب ما يلى: "أريد أن أكون ملاذًا للشعب؛ فأخفف من أعبائه وأجعل مصيره أفضل فى هذه الأرض المعادية". وكان من عاداته التصريح بالعبارة التالية: "ستُ نابليون ولا كولبير^[٥]"، ولم أكن إداريًا ولا مصرفيًا عظيمًا، لكننى أستطيع القول بأننى قد طردتُ النخاسين من قلاعهم وجعلتُ الشعب يحبني".

لكن جوردون كان يعتبر أمانيه حقائق: فعلى العكس مما كان يتصوره، فإن اسمه وإدارته كانا مكروهين فى كل منطقة أعالي النيل.

وقال عنه فيثا حسان: "بعدما تولى جوردون مهام منصبه بفترة قصيرة، أصدر أول قرار إداري، وكان يقضى برفقُ الموظفين العاملين؛ وأحاط نفسه بأشخاص عديمي الخبرة تمامًا وكانوا كلهم من السكان المحليين، فرقّاهم إلى مناصب لا يستحقونها بتاتا. وفيما بعد، فى بداية "الحركة المهدية"، كان هؤلاء الموظفون هم أوّل من أفشوا أسرار الحكومة وخانوا مصالحها.

[5] كولبير (Colbert) : سياسى فرنسى (١٦١٩ - ١٦٨٣) نفذ إصلاحات ضرائبية ومالية وإدارية وشجع الصناعة والتصدير [المترجم].

”وأُرسيت قواعد إدارة البلاد على أساس جديد تماماً، وفُصلت إدارة المالية بالكامل عن الحكومة المصرية: فأنشأ جوردون وزارة خاصة للمالية في السودان أعطت انطباعاً بأن كل العلاقات بين مصر والسودان قد قُطعت نهائياً. وكانت هذه العلاقات قد أُسندت إلى جوردون وتولى مسئوليتها وحده.

”ومما عزّز هذا الانطباع ورسخه في الأذهان هو إقالة أغلب قدامى الموظفين في وقت واحد. وتزامن ذلك مع تسريح القوات التركية - أو المصرية - وإحلال جنود من السكان المحليين مكانهما: وهكذا أصبحت الإدارة في يد السودانيّين بالكامل، وتولّوا أغلب الوظائف المدنية والعسكرية، ووزّع جوردون الألقاب والرتب المختلفة بلا حساب على التجار والجزارين والصيادين إلخ...“

”وكان جوردون يعطف على سكان السودان ويرأف بحالهم، لدرجة أن السكان المحليين تجرأوا على أسيادهم، وتصوروا أنهم أمة راقية تتساوى مع سادتهم، فبدأوا - رويداً رويداً - يتحدّون الحكومة بوقاحة^[6].

”ومن المؤكد أن جوردون كان حسن النوايا، لكنه كان يجهل لغة البلاد: فعزلته حاشيته عن الأهالي المحليين، واركتبت - تحت حمايته - كافة أنواع المظالم، وجعلت السودان يشعر باليأس التام بالإضافة إلى المعاناة والسُخط اللذين كان يشعر بهما من قبل.

”واتسمت قرارات جوردون بالتناقض التام فيما بينها، وتدخلت شخصيات غير مؤهلة [في شئون الحكم والإدارة]، فنتج عن ذلك كله فوضى عارمة عمت أرجاء السودان. إن الشكوى التي وجّهها تجار السودان وأعيانه للخديوى إسماعيل - في سنة ١٨٧٨ - لهى أفضل دليل على حالة التفسّخ والفوضى التي سادت في حكومة السودان - في عهد جوردون - بين سنتي ١٨٧٧ و ١٨٧٩ إلخ...“

[6] نرفض استخدام هذه التعبيرات العنصرية التي استخدمها الكتاب الأوروبيون والتي ذكرها المؤلف بدون إدانتها [المترجم].

وعندما يتذكر المرء أن مشكلة الضرائب كانت موضوعا للعديد من الشكاوى قبل حكم جوردون، فبالإمكان تخيل مدى الارتباك والابتزاز اللذين ارتكبا في حق الخزنة وفي حق الصالح العام في عهد جوردون. لقد تسبب نظام الضرائب الظالم، والفوضى، والقمع، واللصوصية، ومحاربة النخاسة في حدوث حالة من السخط العام.

ولدينا شاهدان محايدان يؤكدان صحة هذا الرأي، أولهما هو إبراهيم فوزى الذى قال عن أحداث السودان: "كانت السياسة التى اتبعها جوردون لمحاربة النخاسة هى التى زادت من خطورة الموقف... وكانت الإجراءات الصارمة غير شعبية خصوصا وأن الأوروبيين كانوا هم الذين يطبقونها، فعزاها البعض إلى كراهية المسيحيين الطبيعية للمسلمين..."

"وكان أغلب الموظفين من الأهالى المحليين لكنهم كانوا هم السبب فى كل المعاناة والمظالم التى حاقت بأهالى السودان: فقد كان الموظفون معنّادين على شراء وظائفهم، ثم يقومون بـ "عصر" الشعب لكى يُعَوِّضوا ما دفعوه ويستردونه مضروبا فى مائة ضعف. وبالطبع، فقد كان رؤساء الإدارات لا يلتفتون إلى أية شكوى تأتيهم فى حق هؤلاء الوحوش الذين قبضوا منهم رشوا هائلة.

"وكان المروسون يرتكبون مخازيهم وهم مطمئنون تماما لدرجة أن الممول الذى كان يرفض الدفع كان يضرب ٥٠٠ عصا كعقاب... وبالإضافة إلى كل ما سبق، فقد كان هؤلاء الطغاة شغوفين بتدنيس شرف الرعايا: فكانوا يستولون على أية امرأة جميلة لا يستطيع زوجها تسديد ما عليه من ضرائب. ولكل هذه الأسباب، تراكمت الكراهية فى قلوب السودانيين ولم يعد يشغل تفكيرهم سوى التمرد^(٢٦)."

أما الشاهد الثانى، فهو النمساوى سلاتين بك (Slatin) الذى غيّن - سنة ١٨٧٩- فى منصب "مفتش المالية" ثم فى منصب "حاكم دارفور"، ولعب دورا ملحوظا فى الأحداث التى جرت لاحقا. وألف "سلاتين بك" كتابا بعنوان "الحديد والنار فى السودان" ختمه بالعبرة التالية: "وبالتأكيد، فقد انتشر قدر من السخط فى

البلاد. وفي الفصول السابقة، أوضحتُ كيف أن جشع الموظفين العموميين مع سوء إداراتهم قد دَفَعَا السكان إلى التمرد.

وخصّص سلاتين بك الفصل الرابع من كتابه المذكور لموضوع "تمرد المهدي"، وشرح فيه أسباب انتشار السُخْط قائلًا: "إن الأسباب الرئيسية لهذا السُخْط ترجع إلى:

١- ارتفاع مقدار الضرائب.

٢- توزيع الضرائب بشكل جائر على السكان.

٣- التّعسف الرهيب في طريقة جباية هذه الضرائب بواسطة الموظفين والجنود؛ فقد كانوا ينهبون كل ما يستطيعون نهبه عندما تسنح لهم الفرصة لذلك.

"وفي الفترة الأخيرة على وجه التحديد، تَوَصَّل السودانيون إلى شغل الوظائف العليا: فعَيَّنوا أقاربهم في الوظائف الأدنى، وسَعَى الجميع إلى تكوين أكبر ثروة في أسرع وقت ممكن. ولذلك، أثار جوردون سُخْطًا عارمًا عندما عَيَّن التاجر الثرى "إلياس باشا" في منصب مدير (حاكم) "كردفان". ثم خَلَفَهُ "عبد الرحمن بك ناجي" في هذا المنصب، وكان - هو أيضًا - من تجار "كردفان"... لقد دفعتهما العقلية التجارية - للصيقة بمهنتهم بصفتهن تجارًا - إلى استغلال البلاد لصالحهم الشخصي ولصالح أقاربهم... ولكن، كان لابد من وضع الرأي العام في الاعتبار: فأُقِيلَ إلياس باشا وعبد الرحمن بك، وتَوَلَّى مكانهما مديرون أتراك أو مصريون.

"وحتى نحن الأوروبيون، كنا في أغلب الأحيان من أسباب السُخْط مع أن عددا كان صغيرًا، وكُنَّا - عموماً - غير مكروهين بشدة بسبب إحساننا الفطري بالعدالة. ومع أننا كنا مدفوعين بأطبيب النوايا، إلا أننا أصدرنا قوانين وقرارات جرحت - عدة مرات - أعراف وعادات وتقاليد السودانيين، فكان ذلك سببًا حقيقيًا للتمرد.

"لكن قوانيننا التي تمس نظام العبودية - تحديدًا - كانت هي التي جرحت مشاعر الأهالي المحليين أكثر من غيرها. وأيضًا، فإن الحكومة كانت قد أصدرت قرارًا بإعلان "الحرية العامة"، فاستقبله الأهالي أسوأ استقبال.

"ويسمح الدين بـ تجارة العبيد التى كانت تُزود الأهالى - باستمرار - بعناصر قوية ومُتجددة دائماً تقوم بأداء أعظم خدمة للزراعة وتربية قطعان الماشية. ولم يكن مشنرو العبيد يأبهون بتأناً بالقسوة التى تم بها صيد العبيد أو الحصول عليهم، ولا بالطريقة القاسية التى اقتيدوا بها حتى وصلوا إلى ضفاف نهر النيل حيث تم بيعهم. لكن يجب علينا الاعتراف بأن السيد كان يعامل عبده معاملة جيدة فور شرائه..."

"لقد كان محمد أحمد [المهدي] يعرف كل هذه المظالم والشكاوي، فاستفاد من حالة السخط العام المنتشر".

وهكذا، فإننا نجد أن إدارة جوردون (بالعاملين فى حكومته من أوروبيين وسكان محليين)، هى المسئولة عن دفع الطبقات المتوسطة فى السودان لليأس: فبدأ الشعب المحروم من العطف - يفقد احترامه للنظام القائم.

إن المشكلة الإدارية قد ازدادت تعقيداً عندما أضيفت إليها مشكلة محاربة النخاسة. كما عمّت البلبلّة والاضطرابات، وانتشر السخط فى صفوف كبار الملاك المنتمين للقبائل العربية الثرية والقوية: فقد كان كبار الملاك يتركون لعبيدهم مهمة العناية بزراعة أراضيهم وتربية قطعانهم.

وبتاريخ ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣، كتب صمويل بيكر عن أصول التمرد فى السودان فذكر: "إن محاربة النخاسين ليست هى السبب الوحيد فى اندلاع التمرد الحالي: فهو نتيجة لتفاعل عدة أسباب. لكننى لا أعتقد بأنه كان سيندلع لو لم يُقرّر إلغاء صيد العبيد^(٢٧)".

خامساً: الحرب الفاشلة ضد النخاسة والنخاسين:

وسندرس الآن السلوك الذى اتبعه جوردون لمواجهة النخاسة فى الإطار العام لسياسته الإدارية: لقد وصل جوردون إلى الخرطوم فى بداية شهر مايو سنة ١٨٧٧ ليتولى منصب "الحاكم العام للسودان". ومنذ اليوم الأول لوصوله، وضع مشكلة النخاسة على رأس جدول اهتماماته. وفى يوم ٤ مايو، كتب ما يلي: "لم يستفد الخديوى أية استفادة مباشرة من النخاسة. وبما أننى الآن أحل محله هنا، وبما أننى مزود بأوسع السلطات، فبإمكانى أن أقم مدى عجزه عن إيقاف النخاسة من القاهرة.

"لقد طلبتُ من المستر فيفيان - القنصل الإنجليزى فى القاهرة - تنفيذ الخطة التالية:

١- التصديق على القانون الذى يُجبر العبيد الأبقين على العودة إلى مالكيهم، إلا فى حالة سوء معاملته لهم.

٢- إلزام الملاك بتسجيل عبيدهم قبل الأول من يناير سنة ١٨٧٨.

٣- المادة الأولى لن تطبق على العبيد غير المسجلين.

٤- يوقف تسجيل العبيد بعد الأول من يناير سنة ١٨٧٨".

وأضاف جوردون قائلاً: "وهكذا أكون قد منعتُ تملك أى عبد جديد بعد هذا التاريخ. أما من سيتم تسجيلهم، فسيظلون ملكية شرعية حتى يحصل ملاكهم على تعويض أو حتى يمر ربح من الزمن. ولن يتوقف صيد العبيد أبداً؛ لكن عندما يجد الأهالى أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بالعبيد (الذين اشتروهم بعد الأول من يناير سنة ١٧٨٧) فإنهم لن يشتروهم. وأعتقد أن هذا التكتيك سينجح".

وعيب هذه الخطة يكمن فى أنها خطة خيالية أو - على الأقل - أنها سطحية وغير عملية. وفى بلد تسيل السيطرة عليه مثل مصر فإن تسجيل العبيد

يمكن أن يؤدي - بعد فترة قصيرة - إلى إلغاء فئة العبيد الذين يقومون بالأعمال المنزلية (وهو الشكل الأكثر رحمة في نظام العبودية).

وبتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٨٧٧، طرح جوردون الأسئلة التالية: لكن في السودان، في دارفور مثلاً، كيف يتمكن إقناع القبائل البدوية الكبيرة بتسجيل عبيدها؟ وكيف يمكن تحرير كل هؤلاء العبيد بعد انقضاء هذه المملة؟ ومن الذي سيحررهم؟ هل هي بريطانيا العظمى؟

وفي المقابل، فإن هذه الخطة تتصف بميزة نادرة: فهي لم تعتمد على العنف، وحاولت - إلى حد ما- أن تراعى القوة القانونية للعرف السائد (الذي يسمح الدين به) والذي تغلغل في سلوكيات الأهالي المحليين. وفي هذه النقطة، يبدو أن جوردون قد تذكر الطريقة التي حلت إنجلترا بها مسألة النخاسة مع المزارعين في "الهند الغربية": فمع أن المسألة هناك لم تكن تمس إنجلترا بشكل مباشر، إلا أنها لم تجرد المزارعين من عبيدهم إلا بدفع تعويضات.

أما في مصر والسودان، فقد كان العبيد يعملون في المنازل. ولذلك، اهتم الجميع بمسألة إلغاء النخاسة: فتحرير العبيد بدون تعويض ملاكهم كان يهدد الملاك بالخراب المحتوم، وقد يؤدي حتى إلى قيام "حرب العبيد" أو إلى هبة شعبية.

وفي الحقيقة، فإن مهمة جوردون كانت عظيمة وشاقة: فقد كان عليه مواجهة الاضطرابات الحقيقية - والمحتملة - في مديريات مصر الجنوبية، أي في "كردفان" و"دارفور" و"بحر الغزال".

وفي سنة ١٨٧٤، عندما غزا المصريون دارفور، لم تتضمن القبائل هناك إلى صفوف "الفور" ولا للسلطين السابقين في حربهم ضد المصريين؛ ولم تكن هذه القبائل معتادة أبداً على دفع الضرائب، لكنها - بعد ذلك - أجبرت على دفعها واعتبرتها ضرائب ثقيلة: فتحالفت مع المدعو "هارون"، وهو من نسل الأسرة الحاكمة السابقة.

وكان الزنوج هم السكان الأصليون فى مديرية 'بحر الغزال'. ومنذ فترة قريبة، بدأ العرب "الدناجلة" (أو "الدُنْجَلَاوِيَّة" أى القادمين من "دُنْجَلَة") والعرب "الجعليين" (وهم من المزارعين القاطنين بوادى النيل) يهاجرون إلى تلك المديرىات الجنوبية لممارسة هوايتهم المحببة إلى نفوسهم، أى ممارسة السلب والنهب، وانضوا تحت لواء كبار النخاسين ومؤسساتهم حيث فرضوا الإتاوات على تلك المناطق.

وكان الزبير باشا - زعيم "الجعليين" - قد نصَّب نفسه سيِّداً على هذه المنطقة حتى شهر يونيو سنة ١٨٧٥ لأنه - بعد ذلك التاريخ - رُحِّل إلى القاهرة وحجز هناك؛ فانسحب ابنه سليمان - على رأس عصابته المسلحة - إلى "ساكا" (فى جنوب دارفور). وشعرت الدوائر الحكومية بالقلق من احتمال انضمامه بقواته إلى قوات هارون الذى كان قد انسحب إلى منطقة الجبال بعد تلقّيه عدة هزائم قاصمة على يد حسن باشا حلمي، حاكم دارفور.

وفى مديرية "بحر الغزال" نفسها، كان يقطن "إدريس أبتر" وهو وكيل الزبير وأصله من "دُنْجَلَة"^(٢٨). وفى ذلك الوقت، كانت توجد عشيرتان عربيتان تتنازعا على السلطة فى تلك المديرية:

- العشيرة الأولى: "عرب الجعليين" وهى عشيرة الزبير باشا، وينتسب أفرادها إلى العباس (عم الرسول ﷺ).

- العشيرة الثانية: "الدنجلأوية" الذين ينحدرون - فيما يبدو - من نسل "دُنْجَل" ما (أى "عبد").

وكان "عرب الجعليين" - بالإضافة لأصلهم الشريف - هم الأكثر عدداً وأوفر قوة من "الدنجلأوية"؛ ولذلك كانوا يحتقرون العشيرة الثانية (أى أحفاد "العبد") احتقاراً شديداً: فسارع المتآمر الطموح إدريس أبتر - وكيل الزبير -

بالاتصال بجوردون فور استلامه مهام منصبه، وحذره من سليمان الزبير، ومن ميوله الاستقلالية، وشجع جوردون على توطيد سلطة الخديوى فى هذه المديرية.

وعندئذ، سارع جوردون بإرسال الضابط المصرى إبراهيم فوزى إلى مديرية بحر الغزال، وكلفه بتخليص المديرية من المؤسسات التابعة لكبار النخاسين؛ وكان قد سبق لإبراهيم فوزى وأن خذم تحت إمرة جوردون فى "المديرية الاستوائية". وفور وصول الحاكم الجديد، بادر كبار التجار (أمثال "عمورى و"غطاس") ووكلائهم بإعلان خضوعهم له، وسلموه ثلاثة أخماس كميات الصمغ وريش النعام والعاج الموجودة فى مخازنهم والتي كانت الحكومة تحتكر تجارتها.

وفى الوقت نفسه، فى نهاية شهر مايو سنة ١٨٧٨^[٧]، توجه جوردون إلى "كردفان" و"دارفور"؛ وخلال هذه الرحلة، أوحى له مسألة النخاسة ببعض الأفكار السديدة: فبتاريخ ٢١ يونيو سنة ١٨٧٧، كتب من "أومشانجا" - فى شمال "دارفور" - ما يلى: "إن الصعوبة الكبرى فى موضوع إلغاء النخاسة واضحة تمامًا بالنسبة لى، وكنت أود لو يحضر أحد أعضاء "جمعية مكافحة العبودية" إلى هنا، ويكون قادرًا على فهم المسألة لكى يُعطينى الحل.

"ولدىّ هنا سلطات مدنية وعسكرية مُطلقة، فلا يستطيع أحد معارضتى حتى ولو حكمتُ بالإعدام على رجل أو حتى على عشرة رجال. ولذلك، أُعْتَبِرُ أنا المسئول عن استمرار النخاسة.

"والموقف الحالى هنا يبدو كالتالى: تَسْكُنُ "دارفور" و"كردفان" قبائل محاربة كبيرة تكاد تكون مستقلة تحت حكم شيوخها. وأغلب أراضي المنطقتين عبارة عن صحراء شاسعة بها آبار نادرة تَبْعُدُ عن بعضها البعض مسافات بعيدة. وبعض هذه الآبار النادرة لا تعرفها سوى قبائل المنطقة فقط. وبإمكان هذه القبائل المحاربة

[7] كذا فى النص الفرنسى و نعتقد بأن التاريخ الصحيح - حسب السياق - يجب أن يكون سنة ١٨٧٧ [المترجم].

تجهيز حملات بها من ألفين إلى ستة آلاف فارس يمتطون صهوة الخيل أو سنام الجمال.

"وفي هذه البلاد، يكون التمرد شيئا خطيرا، لقد عرفت ذلك بتجربتي الشخصية، وهذه القبائل المحاربة تغزو الشعوب الزنجية التي تسكن الجنوب، أو تقايض الأقمشة بالعبيد مع القبائل البدوية المنتشرة حتى الحدود المفترضة لمصر: فيدخل العبيد إلى الأراضي المصرية في مجموعات صغيرة تتكون من أربعة أو خمسة عبيد، لكن لا يوجد ما يمنع من دخول مجموعات بها مائة عبد لأنه لا يوجد على حدودنا قوات للحراسة مثل "القوزاق"^(٨) في روسيا.

"وتبيع هذه القبائل العبيد لصغار التجار المنتشرين في البلاد؛ ويأتي هؤلاء التجار من جميع أنحاء مصر إلى هنا لشراء عبيدين أو ثلاثة، ثم يبيعونهم إلى تجار آخرين في المراكز المزدهمة بالسكان. وحتى لو كانت الحكومة الإنجليزية هي التي تحكم هذا البلد، فلا أعرف كيف كانت ستلغي هذه التجارة.

"والحل الوحيد كان سيتطلب منها مد حدودها حتى تصل إلى بلاد الشعوب الزنجية، وإقامة مجموعة من المحطات العسكرية هناك. ولست بحاجة إلى لفت نظركم إلى أن الحكومة الإنجليزية ليست على هذا القدر من الجنون لكي تعرض نفسها لمثل هذه الخسارة الفادحة، علما بأن هذه الحدود يجب أن تمتد حتى تشاد"^(٢٩).

ووجد جوردون الوضع في دارفور هادئا نسبيا لأن حسن باشا حلمي كان قد أجبر هارون على الانسحاب إلى "تورا" - في الجبال - حيث كان سلاطين دارفور

[8] "القوزاق" اسم يطلق على الشعوب البدوية التي تقطن منطقتي "آسيا الوسطى" و"موسكوفيا". وشكلت هذه المجموعات البشرية قسمين: "قوزاق نهر الدون" و"قوزاق نهر الدنيبر". استخدم القياصرة الروس فرسان القوزاق لإخماد الهبات الشعبية ضد نظام حكمهم. ألهمت حياة القوزاق وحروبهم العديد من الأدباء الروس مثل: جوجول (ترياس بيلدا)، تولستوي (القوزاق) وشارلوف (الدور بحر ي هاندا) [المترجم].

قديماً يُعلنون منها توليهم للعرش، كما كانت القبائل المتمردة قد عانت كثيراً من نيران أسلحة الجيش المصري. ولذلك، قرر جوردون أن يُخَفِّضَ - بشكل ملحوظ - عدد أفراد الحامية هناك: فسحب منها عدداً كبيراً من قوات المشاة والفرسان وأرسلهم إلى "الأبيض" (في كردفان) وإلى الخرطوم.

وكانت هذه القوات قد أُرْسِلَتْ إلى "دارفور" لإخماد التمرد الأخير. وعَلَّقَ سلاتين باشا على هذا القرار قائلاً: "من المؤكد أن جوردون قد اتخذ هذه الإجراءات الاقتصادية لصالح هذه المديرية التي احتلها المصريون مؤخراً". كما أكد سلاتين أن هذه الإجراءات "كانت لها - بعد ذلك - نتائج كارثية. لكن جوردون لم يكن بقادر على التنبؤ بالأحداث اللاحقة^(٣٠)".

إننا نرفض هذا الرأي؛ فقد كان من السهل تَوَقُّعُ:

١- أن هارون لن يتسامح أبداً في اغتصاب عرشه منه.

٢- وأن انسحابه كان انسحاباً مؤقتاً في مواجهة القوات المصرية التي تتفوق على قواته.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان حسن باشا حلمي - مدير دارفور - يُعارض تنفيذ قرار جوردون بالانسحاب. ومنذ شهر يوليو سنة ١٨٧٧، دأب جوردون على وصف حسن باشا حلمي بأنه "المجنون الذي دُمِّرَ المديرية؛ فعزله بسبب معارضته له وعيّن "ميسيداليا" (Messedaglia) مكانه في بداية سنة ١٨٧٩.

وبعث جوردون برسالة إلى الخديوى ذكر له فيها: "عند وصولي، وجدت برقيات أرسلها لي حسن باشا ليخبرني بأنه لا يستطيع سحب القوات من دارفور. وفي الوقت نفسه، عرفت أن المديرية هادئة، وأن هارون قد انسحب إلى الجبال. ونظراً لأنه لا توجد مشاغل كثيرة أنجزها في الشهرين المقبلين، فإنني أنوى - إذا أذن صاحب السمو لي - بالذهاب إلى هذه المديرية للقاء حسن باشا، ومعرفة سبب رفضه لسحب القوات من هناك^(٣١)".

لكن سياسة جوردون الخطرة لم تتصف بالشمولية ولا بالمهارة تجاه هارون ولا تجاه ابن الزبير (الذى كان ملكاً غير مُتَوَجِّهاً).

وكان سليمان الزبير قد استقر في "شاكاً" ومعه حوالي ٤ آلاف محارب. وفور وصول جوردون إلى دارفور، طلب منه سليمان العفو، بل إنه ذهب للقاء جوردون في دارفور في شهر أغسطس سنة ١٨٧٧. وعندئذ، أعاد جوردون تقسيم قوات سليمان ووضعها تحت قيادة نائبه سعيد بك حسين (الذى عينه مديراً على "شاكاً") ونور بك أنجارا (الذى عينه مديراً على "سيرجا" و"أريبا، في شرق دارفور).

وبعد ذلك، أمر جوردون سليمان بالعودة إلى "شاكاً". وعلى الرغم من هذه الإهانة، فقد نفذ سليمان الأمر بل وأرسل عدة رسائل لجوردون وصفه فيها بـ "الأب"، ورجاه أن يمنحه منصباً ما. لكن جوردون ركبه عناد طفولي وغير سياسى بالمرّة: فرفض الموافقة على الالتماس المشروع الذى قدمه الشاب سليمان، فازداد سخط سليمان لدرجة أن جوردون خشى أن يشن سليمان هجوماً عليه.

وبتاريخ ٧ سبتمبر، كتب جوردون - من "دارا" - عن هذا الموضوع، فذكر أنه لم ينم في تلك الليلة بسبب قلقه لأنه دفع بسليمان إلى حافة اليأس نتيجةً لأنه [أى جوردون] رفض التماسه الأخير، خصوصاً وأن سليمان ما يزال لديه أربعة آلاف محارب في "مديرية بحر الغزال".

وذكر جوردون: "لكن زعيم أكبر عدد من هؤلاء الرجال المسلحين - إدريس - يقف معي؛ ولذلك، فأنا لا أخشاهم. وإذا نظرتم إلى الخريطة التى رسمها شفاينفورت، فسترون المساحة الهائلة التى تسيطر عليها محطات النحاسين ومواقعهم بداخل تلك البلاد. وعندئذ ستدركون مدى صعوبة السيطرة عليها: فلا يمكننا تسريح عشرة آلاف مقاتل - معنادون على حمل السلاح - ثم نتركهم بلا عمل^(٣٢)".

وبتاريخ ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٧، كتب ما يلي: "فى جميع حالات عتق العبيد السابقة، كانت توجد خلفها: إمّا حكومة قوية تفرض قوانينها وإما أغلبية من الأمة تريد ذلك. لكن فى هذا البلد، لا يوجد أحد يرغب فى عتق العبيد ولا حتى فى المشاركة فيه ولو بتقديم النصيحة... فامتلاك العبيد - هنا - مبدأ أساسى من مبادئ الحياة للغنى وللفقير على حد سواء: فالجميع منغمسون فى هذه المسألة".

واتبع الحاكم العام للسودان سياسة:

١- حل العصابات المسلحة التابعة للنخاسين.

٢- ومطاردة النخاسين فى كل مكان.

٣- ومطاردة التجار بشكل عام.

فأدت هذه السياسة إلى حشد الجماهير ودفعها إلى صفوف الحركة المهدية.

وفى تلك الفترة - يوم ١٥ سبتمبر - غادر جوردون "دارا" متوجّها إلى "ساكا" التى كان يُطلق عليها "وكر النخاسين". ويجب علينا هنا الإشارة إلى الخطأ النفسى (السيكولوجى) الذى وقع فيه جوردون لأن هذا الخطأ - منذ ذلك التاريخ - سيكون هو سبب كل الاضطرابات التى دُمِرَت "مديرية بحر الغزال"، والتى كانت لها أصداء ونتائج مدوية فى كل مديريات الجنوب. وهذا الخطأ يكمن فى أن جوردون قد ربط الحرب على سليمان الزبير بالحرب على النخاسين وجعلهما حرباً واحدة.

وحتى ذلك التاريخ، لم يكن للنخاسة أدنى علاقة بتمرد سليمان الزبير (إن كان هناك تمرد فعلاً). وبالإضافة إلى كل ما سبق ذكره، يحق لنا أن نَسْأَلَ: كيف يستطيع الشاب سليمان أن يرفع لواء العصيان فى حين أن والده كان محجوزاً كرهينة فى القاهرة؟ لقد مارس جوردون وتائباء الفاسدان (إدريس وجيسى) سياسة قاسية ورعناء كانت - وحدها - هى السبب فى دفع سليمان الزبير وأنصاره لإعلان العصيان المسلح (١٨٧٨ - ١٨٧٩).

لقد كان الأب - رحمت الزبير - نخاساً، لكنه كان نخاساً سابقاً؛ وقبل أى شيء، كان من قبيلة "الجعليين" الكبيرة المنحدرة من صلب الخلفاء العباسيين؛ وهذا الأصل العريق كان يُضفى عليه مكانة رفيعة في السودان.

وعندما زار شفاينفورت تلك المنطقة، كان الزبير باشا قد كوّن ثروة هائلة عاش بفضلها كما يعيش الملوك. ورسم لنا الرَّحالة صورة للزبير باشا محاطاً بمجموعة من الأسود المقيدة في الأغلال. وذكر هذا الرحالة عنه أنه حوّل ما قيمته ٢٥ ألف دولار إلى رصاصات من الفضة خصصها لإبطال مفعول سحر أعدائه ضده؛ وأنشأ ما يشبه إقطاعية خاصة به في "مديرية بحر الغزال".

ولم يكن الزبير يطمح في الحصول على المزيد من الأموال التي تأتيه من النخاسة: فبالنسبة له، كانت النخاسة مجرد نشاط واحد من أنشطته التجارية المتعددة. لقد كان الزبير باشا يطمح في تولي منصب "حاكم دارفور" - مثلاً - أو أن يكون سلطاناً على جزء من أرضها. وكان ابنه سليمان - أيضاً - يلتبس شغل منصب ما، وكان من حقه أن يتوقع أن يعامله جوردون معاملة متميزة، خصوصاً في أثناء فترة غياب والده القسرية، وأيضاً لأن والده كان هو الذى غزادارفور لحساب مصر.

لقد فهم جوردون ذلك متأخراً: فعندما وصل إلى "شاكّا"، أقام فى منزل الزبير، وسارع بتعيين سليمان فى منصب "نائب مدير (حاكم) مديرية بحر الغزال". وكان هذا التصرف من التصرفات الصحيحة - النادرة - فى سياسة جوردون المضطربة.

وبتاريخ ١٧ سبتمبر، غادر جوردون "شاكّا" وهو مقتنع بأن إلغاء النخاسة هو مجرد وهم لأنه قبل سفره بيوم واحد - يوم ١٦ سبتمبر - كتب: "فليكن هذا الموضوع سرّاً بيني وبينك فقط: أعتقدُ بأننى سأرسل من "شاكّا" إلى "الأبيض" (فى كردفان) قافلة من العبيد؛ وأنا عاجز عن فعل أن شيء لإيقافها: ففى تلك القافلة، يوجد رجل يدعى أن النساء السبع - اللاتى يصحبنه - هنّ زوجاته الشرعيات!!

ولا أستطيع تكذيبه؛ كما يوجد بها أيضا عدد كبير من الأطفال!!... وإذا استطعت
فصل الحبر عن ورق النشاف الذي امتصه، فإن النخاسة ستنتهي في هذا البلد".

وفي الوقت الذي كان يُمارس فيه جوردون جولاته الطويلة ناحية البحر
الأحمر، عاد سليمان الزبير إلى "بحر الغزال" - منطقة نفوذ والده - وعرف مدى
المظالم والتصرفات الاستبدادية التي ارتكبتها إدريس في السنوات الأخيرة. وفي
الوقت نفسه، تجمعت لدى الضابط المصري إبراهيم فوزى (فوزى باشا، فيما بعد)
الأدلة على أن إدريس كان رجلاً سيئ النية، وشريراً، وخطراً، واشتهر بالتآمر:
فسجنة حماية للمديرية من دسائسه.

وبعد ذلك، اضطر إبراهيم فوزى للسفر للعلاج في الخرطوم، واصطحب
معه إدريس أبتري. وعند وصول الضابط للخرطوم، دفع مبلغاً كبيراً من النقود
لإدريس كتعويض عن كمية كبيرة من العاج كان قد صادرها منه ومن كل تجار
"مديرية بحر الغزال".

وبفضل هذا المبلغ الكبير، استطاع إدريس أن يجعل قنصل ألمانيا في
الخرطوم - فريدريتش روسيت (Rosset) - (٣٣) "يهتم" بقضيته: فأسرع روسيت
وبعث ببرقية إلى جوردون في "سواكن" ليخبره بأن إدريس برى وأنه سجن ظُلماً.

وكان جوردون يثق ثقة مطلقة في روسيت، فبادر - فور عودته إلى
الخرطوم (يناير سنة ١٨٧٨) - وحاول إقناع فوزى بإطلاق سراح إدريس
والسماح له بالعودة إلى بلاده. وفشل فوزى في إقناع جوردون بعدم العفو عن هذا
الرجل "شديد الخطورة": ففضل تقديم استقالته من منصب "مدير مديرية بحر
الغزال"، فقبلها جوردون فوراً.

ومع ذلك، فقد استفاد جوردون من هذه الاستقالة لإرضاء فوزى وإدريس
في وقت واحد: فعين فوزى في منصب "حاكم المديرية الاستوائية" - بدلاً من

الأمريكي "بروت" (Prout) الذي شغل هذا المنصب منذ شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ - كما عيّن إدريس في منصب "حاكم مديرية بحر الغزال"، ومنحه لقب "بك"!!

وذكر إبراهيم فوزى: "بعد ذلك، استدعاني جوردون ليُصالحني على إدريس أبتر. وعلى الرغم من التصالح، فقد كُنْتُ مقتنعا بأن تعيين إدريس - في هذا المنصب - يُعتبر كارثة أصابت المديرية، لكنني قدمت له بعض التحذيرات المفيدة: فقد أوصيته بتجنب إثارة سليمان الزبير - على وجه التحديد - وأن يحاول التعايش معه بسلام إذا أراد أن يحكم المديرية بشكل طبيعي^(٣٤)."

وبتعيين إدريس أبتر مديراً على "بحر الغزال"، فإن جوردون قد ظلم سليمان الزبير ظلماً لا مزيد عليه، وارتكب أيضاً خطأ إدارياً لا يوجد ما هو أفدح منه: فإدريس كان نخاساً قديماً استغل سلطانه المطلقة - في "زريبة غطاس" - أسوأ استغلال، وتصرّف كأشد ما يكون الحكام استبداداً، عندما زار شفاينفورت تلك المنطقة؛ وكان فوزى يعتبره عبقرية شريرة ومؤذية.

إن هذا التعيين يُعتبر تحدّ لسليمان، فكان يجب عليه مواجهته، خصوصاً وأن إدريس كان من أصل وضيع وعديم الذوق والحياء.

وبتاريخ ٧ فبراير سنة ١٨٧٨، غادر جوردون الخرطوم متوجّهاً إلى القاهرة؛ وهناك، اقترح الخديوى عليه تولي "منصب رئيس لجنة التفيتش العليا". لكن رجال المال كانوا هم المسيطرين على القاهرة، ولم يكن جوردون يقبل الخضوع لهؤلاء الماليين "الذين استولوا على حكومة البلاد بطرق غير شريفة"؛ وبالتالي، فقد كان التفاهم معهم مستحيلاً.

ولذلك، قرّر جوردون العودة إلى السودان؛ فسافر إلى السويس - يوم ٣٠ مارس - والتقى هناك بالليدي بيرتون التي وصفته بأنه "غريب الأطوار تماماً". وهل يوجد سلوك أكثر غرابة من سلوك جوردون؟! لقد كانت الفوضى تضرب أطنابها في كل أرجاء السودان (الذي لم يكن - أصلاً - "سريراً مفروشا بالورود")؛

وبدلاً من العودة إلى الخرطوم مباشرة، قرر جوردون القيام بجولة تفنيسية في مناطق "بلاد الصومال" و"هرّر" و"زِيلَع" و"بربرة" و"هرّر" في شهر أبريل.

وقبل وصوله إلى "هرّر"، كان قد بُيِّت النيه لإقالة رؤوف باشا بحُجج كاذبة. وكان رؤوف باشا قد بدأ تنفيذ خطة طموحة لإعادة تحديث "أفريقيا الشرقية المصرية" تحديثاً تاماً. وعَلَّقَ مؤلف إيطالي على هذه الإقالة موضحاً: "في الحقيقة، فإن النفوذ الذي حازه رؤوف باشا كان يُقلِّق جوردون"^(٣٥).

وفي الواقع، فقد كان رؤوف باشا يحظى بشعبية عظيمة في هذه المنطقة حيث أطلق الأهالي عليه لقب "الأب". وبعد هذه الإقالة، ذكر جوردون أن أحد التجار صرَّح له: "يجب أن يأتي الخديوى شخصياً إلى هنا لإقالة الحاكم"^(٣٦).

إن هذا التصرف الذي اقترفه جوردون يُثبت أنه لا يحترم الخديوى الذي عيَّن رؤوف باشا في هذا المنصب لكي يغزو "هرّر" وينظمها، ويُبَيِّن - أيضاً - الضرر البالغ الذي ألحقه جوردون بكرامة مصر ومصالحها في هذا الجزء من أفريقيا.

وتوجد شَعْرَة رفيعة تفصل بين هذا "الأمين المجنون" و"المجنون غير الأمين": فجوردون قد دَبَّرَ إقالة رؤوف باشا من منصبه لكي يُعيِّن أوروبياً في منصبه، بالضبط كما سبق له وأن فعل بتعيين صمويل بيكر (الذي كان بمثابة مصيبة حَلَّتْ على "المديرية الاستوائية") مكان الباشا المصرى حاكم هذه المديرية.

وَوَجَّه جوردون رسالة إلى صمويل بيكر ذكر له فيها: "قابلتُ ابن أخيك - الملازم بيكر - في عدن يوم ١٠ أبريل، وشعرتُ بالأسف لأننى لم ألتقُ به قبل ذلك. وأراد ابن أخيك أن يصحبني إلى "بربرة" و"زِيلَع"، لكن رؤوف باشا موجود، وفي نيَّتي إقالته فور وصولي إلى هناك. وسيقول لك ابن أخيك أننى قد ثارتُ لك. وإذا ذهبتُ إلى مصر، فحاول مقابلة صاحب السمو الذى لا يذكرك إلا بالثناء عليك. وأرجو أن أستطيع إقناعك بحكم هذه المناطق المستقلة عن سُلْطَنِي"^(٣٧).

لكن بيكر كان حذراً: فرفض عرض جوردون الذى كُرِّر محاولته الفاشلة مع المنكشغبيرتون (قنصل إنجلترا فى ترييستا).

وكانت الخبرات السابقة قد علَّمت الخديوى: فاتخذ قراراً رشيداً بفصل "هَرَر" و"ساحل الصومال" عن سُلطة جوردون فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٨. ومن المؤكد أن جوردون كان يسعى لتعيين أحد الإنجليز لحكم هذه المناطق المزدهرة - والبعيدة - التى كانت إنجلترا تطمع فى احتلالها بالقدر نفسه الذى كانت تطمع فيه باحتلال مناطق "البحيرات العظمى". وبذلك، يُثبت جوردون أنه كان يعمل لمصلحة بلاده: إنجلترا.

وفى بداية شهر يونيو سنة ١٨٧٨، رجع جوردون - ثانية - إلى الخرطوم حيث وصل الوضع فيها إلى منعطف خطير. إننا نتذكر آراء جوردون المتعلقة بإلغاء النخاسة، و نتذكر - على وجه التحديد - الخطة المعتدلة للغاية التى سَبَقَ له وأن عَرَضَهَا على فيفيان فى شهر مايو سنة ١٨٧٧. وفى تلك الأثناء، كانت إنجلترا قد وقَّعت مع الخديوى "اتفاقية منع النخاسة" (٤ أغسطس سنة ١٨٧٧)، ثم تَلَّتْهَا بـ "اللائحة التفصيلية" المكوَّنة من ٣٦ مادة (١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٧)؛ وبعدها، صَدَرَ قرار الخديوى (الأول من يناير سنة ١٨٧٨) المتعلق بنقل العبيد بحراً.

وكانت هذه الاتفاقية خطيرة وغير قابلة للتنفيذ - حسب رأى الكثيرين ومنهم جوردون نفسه - كما كانت لائحَتُها مليئة بالتناقضات: فالمادة الثانية من الاتفاقية تنصُّ على ما يلى: "كل مَنْ يمارس النخاسة - بشكل مباشر أو غير مباشر - يُوجَّه إليه الاتهام بالسرقَة المقترنة بالقتل"، والقانون المصرى يُعاقب هذه الجريمة بالإعدام. وفى الوقت نفسه، نصَّت "المادة الأولى من اللائحة على: منع بيع العبيد من أسرة لأسرة، ويُطبَّق هذا المنع بعد سبع سنوات فى القاهرة (سنة ١٨٨٤) وبعد ١٢ سنة فى السودان (سنة ١٨٨٩).

"المادة الثانية: يُعاقب بالسجن مدة تتراوح ما بين خمسة أشهر إلى خمس سنوات كل مَنْ يُخالف هذا القرار".

وتساعل جوردون عن كيفية التفرقة بوضوح بين البيع من أسرة لأسرة وبين النخاسة؟ واكتفى نوبار باشا بالرد على ملاحظته قائلاً: "إن بيع العبيد في مصر كان قانونياً". وفي حقيقة الأمر، فإن الحكومة المصرية كانت تسعى للتفرقة بين البيع العلني للعبيد في "أسواق العبيد" وبين التجارة الخاصة؛ وفي ذلك وسيلة للتحايل على القانون المتعسف الذي يُساوى ما بين بيع العبيد والسرقة المقترنة بالقتل.

وفي سنة ١٨٨٤، رجع جوردون مُجدّداً إلى السودان لمواجهة التمرد العام الناشب هناك؛ فكشف عن النفاق السياسي لحكومة بلاده عندما أعلن عن "حرية تجارة العبيد". وفي الوقت نفسه، كتب لـ "بارينج" - قنصل بريطانيا العظمى في مصر (*) - تفسيراً نقله القنصل إلى اللورد جرانفيل^(٩): "... وفيما يتعلّق بملكية العبيد، فلم يكن علينا التّخلُّل في هذا الموضوع حتى ولو كنا أصحاب السيادة في السودان. لقد سبق لي وأن أعلنتُ أن اتفاقية سنة ١٨٧٧ كانت مستحيلة التنفيذ^(١٠)".

إذن، فقد كان جوردون مقتنعاً بأن تنفيذ هذه الاتفاقية، وممارسة العنف - بصفة عامة - كما نادى به حكومته، كانا ضد مصلحة مصر. ومن هذا المنطلق، أدان المجهود والنشاط - غير المناسبين - اللذين أبداهما الكابتن مالكوم الذي عُيِّن - في شهر يناير سنة ١٨٧٨ - في منصب "المدير العام لمصلحة النخاسة" في البحر الأحمر.

(*) هو اللورد كرومر فيما بعد، والمعتمد السياسي البريطاني في مصر والحاكم الفعلي لها (١٨٨٣ - ١٩٠٧) (المراجع).

[9] اللورد جرانفيل (Lord Granville) (١٨١٥-١٨٩١) كان وزيراً للخارجية الإنجليزية من سنة ١٨٧٠ حتى سنة ١٨٧٤، ومن سنة ١٨٨٠ حتى سنة ١٨٨٥ في حكومة جلاستون [المترجم].

وشغرت الحكومة الإنجليزية بالاستياء من موقف جوردون، فسارعت بإبلاغ قنصلها في القاهرة - بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٧٨ - بأن "الكولونيل جوردون يُپادن النخاسين كما لو كان لا يشغُر بمدى قوته تجاههم: ولذلك، فإنه لا يعاديهم صراحة^(٢٩)". وفهم فيفيان إشارة حكومته، فاستفاد من الاستقالة التي أُجبر مالكوم على تقديمها (يونيو سنة ١٨٧٨) لإثارة حماس جوردون، وأيضاً لإعطائه إنذاراً واضحاً: فأبلغ فيفيان حكومة الخديوى رسمياً - فى شهر يونيو فى رسالة بتاريخ ٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ - بأنه يعتبر جوردون باشاً" مسئولاً مسئولية كاملة عن:

١- اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية لإلغاء النخاسة فى المديریات التى يحكمها وعلى سواحل البحر الأحمر.

٢- ومحاكمة السفن والأفراد الذين يضبطون مثلبسين وهم يمارسون هذه التجارة".

وبعد ذلك، أكد المستر فيفيان أن حكومة صاحب السمو الخديوى لا تعارض قراره، بل إنها ترجوه "أن ينفذ التزاماته بإخلاص تجاه إنجلترا فيما يتعلّق بمسألة النخاسة، ومعاقبة أى شخص يمارسها بشكل مباشر أو غير مباشر". ومنذ ذلك الحين، أصيب جوردون بنشاط محموم ومُتَعَصِّب: فأبطل ما كان ينادى به بالأمس، وشنَّ حرباً حقيقية على النخاسين فى السودان.

وظهر العنف بوضوح فى كلمات جوردون وتصرفاته: ففي ٢٧ يوليو، كتب ما يلى من الخرطوم: "استولينا على ١٢ قافلة تنقل عبيداً خلال شهرين، وهذا شيء طيب..."; وفى الأول من أغسطس ذكّر: "استولينا على قافلة أخرى بها ٢٥٠ عبداً فى دارفور، وهى القافلة رقم ١٤ فى خلال شهرين"; وفى ٨ أغسطس كتّب: "فى كل يوم، أقوم بتوجيه ضربات مميتة للنخاسين. ولتنفيذ ذلك، فقد أقمت نوعاً من

"حكومة الإرهاب"^(١٠) فشنتُ رجلاً لأنه خَصَنى صبيًا. ولن أطلبُ إذنًا بذلك، ولا نيمنى موافقة الخديوى أو رفضه لهذا النظام^(١١)."

ومنذ ذلك الوقت، أصبحت الحرب ضد النخاسة - بالنسبة لجوردون - نوعًا من الإيمان الدينى الذى يحث ضميره وقواه المنهارة ويرفعهم. لكن على المدى الطويل، شَعُر الخديوى بالاستياء من سياسة جوردون التى تَمَثَّلَت فى:

- ١- مصادرة القوافل باستمرار.
- ٢- وتنفيذ عمليات الإعدام.
- ٣- وسجن النخاسين.
- ٤- وممارسة سياسة "محاكم التفتيش"^(١٢) التى طارَدَت النخاسين - فى كل مكان - كما لو كانوا هراطقة، ونشرت الفوضى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى السودان.

وبتاريخ ١٦ سبتمبر، كتب جوردون: "لستُ على وفاق مع الخديوى: فهو لم يرسل لى أية برقية منذ شهر مع أننى أرسلتُ إليه بخصوص عدة مواضيع مهمة". وعلى العكس من موقف الخديوى، فقد سارعت الحكومة البريطانية بالكتابة إلى

[10] "حكومة الإرهاب": خوف جماعى تنتشره السلطنة بين أوساط الشعب لكسر مقاومته بتطبيق الإجراءات الاستثنائية والعنف. لجأت الثورة الفرنسية "لنظام الإرهاب" ضد الملكيين (من يونيو سنة ١٧٩٣ حتى يوليو سنة ١٧٩٤)، ثم لجأ الملكيون - بدورهم - "للإرهاب الأبيض" ضد الجمهوريين مرتين: فى سنة ١٧٩٥ وفى سنة ١٨١٥ [المترجم].

[11] "محاكم التفتيش" (L' Inquisition): محاكم استثنائية أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى لمحاكمة من تشك فى صحة إيمانهم والسحرة. اتسمت تحقيقاتها بالقسوة والتعسف، وكانت أحكامها تقضى بحرق المذنبين أحياء وحرق الكتب. فى إسبانيا، نجحت وسائلها فى تحويل عدد كبير من المسلمين واليهود إلى المسيحية أو دفعهم للهجرة [المترجم].

المستر لاسيل (Lascelles) - وكيل القنصلية العامة في القاهرة - وكلفته "بإبلاغ الخديوى عن رضاها عن التدابير الحازمة التى يتخذها جوردون باشا ضد النخاسة"^(١) وكان ذلك بتاريخ ١٣ نوفمبر سنة ١٨٧٨.

إن تدابير جوردون باشا الحازمة فى السودان تتعادل مع التدابير الحازمة التى اتخذها مالكوم فى البحر الأحمر. وبما أن جوردون قد أقام نوعاً من "حكم الإرهاب"، فقد أصبح من حق الحكومة البريطانية أن تُنتهى على إجراءاته الحازمة، خصوصاً وأن الحرب ضد النخاسة فى المديرينات الجنوبية ("دارفور" و"كردفان" و"بحر الغزال") - تحديداً - قد أصبحت حرباً صليبية حقيقية ضد التجارة بكافة أشكالها، وضد كل التقاليد والعادات القوية والمتوارثة.

لقد سبق لنا وأن أوضحنا كيف أن "إدريس أبتّر" كان ناظرًا سابقًا على "زريبة غطّاس" - فى مديرية بحر الغزال - ثم أصبح وكيلًا للزبير باشا لمدة أربعة أعوام. وبعد ذلك، نجح فى تحقيق أغراضه بفضل الحماية التى أسبغها عليه فريدريك روسيت، ذلك القنصل الفاسد الذى كان موضع ثقة جوردون: لقد استطاع إدريس عزّل سليمان الزبير عن منصبه ووثب مكانه.

والتزم إدريس بتوريد كمية محدّدة من العاج للحكومة سنويًا؛ وفى المقابل، عيّنت الحكومة ٢٠٠ جنديًا من المشاة النظاميين بصفة حُرّاس له تحت قيادة عبد السيد أفندى.

وفى بداية سنة ١٨٧٨، غادر إدريس مدينة الخرطوم، وصعدَ فى النيل الأبيض حتى ميناء "مَشْرِى الرق"، ومنه اتجه إلى "جائدا" لكى يُخبر سليمان الزبير - بنفسه - بإقالته من منصبه؛ فوجّه سليمان رسالة إلى إدريس كرّر له فيها أنه لن يَرْضَخ أبداً لهذا القرار الظالم. وأصبحت الحرب حتمية الوقوع، خصوصاً وأن إدريس - منذ وصوله إلى "جائدا" - لم يستطع التخلّص من نشوة انتصاره: فلم

يتعامل بفطنة ولا بلباقة مع سليمان. وأيضاً، فقد انتصف أخوه- عثمان أبتر- بالبداءة والجلافة، فكان يوزع شتائمه وتهديداته المستمرة ضد سليمان وأنصاره.

وركّز سليمان قواته في "ذئب الزبير". وبينما كان إدريس أبتر مشغولاً بتجميع قواته وأنصاره وأبناء مديريته (الدنجلوية) حوله، شنّ سنيان هجوماً مفاجئاً على "جاندا" حيث كان عثمان أبتر متحصناً مع قواته الحكومية و"الباسنجر" (أى "العبيد المسلحين")؛ فسقط الحصن، وقُتل عثمان ومعه أغلب المدافعين عن المدينة، واحترقت غالبية المنازل والأكواخ.

وبعد هذه الهزيمة، هرب إدريس أبتر إلى "روهل"، على طريق الخرطوم، وكانت الأنباء عن تمرد سليمان الزبير قد سبقته إلى هناك بعد وصول جوردون للخرطوم بعدة أيام فقط (يونيو ١٨٧٨). وانتشرت الشائعات بأن سليمان أعلن استقلاله في مديرية بحر الغزال. وبدلاً من أن يتحلى جوردون بهدوء الأعصاب في مواجهة هذا الموقف، وبدلاً من إصلاح خطئه وإعادة سليمان إلى منصبه (الحاكم العام)، صمّم على إرسال حملة عسكرية مكلفة للغاية (مثل حملة صمويل بيكر) للهجوم على المديرية المتمردة.

وسنقدّم- فيما يلي - مثلاً واحداً من بين آلاف الأمثلة للبرهنة على مدى تفوّق "الباشاوات المصريين" - فى حكم السودان- على "الباشاوات الإنجليز" من نوعية مالكوم وبيكر وجوردون: ففي سنة ١٨٦٩، حدث موقف مُماثل عندما عيّن جعفر باشا مظهر - الحاكم العام للسودان - شخصاً يُدعى "بلال" (وهو صيّاد عبيد) على رأس حملة عسكرية ضد رحمت الزبير الذى كانت قوته قد بدأت تثير قلق الحكومة المصرية وقتذاك.

لكن الزبير استطاع أن يقتل بلالاً ويُسّست أنصاره؛ ومع ذلك، أعلن ولاءه للحكومة. وبمنتهى الذكاء، اكتفى جعفر باشا مظهر بقبول إعلان الزبير ولاءه

لمصر. وبهذا التصرُّف الذكى، منع جعفر باشا هذا النزاع من أن يتحوَّل إلى حرب مُعلَّنة. وبعد ذلك، قَدِّمَ الزبير خدمات جليَّة للحكومة المصرية.

وفى سنة ١٨٧٨، كان رحمت الزبير مُحْتَجِّزًا فى القاهرة لكنه طلب من ابنه أن يتعامل مع إدريس كما سبق له وأن تعامل هو مع بلال فى سنة ١٨٦٩: فبتاريخ ١٣ مايو سنة ١٨٧٨، وَجَّه رسالة إلى سليمان جاء فيها: "... ومع ذلك، فقد أصبح إدريس أبتر حاكمًا وسيُدمَّر ما فعلناه وما قدمناه للحكومة [المصرية]... فعليك إذن أن تطرده - هو ورجاله ونسَلهم - وتُنظَّف البلد من مثيرى الشغب هؤلاء... وحافظ على العلاقات الطيبة مع الحكومة [المصرية] ونفِّذ تعليماتها بالحُسنى لكى تنال الشرف وتستطيع استكمال حماية وبقاء هذه المناطق... (٤٢)"

لكن جوردون لم ير فى هذه الرسالة - وفى أوراق أخرى استولى عليها - سوى أنها دليل على اشتراك الزبير باشا فى التمرد الذى يقوده ابنه سليمان: فعندما وقعت هذه الوثائق فى يد جوردون، تَصَوَّر أنه يستطيع تبرير سياسته. وفيما بعد، شكَّل مجلسًا عسكريًا أصدر حكمًا بالإعدام على الزبير باشا وولده لإدانتهما بتهمة الخيانة العظمى. وهكذا تَسَبَّبت حماقات جوردون فى تحويل صراع نفوذ عادى (على مديرية بحر الغزال) إلى حريق هائل.

وعندما قَرَّر جوردون شَنُّ حرب نظامية ضد سليمان الزبير، بحث عن رجل "حازم" لتنفيذ هذه المهمة، واستشار المستكشف يُونكر (Junker) - الذى كان متواجدًا فى الخرطوم منذ يوم ٢٨ مايو - فانتَهز يونكر حَظَّوته لديه، واقترح عليه عَزَل إبراهيم باشا فوزى (حاكم المديريات الاستوائية) من منصبه، وتعيين الدكتور أمين بك مكانه (٤٣).

وفى تلك الأثناء، كان جيسى قد ترك خدمة الحكومة [المصرية] وكَلَّف الفنان المصور ريكاردو بوشتا (R. Bouchta) - بالاشتراك مع دكتور فى العلوم الطبيعية - باستكشاف "وادي نهر السوبات" و"بلاد الجالا" فى شرق السودان لحساب

الحكومة الإيطالية. وعندئذ استطاع يونكر إقناع جوردون بتحويل أنظار جيئى عن تنفيذ هذه الحملة الاستكشافية بتعيينه فى منصب قائد الجيش الذى سيقمع تمرد سليمان الزبير.

ولم يكن هناك أسوأ من هذا الاختيار: فهذا الإيطالى - رومولو جيئى الذى أصبح الذراع اليمنى لجوردون - كان مغامراً حقيقياً كما تشهد بذلك مسيرة حياته. وترجع صداقته بجوردون إلى أيام "حرب القرم"^(١٢) حيث كان جيئى مترجماً فى الجيش البريطانى. وبعد انتهاء الحرب، تطوَّع فى جيش جاريبالدى^(١٣) فى إيطاليا، ثم أصبح رجل أعمال وأنشأ ورشة نجارة ميكانيكية فى مدينة صغيرة فى رومانيا. وعندما مثَّل جوردون إنجلترا فى "اللجنة الدولية للدانوب"، أقام فى المدينة نفسها التى يقيم بها جيئى، فجدا صداقتهما القديمة، وأَيَّدَا - بحماسة - قضية الفلاحين الرومانيين الذى يُعانون من ظلم الأتراك^(١٤).

وفى ما عدا دوران جيئى حول "بحيرة ألبرت"، كانت مهمته الأساسية - فى "المديرية الاستوائية" - تتحصر فى إدارة قسم المواصلات والمخازن الحكومية لحساب جوردون. ونجح يونكر فى إقناع القائد الجديد بتولى قيادة الجيش، وكان يحلو له أن يُردَّد بأن جيئى "بصفته أوروبياً، كان يعتقد بأن واجبه يتطلب منه

[12] شبه جزيرة القرم (La Crimée) تقع فى أوكرانيا. خضعت للحكم العثمانى منذ سنة ١٤٧٥. نشبت بسببها عدة حروب بين تركيا وروسيا آخرها حرب سنتى ١٨٥٤ و ١٨٥٥ بين روسيا - من جهة - وتحالف ضم: تركيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وسردينيا، من جهة أخرى. انتهت هذه الحرب بهزيمة روسيا وتوقيع اتفاقية باريس سنة ١٨٥٦. كان سبب نشوب هذه الحرب هو التنافس بين روسيا وإنجلترا حول مد نفوذهما على بلاد الشرق؛ والتنافس بين روسيا وفرنسا حول السيطرة على الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين [المترجم].

[13] جيوسيبى جاريبالدى (Garibaldi) سياسى إيطالى (١٨٠٧ - ١٨٨٢) تحالف مع مائزنى (١٨٣٤) ثم شارك فى ثورة سنة ١٨٤٨. فى سنة ١٨٥٩، كوَّن جيشاً به ٥ آلاف من حملة البنادق وهزم القوات النمساوية مرتين واستولى على صقلية. انتخب نائباً فى البرلمان الإيطالى وشارك فى حرب سنة ١٨٧٠ بجانب الفرنسيين [المترجم].

التضحية". وطلُب من جيسى تركيز القوات المتاحة وتنظيمها فى وَسَط أفريقيا لكى يَشُن الهجوم المقبل.

وبينما كان جيسى يستعد للسفر، وَضَعَ جوردون منزل الزبير باشا تحت الحراسة، وَسَجَن أربعة من أقاربه كانوا موجودين فى الخرطوم، وصادر كافة البضائع والممتلكات الخاصة بأسرة الزبير باشا.

وفى شهر يوليو سنة ١٨٧٨، وصل جيسى إلى "رُومَبَك" وانتظر انتهاء موسم الأمطار. وفى تلك الأثناء، نجح فى تكوين جيش به أكثر من ٧ آلاف جندي. وفى شهر ديسمبر، بدأ موسم الجفاف، فتوجّه إلى "جاندا" وَحَصَّن بها لمدة ثلاثة أشهر، واكتفى بصد هجمات قوات سليمان التى كانت تفوق قواته بكثير. وفى شهر مارس سنة ١٨٧٩، وصلت إليه تعزيزات عسكرية: فبدأ هجومه وألحق هزيمة ساحقة بسليمان فى الأول من مايو.

واضطر سليمان للهرب تاركاً ثرواته التى كَدَّسها فى "ذِيم الزبير" عاصمة "مديرية بحر الغزال"، وتقاسم "الدينجلاوية" الجزء الأكبر من الغنيمة سرّاً فيما بينهم. وطأرد جيسى سليمان لكنه لم يَسْتَطِع القبض عليه، فعاد إلى "ذِيم الزبير" حيث تلقى الأمر بالمثل أمام جوردون باشا الذى كان قد وصل إلى دارفور.

وفى تلك الفترة، كان جوردون فريسة لأكثر المشاعر عدوانية: فقد كان شيطان النخاسة مسيطراً عليه تماماً، ولم يَكُن يريد التوصل إلى أى حل سلمى أو سياسى لهذه المسألة. وبتاريخ ٢٤ يناير، كتب من الخرطوم: "يُعْتَبَر تدمير عصابة الزبير بمثابة اللحظة الحاسمة فى مشكلة النخاسة. ومع ذلك، لم أَتَلَق أية كلمة تشجيع من القاهرة...

"والملاحظة الوحيدة التى وصلتني من القاهرة - بخصوص عصابات النخاسة هذه - كانت اقتراحاً من نوبار باشا بإرسال الزبير إلى هنا (أى إلى السودان) وكان الزبير قد وعد نوبار بتسديد مبلغ ٢٥ ألف جنيه سنوياً. لكن، كيف

سيدفع الزبير هذا المبلغ؟ طبعاً عن طريق إرسال العبيد. لقد رفضتُ عرض نوبار وأعلنتُ أنني لا أحتاج لأية مساعدة من القاهرة في هذه المسألة... والطريقة التي تتبعها الحكومة المصرية في مساندة الزبير - الذي كان موجوداً في القاهرة - تترك أثراً سيئاً لأن الجميع هنا يتصورون أنني العقبة الوحيدة التي تمنع عودته...

"لقد عيّنْتُ وكلاء أوروبيين في جميع المحطات الحدودية لكي أمنع قوافل العبيد من المرور... وسأمنح جيسى مبلغ ألف جنيه لو استطاع إلقاء القبض على ابن الزبير وشنقه لأننا لو أرسلناه إلى القاهرة، فسيكسب ألف صديق^(٤٥)".

يا للتناقض!! إن جوردون يعارض رجوع الزبير إلى السودان (مع أنه أقوى شخصية في هذا البلد وأكثرها احتراماً) لكي يستطيع [أي جوردون] الاستمرار في شنّ حرب مُدْمِرةٍ يستفيد منها نخاس من أخط الأنواع؛ وكان جوردون قد عيّن هذا النخاس في المنصب الذي كان يشغله أسياده: فأصبح "الحاكم المصري" على مديرية كبيرة كما منحه لقب "بك"!!

وعندما نسترجع أفكار جوردون عن النخاسة، فإننا لا نستطيع أن ننخيله في هيئة فارس جَوّالٍ يسير حاملاً الإنجيل في يد والسيف في اليد الأخرى ليشن حرباً مقدسة "إنسانية" ضد النخاسة!! وبالإضافة إلى ما سبق، فقد تمّ تكليف جوردون - في سنة ١٨٨٤ - بمواجهة التمرد "الذي تَسَبَّبَ هو في اندلاعه"؛ وعندئذ، استجاب جوردون لصوت ضميره بدلاً من الاستجابة للحكومة الإنجليزية: فطالب بعودة الزبير باشا لأنه كان الوحيد القادر على التصدي للمهدي. لكن الحكومة الإنجليزية رفضت هذا الاقتراح بعناد، وأعطت الأولوية لاهتماماتها الإنسانية، كما لو كان نشر السلام وإنهاء المجازر والدمار ليسا هدفاً إنسانياً.

وفي سنتي ١٨٧٨ و ١٨٧٩، أصيب جوردون "بردة وراثية" (atavisme)^(٤٦) جعلته يلجأ لاستخدام الإرهاب في النظام وفي الحكم. لكن النفاق كان قد أصبح طبيعة ثانية لديه كما هو الحال لدى أشخاص آخرين لطخوا تاريخ البشرية بالدماء.

[14] عن هذا المصطلح، برجاء مراجعة الملاحظة رقم (٤) في هذا الفصل [المترجم].

وبما أن العنف يُؤلّد العنف، فقد ازداد التمرد انتشاراً واجتاح المديريات الجنوبية منذ بداية سنة ١٨٧٩ رغماً عن الانتصار المؤقت الذى أحرزه جيسّي: فحدثت حركات تمرد فى كل مكان تقريباً - فى "دارفور" - وتزامنت مع حركات التمرد الناشئة فى "مديرية بحر الغزال".

وكان هارون قد لجأ إلى الجبال منذ سنتين، فاستفاد من الحرب على سليمان، ومن انسحاب القوات [المصرية] من "دارفور"، وبدأ يشن الغارات من جديد ويطالب باستعادة عرش أسلافه.

وفى مديرية "كردفان"، ظهر المدعو "صباحي" - وهو من أنصار الزبير السابقين - وتزعّم جموع الساخطين. لقد كان جميع أهالى "كردفان" متعاطفين مع قضية الزبير: فهذه الأسرة العربية الكبيرة كانت كثيرة العدد ولها أنصار كثيرون من ذوى النفوذ فى المديرية. وعندما انهارت النخاسة بطريقة فجائية وشاملة (عن طريق الحرب والاستيلاء على قوافل العبيد)، انهارت معها التجارة جميعاً بالضرورة.

لقد اعترف جوردون نفسه بهذه الحقيقة وهو متوجه من "الأبيض" إلى "شاكّا" - يوم ٢٤ مارس - عندما كتب ما يلي: "استولى حسن باشا حلمى على ٣٧ عبد فى يوم وصولي، وكان قد استولى على ٢٢ غيرهم بالأمس. إن سكان "الأبيض" (عاصمة كردفان) ينظرون لى بكراهية، وكل واحد منهم يشكو من انهيار التجارة بسبب توقف النخاسة. إن المهمة قاسية ومتعبة"^(٤٦).

لكن، كان على جوردون أن يمضى حتى النهاية لإنجاز هذه المهمة التى فرضتها عليه حكومته [الإنجليزية]. وفى بعض الأحيان، كانت طبيعته قادرة على التفكير السليم: فكان يرى بوضوح تام مجريات الأمور ويتنبأ بنتائجها الحتمية.

وبتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٨٧٩، كتب ما يلي من مدينة "شاكّا": "إذا تم عتق العبيد فى سنة ١٨٨٤ بداخل حدود مصر، وإذا استمر النظام الحكومى كما هو، فسندلع تمرد مؤكد فى جميع أرجاء البلاد. لكن حكومتنا ستظل نائمة حتى يحدث التمرد؛ وعندئذ، ستصرف بشكل ارتجالي وعشوائي. وإذا كنتم قد قرأتم التقرير

الخاص بالمناقشات - التى دارت فى سنة ١٨٣٣ - حول عتق العبيد فى "الهند الغربية" مقابل دفع تعويض قدره عشرين مليون جنيه، فستكون لديكم فكرة واضحة عن الطريقة التى يتمسك بها ملاك العبيد (حتى ولو كانوا مسيحيين) بممتلكاتهم...

"ومن الممتع التفكير فى أن الناس - فى القاهرة - ينسون تمامًا أن دخلهم سينخفض بمقدار النصف فى سنة ١٨٨٤. وفى الوقت نفسه، فإن وضع بلادهم سيتطلب وجود قوات أكثر للحفاظ على النظام.

"إن سبعة أثمان سكان السودان هم من العبيد، وخسارة دخلهم ستتجاوز الثلثين فى سنة ١٨٨٩، وهو التاريخ المحدد لعتق العبيد فى الأراضى التابعة لمصر خارج حدودها. وفى الواقع، فإن المشكلة المصرية لهى مشكلة شائكة للغاية إذا نظرتم إليها على المدى الطويل. ولذى هنا القوات الزنجية المكوّنة من ٢٥ ألف رجل كلهم من العبيد الذين تم شراؤهم أو أسروا. فماذا سنفعل لتجنيد غيرهم إذا توقفت النخاسة؟" (٤٧).

وعلى الرغم من هذه الأفكار، فقد كان على جوردون الاستمرار فى تطبيق "إجراءاته الحازمة" أى عتق العبيد باستخدام القوة المسلحة. ولكى نفهم فكرة جوردون بشكل أفضل، يجب علينا أن نتذكر ما كتبه لأخته عن هذا الموضوع بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٧: "لقد فكّرتُ فى موضوع عتق العبيد فى أثناء سفري، وفكّرتُ فى أن أطلبُ ممن يلحُون على هذا الموضوع أن يقولوا لى كيف سيواجهونه.

"إن الجهود التى بذلها أنصار العتق فى سنة ١٨٣٠ جعلتهم يتوصلون إلى حل عملي: فإذا قرأتم تقارير البرلمان الخاصة بـ"ساحل الذهب"، فسترون أن هناك خطة ما اقترحها سكرتير وزارة المستعمرات. وأنا - الآن - أطلب هؤلاء الذين يثيرون صخبًا كثيرًا - حَوْل النخاسة - بأن يقدموا لى خطة بعد دراسة هذه المشكلة [...]

ومن السهل إصدار مرسوم ما، لكنه يظل بلا جدوى إذا كان غير قابل للتففيذ، وإذا كان تنفيذه سيكلف مبلغاً باهظاً (تم دفع ٢٠ مليون جنيه لمزارعي الهند الغربية)؛ لذلك، يجب تسوية هذه المسألة باللجوء إلى حل وسط إذا أردنا حلها حلاً فعلياً.

"إن صاحب السمو يُصدر أوامر إيجابية للغاية - لحاكم كردفان - بخصوص العبيد. وعند مشاهدة مجموعات العبيد هنا، يمكنكم معرفة كيف تُطاع أوامره. وفي الحقيقة، فإن الحاكم المسكين - مثلي حالياً - لا يعرف ماذا يفعل بهؤلاء العبيد؛ لذلك، فهو مُضطر إلى إغماض عينيه. وفي بريطانيا العظمى، يهتم الناس بوجبات عشايتهم أكثر من أى شيء آخر، وتأكدوا من أن الأمر يتعلق فقط بأقلية نشيطة يدفعها الله للاهتمام بهذه المسألة. يا للبؤس!! (٤٨)".

وبتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٧٧، عاد إلى الموضوع نفسه فكتب: "لدى انطباع بأنه لا يوجد حل إلا بتحرير العبيد تحريراً تاماً: إما بالقوة المسلحة (وفي هذه الحالة، سنقترب ظلماً كبيراً) وإما بدفع تعويض (لا نقدر عليه بسبب نقص الأموال). وبعبارة أخرى، فإن أفضل وسيلة هي أن تقوم الحكومة بتقنين نقل العبيد ومراقبته. وبالطبع، فإن هذه الفكرة ستصدم الكثيرين (٤٩)".

ورغمًا عن آراء جوردون، إلا أنه أُجبر - فيما بعد - على عتق العبيد بالقوة المسلحة متسبباً - بذلك - فى إلحاق ظلم شديد بالسودانيين؛ وكان جيسى هو نائبه المُخلص الذى نفذ هذه السياسة العنيفة والمزعجة. وبتاريخ ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩، التقى جيسى بجوردون فى "تاويشا"، وهى محطة رئيسية تقع على طريق قوافل "دار أمسانجا" - "الأبيّض".

وفى أثناء إقامة جوردون - للمرة الثانية - فى "دارفور"، عرّف أن التجار السودانيين فى "الأبيّض" كانوا يبيعون الأسلحة والذخيرة لسليمان الزبير: فكان "الجلّابة" (أى صغار التجار) يفكّون الأسلحة ويهربونها إلى تجار آخرين فى "بحر

الغزال" حيث تُباع مع الذخيرة للمتمردين بأسعار باهظة. وبما أن النقود كانت نادرة، فقد كان العبيد هم أساس القيمة المعتادة في المبادلات التجارية [أى العملة].

وكانت الحكومة قد أمرت بإلغاء النخاسة، لكن تنفيذ هذه الأوامر كان في غاية الصعوبة: فالمنطقة الواقعة بين "الأبيض" و"بحر الغزال" كان أغلب سكانها من القبائل البدوية الرَّحَّل مثل: "عرب البقارة" (وهم محاربون ومن كبار تجار العبيد)، و"العوامر"، و"الرزيقات"، وغيرهم. ويعلق سلاتين باشا^(٥٠) على هذا الوضع بقوله: كان "الجلابة" يتنقلون في جماعات صغيرة؛ لذلك، كان من السهل جدًا عليهم أن يمروا في هذه المناطق المغطاة بالغابات - وغير المسكونة تقريبًا - بدون أن يلحظهم أحد.

ثم أصدرَ جوردون باشا قرارًا بإلغاء كافة أنواع التجارة في المنطقة المحصورة بين: "الأبيض" - "شاكَا" - "بحر الغزال"، وأمرَ التجار بمغادرة المنطقة الواقعة جنوب طريق القوافل الذي يربط "الأبيض" - "تاويشا" - "دارا"، وبأن يحصروا تجارتهم في وَسَط "دارفور" وشمالها فقط.

لكن التجارة غير المشروعة استمرت رغمًا عن قرارات جوردون، فاتخذ إجراء صارمًا تسبَّب في زيادة حدة الاضطراب السائد: فقد أمرَ شيوخ القبائل العربية بالقبض على كل "الجلابة" - الموجودين في مناطق نفوذ تلك القبائل - وإرسالهم تحت الحراسة إلى: "دارا" و "تاويشا" و "أومشانجا" و "الأبيض". ولا يُوجد أفضل من هذا الأمر لإرضاء جشع العرب.

وبالتأكيد، فإن "الجلابة" لم يكونوا كلهم من مهربي الأسلحة؛ لكن، كان من الصعب التفرقة بين الصالح والطالح منهم، أو - بالأحرى - لم يرغب أحد في ذلك؛ وبالتالي، فقد بدأ العرب يشنون حملة مطاردة شاملة ومُحمومة على الجلابة: فسلبوهم بضائعهم - وحتى ملابسهم - واقتادوهم بالمئات وهم شبه عرايا مثل الحيوانات إلى: "دارا" و "أومشانجا" و "تاويشا".

وكان هؤلاء "الجلابة" - المطرودون من مناطق الجنوب - ينتمون إلى أهالي كردفان ووادي النيل (من "الجعليين" و"الشايقية" و"الدينجلاوية") الذين غادروا مواطنهم بحثاً عن الثروة الناتجة عن التجارة والنخاسة؛ وكانوا قد تركوا - في بلادهم - أهاليهم وأصدقائهم الذين ارتبطت مصالحهم تماماً بازدهار تجارة "الجلابة": فقد كانوا يشاركونهم مالياً في تجارتهم؛ وبالتالي، فقد اتحدت مصالح الجميع. إن قرار طرد "الجلابة" قد أساء إساءة بالغة لهيبة جوردون باشا وشعبيته.

وفي شهر يونيو سنة ١٨٧٩، قرر جوردون مغادرة "دارفور" والتوجه إلى الخرطوم بعدما أمر جيسى بالتوجه إلى "دارا". وهناك، عرّف جيسى أن سليمان الزبير موجود في "جرا"، في المنطقة الجنوبية لدارفور. وأرسل جيسى لسليمان عرضاً بإحلال السلام بينهما ووسط "إسماعيل برنو" لنقل هذه المقترحات.

و"إسماعيل برنو" مصري الأصل ومولود في "دارفور" وكان يُمَيِّز بالشجاعة وبمعرفة التامة بشئون البلاد. ونجحت وساطة "إسماعيل برنو" في إقناع سليمان بالاستسلام. لكن "رابح" - أهم أنصاره - استطاع الهرب، ووصل إلى قلب أفريقيا، فأفلت من المصير المحتوم الذي لاقاه سليمان ورفاقه^(٥١).

وفي الحقيقة، فإن جيسى قد ذهب إلى "جرا" ووعد - بنفسه - سليمان بمنحه العفو الذي طلب، لكنه كان كذاباً: فرغبته الحقيقية كان تكمن في تحقيق أمنية جوردون المعلنّة، أي شنق سليمان. واستمع جيسى لبعض الوشائيات الخبيثة والاتهامات من الدينجلاوية في حق ابن الزبير.

وفي أثناء النهار، استدعى جيسى إلى خيمته سليمان ورفاقه الثمانية ولامهم بقسوة على سلوكهم ولؤمهم؛ ثم تصاعدت حدة النقاش حتى تملك الغيظ الشديد من جيسى - الذي كان ذا طبيعة رعناء وشخصية "حازمة"^(٥٢) - فخرج من خيمته وأعطى الدينجلاوية الأمر الذي كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر أي إعدام سليمان ومعاونيه الثمانية. وكان ذلك يوم ١٥ يوليو سنة ١٨٧٩.

وهذا التصرفُ المجنون تماماً يُعتبر بمثابة التتويج الحقيقي لهذه الحملة التي لم تستطع "قطع رقبة التمرد" (كما يقول المؤرخون الرسميون)، بل إنها ساعدته على أن يرفع رأسه ثم يتحول - سريعاً - إلى ثورة.

وعُلّق سلاتين باشا على نتائج هذه الحملة قائلاً: "وهكذا أعدم سليمان مع كل قياداته - باستثناء "رابح" - وتلاشت قوة "البخّارة" (كما كانوا يطلقون على سليمان وحلفائه). لقد خسرت الحكومة خسائر رهيبة في الأرواح، وفي الأسلحة والذخائر، إلخ... لكن القبائل العربية في الجنوب ("البقارة"، و"التعايشة"، و"الحبانية"، و"الرزيقات") كسبت غنائم هائلة من "الباسنجر" والسلاح قبل وبعد استسلام سليمان: فأصبحت أغنى، وأصبح بمقدورها - من الآن فصاعداً - إظهار قوتها، وسببت لنا مصاعب جمة فيما بعد".

واعترف جيسى نفسه بأن "الأحداث الأخيرة التي قضت على النخاسة في "بحر الغزال" قد تكلفت أنهاراً من الدماء". إنه يتصور - تماماً مثل بيكر - بأن زوال بعض أعراض المرض يعنى الشفاء منه، بل إن هناك ما هو أسوأ مما سبق. لقد طالب جيسى بتطبيق منهج العنف في الوادى الشرقى للنيل كما سبق له وأن طبقه في الوادى الغربى، وذلك لإلغاء النخاسة إلغاء تاماً في جميع أرجاء السودان.

لقد نشرَ جيسى جنون الحرب ورُعبها في كل مكان بمعاونة اثنين من مواطنيه الإيطاليين هما: ميسيداليا (Messedalia) فى "شاكّا"، وإيميليانى (Emiliani) فى "كالاكّا". وفى الواقع، فإن الحكومة الإيطالية كانت لها مطاعمها فى ساحل البحر الأحمر وفى الوادى الشرقى للنيل بأكمله. ولذلك، يحق لنا أن نتساءل هل شجعت الحكومة الإيطالية جيسى - سرّاً - على اتخاذ هذا الموقف؟

وعلى أى حال، فإننا لا نستطيع أن نؤكد - كما فعل بعض المؤلفين^(٥٣) - بأن هذه الحملة قد تمت أساساً بناءً على إلهام إنسانى نبيل "لأن جيسى استغل مسألة إلغاء النخاسة - فى السودان المصرى - وبدأ فى تطبيق سياسة إبادة العرب؛ وهذه

السياسة هي نفسها السياسة المعادية للعرب والمسلمين التي طبقتها حكومة بلجيكا- وبعض الحكومات الأوروبية الأخرى- في أفريقيا.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن كراهية جيئى للعرب وللإسلام تتضح من كل رواياته للأحداث؛ فبتاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩، كتب ما يلي: "كنت أريد الذهاب إلى الخرطوم، لكننى لا أستطيع تحقيق ذلك إلا بعد أن أطرُد كل العرب قاطنى هذه المناطق". وفى رسالة بعث بها إلى مجلة "Esploratore" - بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٨٠ - ذكر ما يلي: "لا أستطيع التراجع أمام الحقيقة. لقد اقتنعت بأن الحكومة المصرية ليست لديها أدنى رغبة فى التستر على الجرائم التى ارتكبها العرب فى حق الأهالى الأبرياء المسالمين".

إن إبادة العرب دفعة واحدة - وبدون تمييز - تعنى إبادة العنصر السكانى الجسور والنشط فى هذه المناطق^(٥٤). وعلاوة على ذلك، ماذا كان بوسع جيئى أن يفعل ضد القبائل القوية فى الجنوب؟ إن أقصى ما توصلت إليه سياسته يتلخص فى:

١- تدمير التجارة بشكل عام.

٢- ونشر الفوضى واللصوصية.

٣- وبذر بذور الكراهية ضد مصر بين كافة أهالى السودان لأن مصالحهم وحياتهم كانت مشتركة.

لقد كان جيئى يُعَبِّر عن النمط المثالى للأوروبى المتعصب الذى لم يكن يُفَكِّر إلا فى القضاء على النفوذ الإسلامى فى أفريقيا، فهو الذى كتب- أيضا- ما يلي: "إن الوسيلة الوحيدة لتنصير هذه الأماكن - فى رأى - يكمن فى نشر حركة الاستعمار على أوسع مدى مما يسمح بعمل توازن مع الهيمنة الإسلامية واحتوائها^(٥٥)".

ونسى جيسى أنه كان يعمل فى خدمة دولة [مصر] هى مثال للتسامح غير المعقول تجاه المسيحيين بداخل حدودها وفى جميع أرجاء إمبراطوريتها الشاسعة: فالدولة المصرية لم تكنف بمجرد بسط حمايتها الكاملة على المسيحيين فى الأماكن المتخلفة- التى كان سكانها المسلمون يرفضون مجرد وجود المسيحيين بها (مثل "هرر" وساحل بلاد الصومال)- بل إنها أيضا وهبتهم الأراضى أو الأموال، وبُنِتْ لهم كنائسهم على نفقتها أحيانا^(٤٦).

لكن، بينما كان جيسى يخدم فكرة مزدوجة (دينية / سياسية)، كان جوردون يخدم فكرة واحدة فقط (سياسية) أملتْها عليه حكومة بلاده. لقد نجح جوردون - مثلما نجح صمويل بيكر قبله - فى القضاء على بعض النخاسين أو على بعض القوافل مقابل تدمير البلاد لكنه لم يقض على ظاهرة النخاسة ذاتها. واعترف صمويل بيكر نفسه- ولو أن اعترافه جاء متأخرًا - بأن "إجراءات القمع القسرية كانت ممتازة للغاية فيما يتعلق بالأهداف البوليسية أو العقابية، لكنها لم تقضى على جذور الداء"^(٤٧).

وهذا "الاعتراف" صدَرَ بعد نشوب التمرد فى السودان، لكنه كان مشوبًا بالكذب والخداع: فمن الطبيعى أن تتخلص الحكومة الإنجليزية من المنهج الذى استخدمته لإبعاد مصر عن السودان، خصوصًا بعدما هيمنت هى - بالقوة - على مقادير السودان، فأصبحت [إنجلترا] تسعى للحفاظ عليه. إن الحكومة الإنجليزية تتحمل مسئولية كبيرة أمام التاريخ بسبب الطريقة التى اتبعتها فى مسألة النخاسة.

ومنذ أن هيمنت إنجلترا على السودان، بدأت تطالب:

١- بتوخي الحذر.

٢- وبإنشاء إدارة جيدة.

٣- وبالتوسع فى مد وسائل المواصلات لتحويل حياة الناس وتغيير عاداتهم للأفضل باعتبار أن هذه الوسيلة أكثر فاعلية لمحاربة النخاسة^(٤٨).

وفى شهر يونيو، قام الخديوى باستدعاء جوردون للقاهرة، لكن بعد فوات الأوان: فلم يكن بوسع رؤوف باشا- الذى خَلَف جوردون- أن يسبح ضد التيار، مع أنه كان قد سبق له وأن أنشأ إدارة نموذجية فى "هرر".

ومن المؤسف حقاً أن الخديوى لم يكن حازماً بالقدر الكافى فيتدخل فى الوقت المناسب لإنقاذ السودان بأكمله (كما سبق له وأن فعل فى "هرر") من الذين كانوا يسعون لإذلاله [الخديوى] وإلقاء الأحجار على المغلوب!!

وفى جميع الأحوال، فإن ما فعله إسماعيل- فى أفريقيا - يظل واحداً من أعظم إنجازاته وأمجدها: فمشروعه الإمبراطورى كان عظيماً ويُعد من مآثره الخالدة؛ وأثمرت إدارته فى أفريقيا عن نتائج باهرة (إذا حذفنا منها الفترات التسعة التى حكم فيها بيكر وجوردون). ولم تلجأ إدارة إسماعيل فى أفريقيا للتجمل بالنفاق فتدعى القيام بمهام إنسانية كما ادّعت أوروبا: فهى قد أتاحت لمختلف الشعوب المستعربة أو التى اعتنقت الإسلام- القاطنة فى "السودان" و"هرر" و"ساحل بلاد الصومال" - بالاتصال بحضارة أرقى تتلاءم مع مستوى تطورهم.

وفى الواقع، فإن حضارة مصر الحديثة تُعتبر مرحلة وُسْطى بين الحضارة العربية القديمة - التى ورثتها - وبين الحضارة الأوروبية، التى تحملها مصر لكافة بلاد الشرق.

لقد انصنعت كل الجاليات العربية والإسلامية - المنتشرة على شواطئ أفريقيا وداخلها- تحت ظل راية مصر فأظلتهم: وبدأت لغة مصر وثقافتها ودينها فى الانتشار حتى وصلوا إلى أقصى أرجاء أفريقيا بين الزنوج والوثنيين. ولولا العراقيل التى وضعتها إنجلترا فى طريق مصر، لكانت مصر قد أنشأت إمبراطورية مترامية الأطراف (ماديا ومعنويا) ومتجانسة لأن نفوذها كان يزداد

اتساعاً وعمقاً. لقد شقّت مصر طريقها في المؤسسات والعادات بل وفي الضمير القومي نفسه لدى سكان هذه المناطق.

وعندما أنشأت مصر هذه الإمبراطورية بطول وادي النيل، فإن ذلك كان التزاماً وواجباً عليها، ليس فقط تجاه الشعوب المختلفة (التي ترنوا إليها) بل أيضاً تجاه نفسها وتجاه أمنها القومي. وكان طموح إسماعيل مشروعا لأنه ارتكز على معرفة إيجابية باحتياجات مصر، والشعوب الأفريقية. وبأهداف أوروبا.

وفيما يتعلّق بمسألة إلغاء النخاسة - وكل المسائل التي تهم التوسع الإمبراطوري المصري - يكفي مصر فخراً أنها وضعت خطة بناءة مضادة للخطة المخربة التي وضعتها إنجلترا، لكن إنجلترا نسبت هذه الخطة الإيجابية لنفسها.

وهناك جانب آخر من إنجازات إسماعيل يهيم العلماء بشكل خاص، ونعني بذلك الاكتشافات الجغرافية التي تَمَّت تحت رعايته، وبواسطة هيئة أركان حربه الممتازة المكوّنة أساساً من عناصر مصرية وأميركية: فمنذ سنة ١٨٧٣، بدأ الضباط المصريون يتخرجون من "مدرسة أركان الحرب المصرية" بعدما درّسوا وتدرّبوا فيها؛ فقدموا لمصر خدمات جليلة في الحبشة وفي كل أرجاء إمبراطوريتها.

ويقدّر الجنرال ستون باشا - رئيس "هيئة أركان حرب الجيش المصري" - أن هؤلاء الضباط قد اكتشفوا ورسموا - بالتفصيل - أراض مجهولة في أفريقيا أكثر مما فعله جميع المستكشفين في العالم بين سنتي ١٨٧١ و ١٨٧٨.

ومن المفهوم أننا لا نقصد مقارنة ما فعله ضابط واحد بالاكتشافات العظيمة التي سجلها شخص مثل ستانلي، لكن من المؤكد أن إجمالي ما قامت به "هيئة أركان الجيش المصري" في المناطق غير المكتشفة - في أفريقيا - يفوق إجمالي ما قام به المستكشفون الأوروبيون في الفترة المذكورة نفسها^(٥٩).

وبعدما أنجزت "هيئة الأركان" مسحا لواحاح سيوه، ولأطراف حلوان، وللمناطق الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر، قامت بتوسيع شبكة استكشافاتها فشملت منطقة النوبة العليا والسودان.

وكتب الدكتور آبات (Abbat) باشا - الرئيس السابق للجمعية الجغرافية بالقاهرة - ما يلي: "عندئذ، صدرت الأوامر بإرسال "حملة كردفان ودارفور". وباشتراك الضباط المصريين - بصفة خاصة - فى هذه المهمة، ازدادت مهارتهم وبسالتهم: فاستحقوا تقدير الوطن والعلم لهم لما قدموه سواء فى مجال المصالح القومية أو فى مجال العلوم الجغرافية. وتم الاستيلاء على "دارفور" نهائيا فى سنة ١٨٧٤. وبيانات هذه الحملة مُنَبَّة ومحفوطة جزئيا فى النشرات التى أصدرتها "هيئة أركان الحرب المصرية"^(٦٠) "وكان كولستون (Colston) قد بدأ الحملة الاستكشافية فى كردفان، لكنه سقط مريضا فتولى بروت (Prout) قيادتها. وكان يعاونه الضباط المصريون: عامر رشدى، ومحمد ماهر، وأحمد حمدى، ويوسف حلمى، وخليل فوزى. وكانت نتائج جولاتهم المرهقة رائعة: فبيانات المسافات - التى رسموها - تمت فى جميع الاتجاهات وتجاوزت الـ ٦٥٠٠ كم. ومما يُثير الإعجاب فى هذه البيانات هو أن عددا كبيرا من المواقع قد تم تحديده بواسطة الملاحظات الفلكية. وأيضا، فإن هؤلاء الضباط المصريون قد درسوا سكان البلاد من الناحية الإثنوجرافية.

"وبينما كانت "هيئة أركان حرب الجيش المصرى" تثرى العلوم الجغرافية بأعمالها المتعددة فى غرب أفريقيا، كانت مصر تفتح باب الحضارة فى شرق أفريقيا باستيلائها على "هرر".

لقد كان الضابط المصرى حسن واصف هو الذى رسم خريطة نهر "جوبا"؛ واكتشف النقيب عبد الرازق نظمى - ومعه ضباط مصريون آخرون - المنطقة الواقعة بين "بربرة" و"جبل دوبار" ودرسوا طوبوغرافيتها وسطحها إلخ إلخ...

وباختصار، فبفضل الجهود التي بذلتها كوكبة مرموقة من الضباط المصريين والأوروبيين، وبفضل الاكتشافات التي أحرزوها في مناطق شاسعة (في حوض النيل، والبحر الأحمر، والمحيط الهندي، وخط الاستواء)، تم تسجيل ملاحظات ذات قيمة جغرافية حقيقية سمحت لهم:

١- برسم الخرائط بدقة.

٢- وبتصحيح الخرائط الموجودة سلفاً.

٣- وبمعرفة أفريقيا بشكل أفضل، وفتح الباب لدخول الحضارة إليها.

هذه هي الأحداث والوقائع التي يجب علينا أن نذكرها عندما نريد تقييم إنجازات إسماعيل، تلك الإنجازات التي تسعى الحكومات الأوروبية بضراوة لطمس معالمها وإنكارها. لكن التاريخ له تغييراته المفاجئة: فهو يعيد دراسة ما سبق له أن درسه، ولكن بشكل نقدي، وما يزال التاريخ يحتفظ بالذكرى المتألقة لتلك الملحمة الخالدة التي كان إسماعيل هو بطلها.

* * *

هوامش الفصل السادس عشر

- (1) Archives anglaises. F.O. 84. Vol. 1472.
- (2) "The Personal Papers of Lord Rendel", London, 1931.
- (3) Archives anglaises. Ibid. F.O. 84. Vol. 1472.
- ٢٩ مارس سنة ١٨٧٧. تعليمات إلى المستر فيفيان.
- (4) Ibid. القاهرة، ٩ أبريل سنة ١٨٧٧.
- (5) Ibid. ١٢ مايو سنة ١٨٧٧.
- (6) "Sir Samuel Baker, A Memoir" Pp. 254 – 255. By: Douglas Murray and Silva White:
- (7) G. Schweitzer: "Emin Pacha".
- (8) Vita Hassan: "Die wahrheit uber Emin Pacha" Berlin, 1893.
- (9) "Colonel Gordon in Central Africa" P. 349.
- (10) Le colonel Chaillé-long Bey: "L' Egypte et ses Provinces perdues", P. 187.
- (11) Stanley lane- Poole: "Watson Pacha", London, 1919.
- (12) "Letters of General C.G. Gordon to his sister", London, 1888. By: Miss Gordon
- خطاب بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٦ ص ١٠٣.
- (13) "Colonel Gordon in Central Africa". P. 226.
- (14) Douglas Murray and Silva White: Ibid. P. 246.

(15) Lytton Strachey: "Eminent Victorians".

نشرت مجلة: "Revue Des Deux Mondes" جزءاً كبيراً من الفصل المعنون:
The End of General Gordon في عدديها الصادرين في ١٥ أبريل وأول مايو سنة
١٩٣١.

(16) Wilfrid Scawen Blunt: "Gordon in Khartoum", London, 1911.

(17) "The Personal Papers of Lord Rendel", London, 1931.

(18) W.H. Wilkins: "the Romance of Isabel Lady Burton".

رسالة إلى بيرتون، ج٢، ص ٦٥٧.

(١٩) المقصود هنا هو إبراهيم بك فوزى الذى كان يشغل منصب حاكم المديرية
الاستوائية قبل الدكتور أمين (شنيتر) فى سنة ١٨٧٨^(١٥).

(20) Baron de Malortie: "Here, there and Everywhere". London, 1895.

(21) Mounteney - Jephson: "Emin Pacha and the Rebellion at the Equator".
London, 1890.

(22) Chaillé – Long: "My Life in Four Continents. Vol. 2, P. 434.

(23) "General Gordon in Central Africa", Pp. 398 – 399.

(٢٤) المحفوظات المصرية. قصر عابدين. سواكن، يوم ١١ يناير سنة ١٨٧٨.

(25) "Colonel Gordon in Central Africa", P. 349.

[15] يوجد هنا خطأ هجائى فى اسم "أمين" (Emin) فقد ورد فى الهامش باسم "إميل".
(Emil)[المترجم].

(٢٦) إبراهيم فوزى: السودان فى عهدى جوردون وكيثشنر، ٣ أجزاء (بالعربية) القاهرة، سنة ١٣١٩ هجرية (١٩٠١م).

(27) Douglas Murray and Silva White: Ibid.

رسالة من بيكر إلى المستر تشارلز آلن، سكرتير "جمعية مكافحة العبودية".

(٢٨) فى أثناء رحلة الدكتور "جورج شفاينفورت" كان "إدريس" - وهو مجرد عبد فى الخرطوم - يُمتل غطاس" الذى أوكل له كل صلاحياته؛ وكان "إدريس" شخصاً مهماً فى "الزربية"، وكانت سلطاته مُطلقة ويمارسها كما لو كان حاكماً استبدادياً. ومع أنه كان زنجياً، إلا أن ذلك لم يؤثر أبداً على سطوته على النوبيين..."

راجع: "Au coeur de l' Afrique, 1868 - 1871".

(29) "Colonel Gordon in Central Africa", P. 237.

(30) Slatin Pacha: "Fer et "Feu au Soudan".

(٣١) المحفوظات المصرية. قصر عابدين. رسالة من جوردون إلى باروت بك، من سواكن بتاريخ ١١ يناير سنة ١٨٧٨.

(32) "Colonel Gordon in Central Africa", P. 278.

(٣٣) ذكر ناشر "مذكرات" جيسى أن "روسيت" كان قنصلاً لألمانيا وبريطانيا العظمى - فى الخرطوم - فى الوقت نفسه، ثم ترك منصبه ليشغل منصب "حاكم دارفور"، وهناك مات مسموماً فى شهر فبراير سنة ١٨٧٩.

(٣٤) إبراهيم فوزى باشا: المرجع نفسه.

(35) Ing. L. Robecchi: "Nell Harrar. "Milano, 1896.

(36) "Colonel Gordon in Central Africa"; Zeila, Le 20 avril, P. 312.

(37) Douglas Murray and Silva White: Ibid. P. 239.

(38) Archives anglaises. F.O. 78. Vol. 4194. ١٨٨٩ سنة ٩ مارس القاهرة،

(39) Ibid, F.O. 84. Vol. 1511.

٣١ مايو سنة ١٨٧٨. راجع الفصل المَعْنُون "إنجلترا ومصر في البحر الأحمر" في هذا الكتاب.

(40) "Colonel Gordon in Central Africa" P. 319.

ذكر هذا جوردون (H.Gordon) في كتابه:

"Events in the life of. Ch. George Gordon" P.n 332, 333.

(41) Archives anglaises. F.O. 84. Vol. 1511. 13 November 1878.

(٤٢) عندما عاد جوردون إلى مصر - سنة ١٨٧٩ - أدرك أن اتهامات "يونكر" ضد "فوزي" ليس لها أى أساس، فطلب من الخديوى ترقية فوزي إلى رتبة كولونيل، وعينه قائداً للكتيبة الأولى من اللواء الثالث، ومنحه ٣٠٠ جنيه تحية لذكرى الأيام التي قضياها سوياً في السودان.

(راجع كتاب: "A Prisonner of the Khalifa" تأليف: "Neufeld Charles"، وكتاب إبراهيم فوزي باشا)

(43) B.Allen: "Gordon and the Sudan", P.14.

(44) "Colonel Gordon in Central Africa", Pp.335-337.

(45) Ibid. P.342.

(46) Ibid. P.351.

(47) Miss Gordon: Ibid. Pp. 117- 118.

(48) Miss Gordon: Ibid. P. 119.

(49) Slatin Pacha: Ibid.

اعتمدنا على هذا الكتاب فيما يتعلق بذكر حملة "جيسي"، علمنا بأن الوقائع التي ذكرها جوردون وجيسي تتصف بأنها مُعرضة وغير صحيحة (المؤلف).

(٥٠) وصل "رابح" إلى منطقة "بحيرة تشاد"، وأنشأ إمبراطورية قوية في "باجيورمي"، وأصبح أحد أعداء التَّوسُّع الفرنسي هناك حتى استطاعت الحملات الفرنسية هزيمته في ٢٢ أبريل ١٩٠٠، وقاد هذه الحملات: ("جنتي Gentil، و"فورو" Foureau، و"لامي" Lamy، و"جوالانز" و"مينيه" Joualland et Meynier).

(٥١) كان مانفريدو كامبيريو (Manfredo Camperio) - رئيس تحرير مجلة (L'Esploratore) - هو الذي نشر مذكرات جيسي؛ وفي الفصل السابع عشر، يذكر أن جيسي قد طاف ببحيرة "ألبرت نيانزا"؛ وبعد عودته، شعر جوردون (بصفته رجلاً وطنياً إنجليزياً) بالضيق لأن شَرَفَ هذا الاكتشاف قد ناله شخص إيطالي وليس أحد مواطنيه: لا واطسون ولا شيدال. وذات يوم، قال لجيسي: "خسارة إنك لست إنجليزياً". لكن جيسي كان ذا طابع عنيف وله شخصية مستقلة، بالإضافة إلى أنه كان شديد الوطنية: فخلع قبعته وألقاها تحت قدمي جوردون، وقَدَّمَ استقالته فوراً. ومع أن هذا التصرف لا يتفق تماماً مع الانضباط العسكري، إلا أنه مفهوم ويُمكن التسامح فيه ..."

(٥٢) كتب الإيطالي "جابتانو كاساتي" ما يلي: "في المعركة البطولية التي نَمت ضد النخاسة، والتي كانت تهدف إلى إخضاع السود، تبرز أسماء أربعة رجال دفعوا الثمن من حياتهم، هم: جوردون، وجيسي، وماسيداليا، وإيميلاني. وما تزال هذه الأحداث قريبة العهد منا؛ ولذلك قلن نستطيع أن نحكم عليها حكماً نزيهاً ونهائياً. ومع ذلك، بمقدورنا أن نؤكد - منذ الآن - أن الحملة قد شابتها

بعض الأخطاء من وجهة النظر السياسية البحتة، وأن هدفها الأساسي لم يكن هدفًا إنسانيًا خالصًا ولا كريماً". ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية: Louis

DeHassem

"Dix années en Equatoria. Le Retour d' Emin Pacha et l' Expedition Stanley". Paris, 1892.

(٥٣) بعد عودة جوردون من جولته في المديرية الجنوبية، وفي أثناء تأملاته سنة ١٨٧٧، ذَكَرَ ما يلي: "إن حكومة مصر الشمالية تضايق سكان "النوبة"، و"دنجلة"، وغيرهما إلخ إلخ... وتسبب لهم القلق، فاضطروا للهجرة الجماعية إلى تلك البلاد الزنجية - التي يوجد بها عبيد - واستقروا هناك. وهم لا يدفعون الضرائب ولا يعترفون بسلطة الفرعون عليهم. ومن السهل أن نقول "اطردوا العبيد من هذه الأراضي"، لكن هذا سيعني أيضًا: "اطردوا السكان"؛ ففي هذه البلاد، يوجد من ٢٠ إلى ٣٠ ألف مصري يقيمون هناك لأن أي شاب شجاع يستطيع أن يأتي من وادي النيل إلى هنا، بالقرب من "دنجله". إن النوبيين والدنجلية لديهم ميل طبيعي لسرقة العبيد، لكنهم شجعان ومتميزون وأرقى بكثير من عرب شمال وادي النيل".

(رسالة من مدينة "دوجام" بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٧).

(Miss Gordon: Ibid.)

(٥٤) راجع رسالته الموجهة إلى مجلة "L' Esploratore" بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة

١٨٧٩، والتي نشرت في كتاب: "Sette anni nel Sudan Egiziano"

(٥٥) يقول جابرييل سيمون إن المبشرين اللازاريين قد أقاموا في "كيرين" (وهي قرية مصرية في ولاية "بوجوس")، وأنهم بنوا مساكن مريحة ولهم ملكيات يستغلونها هناك. وكنيستهم الجميلة الخشبية بُنيت على حساب الحكومة المصرية". راجع كتابه:

"Voyage en Abyssinie et chez les Gallas – Raiss"

(56) Douglas Murray and Silva White: Ibid. P.1 203

(٥٧) ذكر سيدنى لو (Sidney Low) ما يلي: "إن تاريخ الزمن الماضى يُحذرنا. وأعتقد أن الحملة الطائشة - التى شنها جوردون على النخاسة - كانت أحد الأسباب الأساسية للتمرد الأخير الذى اندلع ضد سيادة مصر فى تلك البلاد. ولولا وجود جوردون، فلربما لم يكن "المهدي" قد ظهر... إن هذا الهجوم الضارى على النخاسة قد اعتُبر بمثابة هجوم على الملكية الفردية فى أحد أشكالها الأكثر قِداسة. وكان مُلأك العبيد من أكبر الزعماء فى البلاد ولديهم قوات مسلحة، وكانوا - وما يزالون - أقوىاء. إننا نأمل فى ألا تمارس إنجلترا أية ضغوط مُتَعَجلة على حكومة السودان بهدف تغيير سياستها الحذرة والحكيمة فى هذا الموضوع الحساس". راجع كتابه:

"Egypt in transition." London, 1914, Pp. 67- 68.

وذكر البروفيسور هازينكليفر أجزاء منه فى كتابه.

(58) W.W. Loring: "A Confederate Soldier in Egypt," P. 335.

(٥٩) راجع: مقال بردى باشا (Purdy) بعنوان: "Le pays entre Dara et Hofra-el-Nahas".

(فى "مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية" - المجموعة الأولى - رقم ٨)

ومحمد سامي: "مخطط الفاشر" (بالعربية)

Mohamed Sabri: "Carte du Nord the Darfour"

"Carte d' El Facher, dressée d' après les données de Prout, par les officiers égyptiens: Maher et Fawzi.

(60) Dr. Abbate Pacha: "Le Soudan sous le Règen du Khedive Ismail". Le Caire, 1905.

* * *

الببليوجرافيا

أ- المصادر:

اعتمدنا في المصادر الأساسية على المذكرات غير المنشورة لمعاصري تلك الأحداث، كما اعتمدنا على محفوظات: "قصر عابدين" بالقاهرة، و"الكي دورسيه" (وزارة الخارجية الفرنسية) في باريس، و"وزارة الخارجية البريطانية" في لندن، وأشرنا إلى كل هذه المصادر في ثنايا الدراسة.

لكن العلماء والباحثين - المهتمين بمصر - لا ينبغي عليهم الاكتفاء فقط بمراجعة "المراسلات القنصلية" في ملفات وزارة الخارجية الإنجليزية: فهناك مجموعات أخرى من الملفات - في غاية الأهمية - عن مصر نهلنا منها، مثل ملف: "Suez Canal"، وملف: "Slavery"، وخصوصاً ملف: "Claims to sovereignty in the Red sea, Africa and Arabia".

وهذه العناوين الثلاثة توجد بها آلاف الوثائق في غاية الأهمية.

ب- المراجع:

توجد قائمتان بالمراجع العامة عن مصر: نشر الأمير إبراهيم حلمي القائمة العامة الأولى منهما في لندن في سنتي ١٨٨٦ و ١٨٨٧، في جزئين، بعنوان:

"The Literature of Egypt and the Sudan, from the earliest times to the year 1885 inclusive."

وهذا المرجع الرائع يتناول مصر القديمة والحديثة والسودان حتى سنة ١٨٨٥. واستكمل البروفيسير René Maunier هذه القائمة - لكن بخطة مختلفة - وأصدرها بعنوان:

"Bibliographie économique, juridique et sociale de l' Egypte moderne (1798 - 1916).

وكما هو واضح، فإن السودان والبلاد الأخرى (التي كانت جزءاً من الإمبراطورية المصرية) لم يظهروا في هذه القائمة.

ويجب علينا أن نذكر قائمة المراجع الرائعة التي نشرها - J. Charles Roux عن قناة السويس في دراسته: "L' Isthme et le Canal de Suez", T. II, 1901.

وذكر المستر Bernard Allen قائمة مراجع جيدة عن السودان - وعن جوردون تحديداً - في كتابه الذي صدر مؤخراً بعنوان: "Gordon and the Sudan", London, 1931.

وعن "هرر" و"شرق أفريقيا"، يمكن مراجعة القائمة التي أوردها Philipp Paultschke في دراسته: "Die Geographische Erforschung der Adäl- Lander und Harar's in Ost- Afrika (Leipzig, 1888).

وهناك قائمة أخرى بالمراجع قدمها Gabriel Ferrand في دراسته: "Les Comalis".

ج - الكتب والوثائق:

أولاً: التاريخ المالى والسياسى:

نقدم - فيما يلى - قائمة بأهم الكتب التى تناولت التاريخ المالى والسياسى:

(1) Seymour Keay: "Spoiling the Egyptian, A tale of chame". London, 1882.

صدر هذا الكتاب في صيف سنة ١٨٨٢ - في أثناء قصف مدينة الإسكندرية بقنابل الإسطول البريطاني - فكان له صدى واسع، وأثار رد فعل أخلاقي لصالح مصر في الأوساط الليبرالية. ويقول ويلفريد بلنت عنه: "إنه مَلْخَصٌ حتى يعتمد على" الكتاب الأزرق"

(2) Theodore Rothstein: "Egypt Ruin. A financial and administrative record". London, 1910.

واستخرج المؤلف المعلومات من مجموعات جريدة Times و"الكتاب الأزرق". ويبدأ التاريخ المالي منذ سنة ١٨٧٦، وهو تاريخ التدخل الإنجليزي.

(3) J.C. (Jean Claudy): "Histoire financière de l' Egypte depuis Saïd Pacha (1854 - 1876)". Paris, 1878.

ونتوقف هذه الدراسة القوية عند سنة ١٨٧٦.

(4) Sidi Lokmann El Hakim (John Ninet): "Les Milles Pertuis des finances du Khédive".

وهذا الكتاب المبتكر مليء بالتفاصيل اللاذعة عن بعض المساومات المالية.

(5) Charles Lesage: "L' Invasion anglaise en Egypte, L' Achat des actions de Suez", Paris. 1906.

(6) Rivers Wilson: "Chapters of my Official Life". London, 1916.

(7) Baron des Michels: "Souvenirs de Carrière (1855 -1886)".

(8) Lord Cromer (Evelyn Baring): "Modern Egypt"^[١]

[1] يوجد في النص الفرنسي خطأ في الترقيم: فرقم (٧) تكرر مرتين، فصححناه. وبالتالي، فإن الرقم (٨) - في النص الفرنسي - سيصبح (٩) في الترجمة، والرقم (٩) سيصبح (١٠)، وهكذا [المترجم].

(9) Lord Milner: "England in Egypt"^[1]

وقد ترجم المسيو Mazue هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية بعنوان: 'L'Angleterre en Egypte".

(10) Farman (القنصل الأسبق للولايات المتحدة الأميركية في القاهرة):

"Egypt's Betrayal"

(11) De Freycinet: "La Question d' Egypte".

(12) Mac- Coan: "Egypt as it is".

(13) Mac- Coan: "Egypt under Ismail".

(14) F.C. Penfield (القنصل الأسبق للولايات المتحدة الأميركية في القاهرة):

"Present – Day Egypt". New york, 1903.

(15) De Malortie: "Native Rulers and Foreign Interference".

(16) Edwin de Leon (القنصل الأسبق للولايات المتحدة الأميركية في القاهرة):

"The Khedive's Egypt."

(17) Edward Dicey: "The story of the Khedivate".

(18) Moberly Bell: "Khedives and Pashas by one who knows them well".

(19) Amédée Sacré et Louis Outrebon: "L' Egypte et Ismaïl Pacha". Paris, 1865.

(20) Olivier Ritt: "Histoire de l' Isthme de Suez", Paris, 1869.

[2] يوجد هنا خطأ هجائي في كتابة اسم مصر العزيزة في صيغة الاسم بالإنجليزية ("Egypt"): فقد كتب بصيغته الفرنسية (Egypte) [المترجم].

- (21) Ferdinand de Lesseps: "Lettres, journal et documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez", 4 Vols.
- (22) P. Fitzgerald: "The Great Canal at Suez. Its political, engineering and financial history". 1876. 2 Vols.
- (23) J. Charles- Roux: "L' Isthme et le Canal de Suez. Historique, état actuel". 2 Vols, in 8, 1901.
- (24) Voisin Bey: "Le Canal de Suez. Historique, administrative et actes constitutifs de la Compagnie (1854 - 1902)". 7 Vols. In - 8 et atlas in - folio, 1902 - 1907.
- (25) Ernest Desplaces: "Le Canal de Suez", 1859.
- (26) L. Ginoux: "Suite de l' Histoire de Canal maritime de Suez". Port Saïd, 1884.
- (27) W.H. Russel: "Diary in the East, during the tours of the Prince and Princess of Wales", 1869.
- (28) H. Pensa: "L' Egypte et le Soudan Egyptien", 1895.
- (٢٩) الفيكونت فيليب دى طرازى: "تاريخ الصحافة العربية"، بيروت، سنة ١٩١٣.
- (30) Elgood (Colonel G.): "The Transit of Egypt".
- (31) Sidney Low: "Egypt in Transition". 1914.
- (32) John Ninet: "Au Pays des Khédives. Plaquettes égyptiennes", in – 16. 1889.

(33) A. Holynski : "Nubar devant l' Histoire". 1885.

(34) E. Bertrand: "Nubar Pacha (1825 - 1899), Notes et impressions". Le Caire. 1904, 48 pages.

ثانياً: السودان وبيكر وجوردون:

لا توجد أية دراسة علمية كاملة عن السودان في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من صدور مئات الكتب - في إنجلترا وغيرها - عن جوردون (البطل، والمسيحي، والجندي، والإداري)، إلا أنه لا توجد دراسة وافية عنه حتى الآن.

(1) Bernard Allen: "Gordon and the Sudan".

نشرت هذه الدراسة في سنة ١٩٣١ بمناسبة مئوية عيد ميلاد جوردون، وهي - بالتأكيد - أفضل ما صدر عنه إلا أن بنا عنيان:

١- الانحياز لجوردون.

٢- واكتفاء المؤلف - عموماً - بذكر أقوال جوردون وأعماله والتعليق عليها بدون أي نظرة نقدية.

(2) Lytton Strachey: "Eminent Victorians"

راجع خصوصاً الفصل المعنون: "The End of General Gordon"

وهذا الكتاب ليس دراسة عن جوردون بقدر ما هو "رسم صورة" حية له. وصدرت ترجمة موجزة له بالفرنسية تحت عنوان: La fin tragique de Gordon "Pacha" في مجلة: "Revue des Deux Mondes"، في عددي ١٥ أبريل والأول من مايو سنة ١٩٣١.

(3) Victor Cheburliez: "Profils Etrangers (Charles Gordon)"

ويرسم هذا الكتاب - أيضا - صورة حية لجوردون، وهو مساو - في قيمته - للكتاب السابق.

(4) Miss Gordon: "Letters of General C.G. Gordon to His Sister". London, 1888.

(5) George Birbeck Hill: "Colonel Gordon in Central Africa (1874- 1879), from original letters and documents".

هذا الكتاب عبارة عن مقتطفات من رسائل جوردون. وبالتالي، فهو مصدر مهم لمعرفة نفسية جوردون. لكنه غير كامل ويجب مناقشة بعض المزاем التي يذكرها.

(6) Slatin Pacha: "Feuer und Schwert in Sudan (1879- 1895)". Leipzig, Brockhaus, 1896.

ترجم G. Bettex هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية ونشره في القاهرة سنة ١٨٩٨ بعنوان: "Fer et feu au Soudan". وهذه الدراسة هي أكثر الدراسات موضوعية وحيادا عن أسباب قيام تمرد الحركة المهدية في السودان، وهذا ما يجعلنا نشعر بالأسف لأن الترجمة الإنجليزية - التي قام بها "وينجت باشا" - غير دقيقة ومُغرضة.

(7) Achille Biovès: "Un grand aventurier du xix siècle :Gordon Pacha". Paris, 1907.

(8) W.S. Blunt: "Gordon at Khartoum", 1911.

(9) Demetrius Bougler: "Life of Gordon". 1896.

(10) Sir H.W. Gordon: "Events in the life of Charles - George Gordon". 1886.

(11) Douglas Murray and Silva White: "Sir Samuel Baker. A memoir"^[1]

وهي أفضل دراسة عن بيكر.

(12) W.H. Wilkins: "The Romance of Isabel, Lady Burton".

(13) Romolo Gessi: "Sette anni nel Sudan Egiziano". 1890.

ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية^[4] بعنوان: "Seven years in the Sudan". London, 1892.

ويذكر المترجمون الإنجليز - في مقدمتهم - أن الطبعة الإنجليزية مَزُوْدَة ببعض الرسائل المهمة التي لم يسبق نشرها في الطبعة الإيطالية.

(14) Georg Schweitzer: "Emin Pascha", Berlin, 1898.

- Emin Pascha, "His life and work compiled from his journals, letters, scientific notes and from official documents", With an introduction by: R.W. Felkin, London, 1898, 2 vol.

ومقدمة فيلكن مفيدة للغاية.

(15) Dr. G. Schwein Furth et Dr. F. Ratzel: "Emin Pascha. Eine Sammlung von Reisebriefen und Berichten aus den ehemals Aegyptischen Aequatorial Provinzen und deren Grenzlaendern", Herausgegeben, Leipzig 1888.

[3] يوجد - في النص الفرنسي - خطأ في الترقيم: فالرقم (١١) غير موجود. وفي الترجمة قمنا بتصويب ذلك: فالرقم (١٢) في النص الفرنسي سيصبح الرقم (١١)، والرقم (١٣) سيصبح (١٢)، إلخ إلخ ... [المترجم].

[4] مع ملاحظة أن عنوان الترجمة الإنجليزية قد حذف الصفة "المصري" الموجودة في العنوان الإيطالي [المترجم].

ترجمت المسز فيلكن هذا الكتاب إلى الإنجليزية، لندن، سنة ١٨٨٨ تحت

عنوان:

"Emin Pascha in Central Africa".

ونشره وعلق عليه: البروفيسور ج. شفاينفورت، والبروفيسور ف. اتزل،
الدكتور و. فيلكن، والدكتور ج. هارتلاوب.

(16) Gaetano Casati: "Dieci Anni in Equatoria e ritorno con Emin Pacha",
Milano, 2 Vols.

ترجمه Louis de Hessem إلى الفرنسية، باريس سنة ١٨٩٢، كما ترجم إلى
اللغة الإنجليزية في مجلدين.

(17) Jules Cocheres: "Situation Internationale de l' Egypte et du Sudan",
Paris, 1903.

(18) Sir Samuel Baker: "Ismailia" London, 1875, 2vol. "Ismailia. Récit d'une
expédition dans l' Afrique centrale pour l' abolition de la traite des
noirs".

ترجمه إلى الفرنسية H. Vattermare، باريس، سنة ١٨٧٥.

(19) P. Crabitès: "Gordon, the Sudan and Slavery". London. 1931.

(20) Colonel Chaillé – Long: "L' Egypte et ses provinces perdues", 1892.

(21) Colonel Chaillé – Long: "My life in four Continents", 1912.

(22) De Malortie: "Here. There and everywhere".

(23) Dr. W. Junker: "Reisen in Africa ,1875-1886".

ترجمه H. Keane إلى اللغة الإنجليزية في ثلاثة أجزاء.

(24) W. Loring: "A confederate Soldier in Egypt". 1884.

(25) Dye: "Moslem Egypt and Christian Abyssinia".

(٢٦) نعوم شقير بك: "تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته"، ٣ أجزاء، سنة ١٩٠٣.

(٢٧) إبراهيم فوزى باشا: "السودان بين يدي جوردون وكيثشنر"، جزءان (بولاق ١٣١٩هـ).

(٢٨) إسماعيل سرهنك باشا: "حقائق الأخبار عن دول البحار"، في جزئين (بولاق ١٣١٤هـ).

(29) "The Personal papers of Lord Rendel", 1931.

(30) Vita Hassan: "Die Wahrheit über Emin Pascha", Berlin. 1893.

(31) Dr. George Schweinfurth: "Im Herzem von Africa 1868-1871", 1874.

وترجمت مدام H. Loreau هذا الكتاب إلى الفرنسية، في جزئين سنة ١٨٧٥، تحت عنوان: "Au coeur de l' Afrique (1868-1871)" وصدرت الطبعة الإنجليزية تحت عنوان: "The Heart of Africa" سنة ١٨٧٣.

(32) Prof. Adolf Hasenclever: "Agyptens im 19 Jahrhundert (1798-1914)".

(33) Dr. Abbate Pacha: "Le Soudan sous le règne du khédivé Ismaïl. Pages. 47 Notes d'une décade historique (1868-1878)". Le Caire, 1905.

ثالثاً: شرق أفريقيا المصري: من "الصومال" حتى "هرر".

(1) Capt. Sir Richard Burton: "First footsteps in East Africa or an Exploration of Harar". London, 1856. 2 Vol.

- (2) Ralph. E. Drake- Brockman: "British Somaliland". London. 1912.
 - (3) Gabriel Ferrand: "Les Comalis", Paris, 1913.
 - (4) F.L. James: "The Unknown Horn of Africa. An Exploration from Berberah to Leopold River". London, 1888.
 - (5) R.P. Azais et R. Chambard: "Cinq années de Recherches Archéologiques en Ethiopie, Province de Harar et Ethiopie Méridionale". Paris, Geuthner, 1931, 2 Vol.
 - (6) Gabriel Ferrand: "Notes sur la situation politique, commerciale et religieuse du pachalik de Harar". Bulletin de le Société de Géographie de l' Est, 1886, Nancy.
 - (7) Antonio Cecchi: "Spedizione Italiana Nell Africa Equatoriale de Zeila alle frontiere del Caffa". 3 Vols., Roma. 1886 - 1887.
- "Funf Jahre in Ostafrika".
صدرت ليذا الكتاب ترجمة مختصرة باللغة الألمانية بعنوان: "Funf Jahre in Ostafrika".
ترجمها Rumbauer سنة ١٨٨٨. لا ييزج، الناشر Brokhaus.
- (8) Ing. L. Robecchi Bricchetti: "Nell' Harar". Milano. 1896.
 - (9) E.Littmann: "Harar" (مقالة في "موسوعة الإسلام")
 - (10) Mouhamed Moukhtar: "Notes Sur le pays de Harar". Bulletin de le Société Khédiviale de la Géographie du Caire. 1876.

- (11) P. Paulitschke: "Le Harrar sous L' Administration Egyptieune (1875-1885)", Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie du Caire, serie No. 10, mars 1887.
- (12) P. Paulitschke: "Harar, Forschungsreise nach den Somal und Galla Ländern Ost-Afrika", Leipzig, 1888.
- (13) Jules Borelli: "Ethiopie Méridionale", Paris, 1890.
- (14) Bonola Bey: "L' Egypte et la Géographie", Le Caire, 1889.
- (15) "Red Sea and Gulf Aden Pilot", 1921 (تعليمات ملاحية)
- (16) D. Sacconi: "Il Governo Egiziano e le Tribu Galle e Somali", L' Esplora - tore, anno 7, 1883, p. 169.
- (17) Mgr. Taurin Cahagne: "Les Missions Catholiques". No. 621; 29 Avril, 1880, No. 630, 1er juillet 1881.
- (18) Mgr. Taurin Cahagne: Autour de Harar "Les Missions Catholiques", No. 677, 26 mai 1882; No. 678, 2 juin; No. 679, 9 juin.

هوامش المؤلف

(١) سَبَقَ لوينجت (Y.R.wingete) وأن ألف - سنة ١٨٩١ - كتابًا مشهورًا بعنوان "Mahdism and The Egyption Sudan". وعندما صَدَرَ كتاب سلاتين باشا باللغة الألمانية - سنة ١٨٩٤ - في لايبزج لدى الناشر B. Tauchilz، صَدَرَتْ له - في الوقت نفسه - طبعة باللغة الإنجليزية أعدها وينجت باشا؛ وأعيد طبع الترجمة الإنجليزية في لندن - سنة ١٨٩٩ - لدى الناشر E. Arnold: مما يدل على أن الكتاب قد وُزِعَ توزيعًا جيدًا يستحقه بالفعل نظرًا لأهمية المؤلف والمترجم معًا.

لكن وينجت باشا (حاكم السودان السابق) ترجم الكتاب ترجمة مُغرضة لخدمة أغراضه السياسية، ولكي يكتب تاريخ السودان بُناءً على وقائع مُشوَّهة أثبت الكثير من المؤلفين الجادين - من الإنجليز وغيرهم - عدم صدقها.

وإذا عقدنا مقارنة بين نص المقدمة (المترجم) وبين النص الأصلي (باللغة الألمانية)، سنجد أن وينجت قد تَعَمَدَ اختصاره، وتعمد إثارة البلبلة لكي يُلصق أسباب التمرد بالإدارة المصرية والموظفين المصريين بدلاً من أن يُوجَّه هذا الاتهام إلى جوردون وموظفيه "السودانيين" والأوروبيين.

ويُوجد كتاب آخر لاقى المصير نفسه أيضًا على يد وينجت: فالأب Oherwalder كان قد قضى عشر سنوات أسيرًا في السودان. وفي سنة ١٨٩٢، نشر في إنسبروك كتابًا بالألمانية عنوانه:

"Aufsland und Reich des Mahdi im Sudan" (تمرد المهدي وحكمه في السودان). وفي السنة نفسها، أصدر وينجت - في لندن - ترجمة إنجليزية لهذا الكتاب تحت عنوان: "Ten Years captivity in The Mahdi Camp (1882-1892)".

وعلى سبيل المثال لا الحصر: ففي الفصل الأول -الخاص بالمهدى وصعوده- سنجد هذه الجملة: "قام المهدى بتمهيد الطريق أمام دعوته: فاستمر في جولاته ملقياً مواعظه - في كل مكان- ضد ظلم الأتراك وانهيار العقيدة الإسلامية". وإذا بحثنا في الأصل الألماني، فلن نجد أبداً عبارة "... ضد ظلم الأتراك..." (وهو يقصد "بالأتراك" هنا "المصريين") فحديث المؤلف ينصب فقط على الدين.

وفي حقيقة الأمر، فإن النص المترجم قد تعرض - في أغلب الأحيان - للتشويه عن طريق الحذف والإضافة الناتجين عن أفكار وينجت وخياله. ومن الواضح أن وينجت قد أراد أن يخفي مسؤوليته إذا اتهمه أحد في يوم ما: فعندئذ، سيُدعى بأنه لم يسع لتقديم ترجمة حرفية للكاتبين، بل إنه أراد ترجمة المعنى - فقط - للغة الإنجليزية "لكي ينقل أفكار الأب Oherwalder بأمانة وفي لغة روائية بسيطة".

لكن وينجت شوه الأحداث أو غيّر من طبيعتها؛ وبذلك، يكون قد حرّف أفكار المؤلف وغيّر من طبيعتها في الوقت نفسه.

* * *

آراء النقاد والعلماء [١]

كتب المؤلف التاريخية

"وضع المؤلف عدة كتب بالفرنسية أهمها الكتابان اللذان أشار إليهما في المقدمة وكلاهما يقع في حوالى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير. وقد نفذت "طبعتهما وهما: "الإمبراطورية المصرية في عهد محمد على والمسألة الشرقية" (١٨١١ - ١٨٤٩)، و"الإمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزي - الفرنسي (١٨٦٣ - ١٨٧٩)".

آراء النقاد والعلماء فى الكتاب الثانى

عصر إسماعيل:

(١) مجلة العالم الإسلامى (الإنجليزية)، عدد ٢ يوليو سنة ١٩٣٤: "أظهر المؤلف فى هذا الكتاب ما اتصف به من دأب وتبسط فى العلم فى كتابه الأول (الخاص بتاريخ محمد علي) وهو يمشى قدماً فى إقامة ذلك الصرح الرفيع فى تاريخ مصر السياسى".

[١] فى سنة ١٩٤٨، نشر الدكتور محمد صبرى (السوربونى) كتابه: "الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر" باللغة العربية. وفى صفحة ٤ وما يليها، ترجم بعض آراء النقاد والعلماء الأجانب فى كتابيه: "الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية (وقد ترجمناه وهو تحت الطبع)، و"الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزى/ الفرنسى" (وهو الكتاب الحالى): فقننا بنقل ما ترجمه المؤلف بنفسه حرفياً مع إضافتنا لعلامات الترقيم اللازمة. وندين بالشكر لـأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشلق؛ فهو الذى زودنا بصورة ضوئية لهذه الصفحات [المترجم].

(٢) مجلة مدرسة العلوم الشرقية، بجامعة لندن عدد ١٠ فبراير سنة ١٩٣٤: "إن كتاب الدكتور صبرى عمل بنى على البحث، وأنه مدعم بالوثائق وأنه - سوى فيما يتعلق بمسائل السياسة الأجنبية - قائم على الانصاف والاعتزان.

(٣) - مجلة العلوم الدينية. التى تصدرها جامعة ستراسبورج، سنة ١٩٣٤: بعدما أشار صاحب المقال إلى عصرى عباس وإسماعيل، وإلى الصراع الجبار الذى دار فيهما (حول "المصالح" بين فرنسا وإنجلترا من ناحية وبين هاتين الدولتين ومصر من ناحية أخرى، وإلى أن دور المحفوظات قد انفتحت على مصارعها للمؤلف) قال: "وبذلك أمكنه الكشف عن حقائق كثيرة كانت مجهولة... ومهما كان الأمر، فإن هذا الكتاب قيم بلا شك وهو أول تاريخ لمصر فى ذلك العهد".

(٤) مجلة الأستراسيون الفرنسية، عدد ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣: بعدما أشار الناقد إلى النزاع الاستعماري بين دول أوروبا فى أفريقيا، وإلى توسع مصرفى وادى النيل والسودان والصومال وهرر وأغندة وغيرها، وعلاقة مصر بالمشاكل الأفريقية، وما اكتنف هذه العلاقة من عناصر متشابكة لا حصر لها، مالية وسياسية واقتصادية، قال: "إن المؤلف قد فصل لنا هذه الحوادث، ونفخ الحياة فى ذلك التاريخ القريب منا بقوة الأسلوب وتوخى أقصى حدود الدقة فى أسانيده".

(٥) - مجلة بوليبليون الفرنسية. سنة ١٩٣٣: بعدما أشار الناقد إلى عصر إسماعيل وفضائحه المالية - التى أخذت منها بنصيب شركة قناة السويس - قال: "إن الصفحات الخاصة بجوردون ليست أقل الصفحات إمتاعاً فى ذلك الكتاب الممتلئ روعة من أى النواحي نظرت إليه... "إن هذا الكتاب ليس أقل من سابقه وهو يضى على صاحبه أكبر الفخر".

(٦) - مجلة الجمعية الجغرافية بباريس، عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣: "إن صبرى - العالم المصرى - قد أخذ على عاتقه كتابة تاريخ مصر من محمد على إلى

اليوم... وإن هذا الكتاب - الذى هو عمل ضخم مدعم بالمستندات الكثيرة - من وضع مؤرخ مصرى يفتح لنا فى تاريخ مصر، المرتبط بتاريخ أوروبا، سبلاً جديدة، لم تطرق من قبل، عظيمة الشأن".

(٧) مجلة الشهر (ليموا)، عدد ١٠ يناير سنة ١٩٣٣: "إن هذا الكتاب الفخم - الذى وضعه الأستاذ العلامة صبرى - يثبت لنا أن الفضائح المالية لم يخل منها بلد ولا زمان... وقد أظهر صبرى بقوة أن فرنسا فى ذلك العصر لم تكن أسلم طوية من إنجلترا. وقد برر المؤلف رد الفعل الذى حدث فى مصر وقتئذ ضد الدول الأوروبية التى كان أكبر ههما التفرير بمصر وسلبها ونهبها. ولا ريب أن هذا الكتاب عظيم الشأن من كل النواحي".

(٨) مجلة الدراسات التاريخية بباريس، عدد يوليو سنة ١٩٣٤: "هذا كتاب رائع جداً ومدعم بمستندات رصينة معظمها لم يسبق نشره. وهو يبحث فى عصر هام من تاريخ مصر، والتوغل الأوروبى فى أفريقيا. وهو ليس تاريخاً سياسياً - كما يصفه المؤلف - فحسب بل تاريخاً اقتصادياً واستعماريًا يجدد فى نواح كثيرة موضوعاً كنا لا نعرفه حق المعرفة. وقد ظهرت شخصية جوردون الغامضة فى جلاء رائع، وبانت مسألة قناة السويس فى جميع بواطنها الخافية".

(٩) مجلة أفريقيا الفرنسية، عدد فبراير سنة ١٩٣٥: "إن الوثائق التى أتى بها المؤلف تُظهِر فى صورة غير مشرفة الوسائل التى لجأ إليها دلييسبس للتحايل على ابتزاز المال من الخديوى إسماعيل. وقد بسط المؤلف المراحل السياسية المختلفة بقوة نفاذه، وبانت ملامح جديدة فى شخصية جوردون الغامضة".

(١٠) مجلة الآداب المستشرقة التى تصدر فى ليزر بقلم الأستاذ هارنكلير بجامعة جيتجن، عدد ٥ من سنة ١٩٣٥: "إن هذا الكتاب الثانى ليس أقل روعة وشأناً من الأول وأنه مثله تماماً فى توخى الدقة فى البحث، وفى براعة العرض والبناء، وفى تنوع فصوله ومناحيه".

(١١) المجلة الأمريكية التاريخية، بقلم هوسكنز الأستاذ بجامعة تفتس: "إن الكتاب - في مجموعه - قد كتب بدقة وإحكام، وبطريقة علمية رائعة منزهة عن كل مأخذ. وفي الكتاب وجهات نظر جديدة ليا شأنيا، وحسبه أنه يضيف ضوءا جديدا على مرحلة هامة من تاريخ التدخل الأوروبي في أفريقيا".

* * *

المؤلف في سطور:

أ.د. محمد صبري السوربوني

- ولد في القلج بمحافظة القليوبية سنة ١٨٩٠، وتوفي في القاهرة سنة ١٩٧٨.
- حصل على دبلوم الدراسات الجامعية سنة ١٩١٤ من السوربون ثم على ليسانس الآداب سنة ١٩١٩ من الجامعة نفسها.
- حصل على درجة "دكتوراة الدولة في التاريخ" من جامعة السوربون في ١٩٢٤ عن رسالته "نشأة الروح القومية المصرية (١٨٦٣-١٨٨٢)" فكان أول مصري يحصل على هذه الدرجة العلمية الرفيعة.
- أثناء دراسته في باريس، جند نفسه لخدمة القضية الوطنية المصرية من خلال تطوعه بالعمل سكرتيرًا لهيئة "الوفد المصري" ولساعد زغلول.
- عاد إلى مصر ١٩٢٤ وعمل أستاذًا بالجامعة وفي عدة وظائف حكومية متنوعة.

مؤلفاته:

له ٣٣ مؤلفًا باللغتين: العربية والفرنسية عن تاريخ مصر الحديث والأدب العربي منها:

١- "شعراء العصر"، في جزئين (١٩١٠ و ١٩١٢).

٢- "تذكرى الماضي" (١٩١٥).

- ٣- "الثورة المصرية" في جزئين (١٩٢٠ و ١٩٢١) [بالفرنسية].
- ٤- "المسألة المصرية من بونابرت حتى ١٩١٩" [بالفرنسية وقد ترجمناه].
- ٥- "نشأة الروح القومية المصرية (٨٦٣-١٨٨)" [بالفرنسية وقد ترجمناه].
- ٦- "الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية (١٨١١-١٨٤٩)" [بالفرنسية وقد ترجمناه].

المترجم في سطور:

ناجي رمضان عطية

- ولد في حي الجمالية بالقاهرة ١٩٥٠.
- حاصل على ليسانس الآداب - قسم اللغة الفرنسية وآدابها - كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٧٤.
- حاصل على عدة دورات ومنح تدريبية لتدريس اللغة الفرنسية من مصر وفرنسا.
- حاصل على عدة دورات لدراسة الآثار المصرية والإرشاد السياحي.
- عمل مدرساً للغة الفرنسية في المدارس الثانوية في جمهورية مصر ودولة الإمارات العربية المتحدة.
- عمل مترجماً للغة الفرنسية في جهاز الاستخبارات العامة بالمملكة العربية السعودية (١٩٩٠-١٩٩٤).
- يعمل حالياً مرشداً سياحياً ومترجماً حراً.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

أهم ترجماته:

- ١- المسألة المصرية من بونابرت حتى ١٩١٩، مجلة مصر الحديثة، العدد السادس، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، يناير ٢٠٠٧.
- ٢- نشأة الروح القومية المصرية (١٨٦٣ - ١٨٨٢)، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة عدد رقم ١٠٣٥، القاهرة ٢٠٠٧.
- ٣- نظرة على مصر في عهد بونابرت، تأليف جان - جاك لوتى، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٨.
- ٤- الإمبراطورية المصرية في عهد محمد على والمسألة الشرقية (١٨١١ - ١٨٤٩) - (تحت الطبع)

المراجع في سطور:

أ.د. أحمد زكريا الشَّلَق

- من مواليد طنطا ١٩٤٨.
- حصل على الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة عين شمس ١٩٨١.
- يعمل حالياً وكيلاً لكلية الآداب - جامعة عين شمس وأستاذاً للتاريخ الحديث والمعاصر.
- حصل على جائزة الدولة للتفوق في العلوم الاجتماعية ٢٠٠٦.
- رئيس تحرير سلسلة "مصر النهضة" التي تصدر عن مركز تاريخ مصر بدار الكتب والوثائق القومية.
- رئيس تحرير سلسلة "ذاكرة الكتابة" التي تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.
- من مستشاري تحرير سلسلة "التاريخ - الجانب الآخر" التي تصدرها دار الشروق.
- عضو "الجمعية المصرية للدراسات التاريخية"؛ و"لجنة التاريخ" بالمجلس الأعلى للثقافة؛ ومقرر "اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر" بدار الكتب والوثائق القومية.

من أهم مؤلفاته:

- ١- حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩.
- ٢- حزب الأحرار الدستوريين، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢.

- ٣- رؤية في تحديث الفكر المصرى (جزءان)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤ و ١٩٨٧.
- ٤- الحزب الديموقراطى المصرى ١٩١٨ - ١٩٢٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.
- ٥- فصول من تاريخ قطر السياسى، المركز الأكاديمى بالدوحة، ١٩٩٩.
- ٦- العرب والدولة العثمانية ١٥١٦ - ١٩١٦، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٢.
- ٧- تطور مصر الحديثة، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٣.
- ٨- الحداثة والإمبريالية، الغزو الفرنسى وإشكالية نهضة مصر، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٦.
- ٩- أحمد فتحى زغلول والآثار الفتحية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦.
- ١٠- الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦.
- ١١- تطور مصر المعاصرة: فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، القاهرة ٢٠٠٧.
- ١٢- طه حسين، جدل الفكر والسياسة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٨.
- بالإضافة إلى عشرات البحوث والدراسات في المؤلفات المشتركة والدوريات العلمية.

* * *

التصحيح اللغوي: سهام أبو العمرين

الإشراف الفني: حسن كامل

